شباب محمد ﷺ

سلسلة التاريخ الإسلامي

محمد فهمي عبد الوهاب

عبد الله بن الزبير

فارس المصلوب

دار الاعتصام

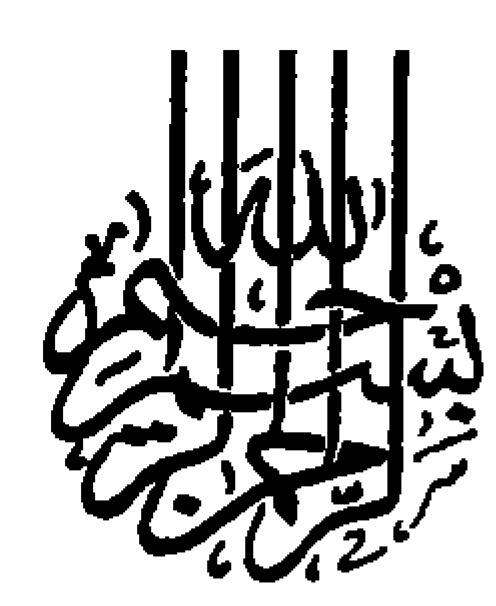
محمد فهمي عبد الوهاب



الطبعة الثانية

١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م

دار الاعتصام



مقدمة الطبعة الثانية

لا جدال فى أن شبابنا المعاصر – لا فى مصر وحدها وإنما فى أمتنا العربية والإسلامية – قد جرفته تيارات عاتية سواء من الشرق الملحد أو من الغرب المنحل ، فأبعدته عن معين الإسلام الطاهر ، وبالتالى أبعدته عن فطرة الحق ، فصار يضرب فى بيداء الحياة على غير هـــدى . .

والشباب فى كل أمة هو أملها ونبض حياتها ، وحصن أمانها ، والويل كل الويل لأمة فقدت مقومات شبابها ، فاستحال هذا الشباب نقمة عليها بدلا من أن يكون نعمة لها ، وقوة ذائدة عن حماها . .

من أجل ذلك كان الشباب فى الإسلام محل اهتمام الأمة فى الدرجة الأولى . . إذ كان هو المعول عليه فى حياتها وأمنها ، وتقدمها وسلطانها ، وعزها ومجدها . .

يقول ابن عباس رضى الله عنه : « ما آتى الله عبداً علما إلا شابا ، والخير كله فى الشباب » ثم تلا قوله تعالى : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هـــدى » .

ومن ثم لا نعجب أن نرى قادة الفتوحات الإسلامية فى الصدر الأول كانوا من الشباب . . فأسامة بن زيد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أول جيش بعثه صلى الله عليه وسلم لحرب الروم ، وعبد الله بن جحش أمره الرسول على أول سرية تقاتل قريشا . . وعبد الله بن الزبير كان قائد جيش المدد من عثمان رضى الله عنه

لحرب الروم فى الشمال الأفريقى ليلحق بالقائد الشاب عبد الله بن سعد بن أبى السرح قائد الجيش فى ميدان المعركة . . وفاتح الأندلس كان الشاب طارق بن زياد . وفاتح الهند كان الشاب محمد بن القاسم وهكذا كان أمر الشباب فى كل المواطن..يقودون الجحافل ممن يكبرونهم سنا وسابقة . . بل لقد رأينا الغلمان فى الأمة الإسلامية يتسابقون إلى بيعة الرسول الأعظم على الجهاد معه ، ورأينا كيف أن بعضهم كان يشب على قدميه ليزداد طولا حتى يجيزه الرسول للقتال . . ! !

* * *

ولقد دارت الأيام بالمسلمين ، وانعكس الحال ، وتبدد المجد وانهار السلطان . . بعد أن تحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

— « كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم !؟ » قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟؟ ، قال :« والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون!! » قالوا : وما أشد منه ؟؟ قال : « كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا !؟ » قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ ؟ قال : « والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون !! » وقالوا : وما أشد منه ؟؟ قال : « كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف !؟ » قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟؟ قال : « والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون . . قال الله تعالى : لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران »

نعم . . لقد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا ، الآخرة شر من الأولى . .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . . كتاب الله وسنة رسوله . .

* * *

ولقد آن الأوان لأمتنا أن تقيم بناءها من جديد على تقوى الله ، وأن تبنى أجيالها على أساس الدين وفضائله وعزته ، وأن تعنى بشبابها فتعيده إلى حظيرة الحق والإيمان . . كى يؤدى دوره الأصيل فى رفع لواء الكرامة والتحرير . .

ومن هنا نسوق إلى شبابنا اليوم سيرة شاب من أسلافهم الأمجاد وعلماً من أعلام الإسلام ارتفع بأمته إلى أوج المجد والسلطان ، بعد أن تربى فى مدرسة الرسول الأعظم ، واتخذ قائدها قدوة المسلم الصادق ، الذى يرجو الله واليوم الآخر .

ذلك هو أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير « الفارس المصلوب » .

ونحن إذ نعيد طبع هذا الكتاب ، فاننا نرجو أن يكون نبراساً لشبابنا ، ونور هداية على طريق العودة إلى الله . .

والله نسأل أن يمدنا بروح من عنده ، ويهدينا سواء السبيل . .

محمد فهمى عبد الوهاب

الإهداء

إلى هؤلاء الذين كرمهم الله بالإيمان الصادق فى محكم كتابه ، حيث قال :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . . أولئك هم الصادقون . . » .

إلى هؤلاء الأبرار من خلال الزمن . . منذ قامت دعوة الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . أهدى هذه الصفحة الناصعة من تاريخ أحدهم . .

محمد فهمى عبد الوهاب



مقدمة الطبعة الأولى

منذ ضرب المسلمون ضرباتهم القاضية لأعداء الإسلام فى الحروب الصليبية طوال مائتى عام ، كللت نهايتها بالنصر الحاسم على يد صلاح الدين الأيوبى ، الذى أذاق ملوك الأفرنج وقوادهم وأجنادهم كئوساً مرة من الهزائم المتلاحقة فى كل ميدان . . منذ ذلك الحين ، وأعداء الله ينظرون إلى الإسلام نفس النظرة الحاسدة الحاقدة ، ويتربصون الدوائر بأهله ، ويترقبون الفرص للقضاء عليه . .

ولقد علمهم الدرس القاسى أن أسلوب الحديد والنار لا يجدى فتيلا فى حرب المسلمين ، وكتابهم قائم ينطق بينهم بالحق ، ويجمعهم عليه ، ويدفع بهم إلى سبيل العزة والسيادة ، فكان المسلمون فى ظله « خير أمة أخرجت للناس . . »

وهنا أدرك أعداء الله أن الأخلاق – التى ذكرها رسول الإسلام على أنها صلب دعوته حيث قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » – هى عماد الحياة العزيزة فى كيان الدولة الإسلامية على مر العصور . . فبدأوا يوجهون قواهم للقضاء عليها شيئاً فشيئاً . .

ومرت السنون وئيدة بطيئة ، تحمل بين طياتها أعظم مؤامرة تاريخية دبرها الصليبيون فى الخفاء ، لتجريد المسلمين من ذلكم السلاح الأقطع ، الذى استطاعت قلتهم القليلة أن تقف به يوماً ما فى وجه العالم كله فى مشارق الأرض ومغاربها . .

أجل . . لقد استطاع أعداء الله فى غفلة من الزمن ، أن ينفذوا بشهواتهم من فوق أسوار البناء الإسلامى المكين ، تحت أعين الغافلين من حراسه فى العصور الأخيرة ، حينما صار أمر الدين فى أيدى الضعفاء من العلماء والأمراء . .

واليوم وقد تحقق لأعداء الإسلام ما أرادوا ، بل وأكثر مما أرادوا ، لا عجب أن يجنى المسلمون ثمار ما فرطوا فى جنب أنفسهم حينما فرطوا فى جنب الله ، واستبدلوا مدنية الغرب الداعرة بمدنيتهم الفاضلة ، وابتاعوا دنيا الكفار وبهرجها بعز دنياهم وأخراهم . . « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ، « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ،فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » « سنة الله فى الذين خلوا من قبل . . ولن تجد لسنة الله تبديلا . . »

ومنذ أكثر من عشر سنوات ، قامت دعوة شباب محمد صلى الله عليه وسلم تهيب بالمسلمين أن يفيقوا من غفلتهم ، ويفطنوا إلى مؤامرة عدوهم ، ويدركوا نهاية الطريق الوعرة التى ستنتهى بهم حتما إلى الهوة السحيقة ، حيث لا حياة بعدها ولا نشور . .

لقد نادينا وما زلنا ننادى : أن الرأى الإسلامى العام تلعب به حفنة من الأجانب ، قد بعث بهم أعداء الإسلام إلى بلاد المسلمين منذ عشرات السنين ، ليقيموا بأموال الصليبيين دوراً للصحافة والثقافة الغربية ، ليثنوا الأمة الإسلامية عن دينها وأخلاقها ، وآدابها وتقاليدها . .

ولقد نادينا وما زلنا ننادى : أن التعليم تعبث به رءوس معادية للاسلام ، تحمل أسماء المسلمين وتنسج على منوال الكافرين . .

ولقد نادينا وما زلنا ننادى : أن التبشير قائم على قدم وساق ، يعصف بمقومات الإسلام فى طريقه إلى القضاء على شعائره ومظاهره .. هذا التبشير الذى اتخذ فى السنوات الأخيرة صوراً خطيرة تختلف عنها فى الماضى ، فهو يستتر تارة وراء دور العلم والثقافة ، وثانية خلف جدران المستشفيات والمصحات ، وثالثة بين طيات القصص والمطبوعات الموضوعة خصيصا للتشكيك ، وقلب الحقائق ، والطعن فى أحكام الإسلام ، والنيل من أعلامه وعظمائه ، ورابعة . . وخامسة . . و . . و .

أجل ، لقد حذرنا الأمة — وما زلنا نحذرها — هذه الشباك المنصوبة فى كل مكان ، للأتيان على الدين من قواعده ، تنفيذاً لهذه المؤامرة الصليبية البعيدة المدى ، هذه المؤامرة التى كان لها أثرها الخطير فى إفساد الأجيال المسلمة ، وإبعادها عن مصادر هدايتها الحقيقية ، وعزتها الفياضة المتدفقة ، وصبغها بصبغة غريبة عن عقيدتها الصحيحة ، وتاريخها المجيد .

وكنتيجة لهذه السموم المدسوسة على الأمة المسلمة ، رأينا كيف صار الإسلام غريبا بين أهله ، وكأنه لم يكن بالأمس شيئاً مذكوراً . . كما رأينا كيف انقلبت الأوضاع ، واختل ميزان الحياة ، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، ومن ثم رأينا كيف صار تمجيد « العظماء » فى الدولة الإسلامية المشوهة فى هذه العصور المظلمة ، قائماً على أساس ما قدموه من خروج على الدين ، وافتراء عليه ،

حتى وصل الحال عند حد الغرابة والحيرة ، حين يجترئ على الإسلام وعظمائه أعداء الله من الفرنجة المتطفلين والمتفرنجين الملحدين . .

* * *

ونحن فى هذا الكتاب الذى نبدأ به سلسلة التاريخ الإسلامى ، والذى نتناول به طرفا من الإصلاح فى موضوع القصة ، التى أدخلها الغرب الصليبى وعملاؤه على مجتمع المسلمين ، بغية الخروج به عن عظمة تاريخه وعظمة رجاله إلى الخيالات السقيمة الفاسدة ، والاتجاهات المضلة المغرضة ، إنما نقذف موضوع الأوهـام الكاذبة بالحقائق الثابتة فى أسلوب القصة الصادقة ، التى لا ترقى إلى سمائها خيالات ولا أوهام .

وإن كنا قد بدأنا السلسلة بالـكتابة عن عبد الله بن الزبير « الفارس المصلوب » فإننا لا نقصد بذلك تقديم الأهم على المهم فى شخصيات الأعلام . ولـكنا بدأنا به فقط لخلو المـكتبة الإسلامية والعربية فى الوقت الحاضر من مطبوع يتناول شخصية هذا البطل الخالد على حـــدة . .

هذا . . وأملنا فى الله كبير أن يوفقنا فى المستقبل القريب إلى متابعة السلسلة بتناول تاريخ غيره من الأعلام عن طريق القصص الصادق . . وعند ذلك يمكننا تصحيح الأخطاء التاريخية المقصودة التى دسها أعداء الإسلام من الدخلاء وعملائهم على الـكثير منهم فيما أخرجوه من مطبوعات وقصص ، قصدوا بها القدح فى قالب المدح ، والتهوين فى قالب الرواية والتاريخ . .

والله هو الموفق والمستعان . . وهو خير الناصرين .

صدر عن دار الأرقم — محمد فهمى عبد الوهاب

١٣٧٠هـ — أمين ألوية شباب محمد صلى الله عليه وسلم

١ ــ أضواء فى ظلام الشرك . .

آذنت الشمس بالمغيب ، ولبس الكون رداء هادئاً من الجلال والسكون ، وأخذ الظلام يقبل رويداً رويداً من الأفق البعيد ليطبق على المدينة بحلكته ووحشته ، وانحازت ثلة من الشباب إلى جانب الطريق خارج مكة، وأخذوا يتسامرون ويتهامسون ويتجادلون . . وكلما رفع أحدهم الصوت فى حديثه ، أشفق عليه الباقون وأشاروا إليه بالهدوء والسكينة . . إنهم ليتوهمون أن فى الصخور المحيطة بهم ، والحصى المنتشر حولهم ، عيونا مبصرة وآذانا واعية ، تحصى عليهم حركاتهم وسكناتهم ، لتبلغها إلى مجلس الحكام فى جوف الكعبة . .

وأى خطر أعظم من أن يبلغ المجلس نشاط فرد من الخارجين على سلطان قريش وآلهتها . . إن له لنكالا دونه أى نكال ، وإذا كان محمد « صلى الله عليه وسلم » قد أعلن حربه على هذه الآلهة الصماء وسفهها ، فلأنه معصوم من الأذى إلى حد كبير ، لقوة عصبيته ، ولأنه ينتمى بالقرابة إلى سادة قريش ، ولأنه دون غيره ، معروف بين العرب بصدقه ، وأمانته ، وهيبته ، وإصالة رأيه . . ولكن أين لهؤلاء الذين تابعوه من القوة والهيبة ما يمنعهم من بطش الطغاة من عبدة الأصنام . . ! ؟

وبينما هم على أنفسهم منطوون ، إذ هز أوتار السكون وقع منظوم متتابع ؛ يسايره صوت الحادى فوق ظهر العيس عند منتهى البصر من طريق الشام.. ونظر بعضهم إلى بعض،وأمسكوا عن الكلام ، وأخذ الركب يقترب منهم شيئاً فشيئاً ، ثم نزل شاب من فوق بعيره ،

وأخذ يعدو فى مشيته ، وينافس العير بسرعته ووقع أقدامه الضخمة على صفحة الصحراء الهشة اللينة ، واستمر ينهب الطريق نهبا ، كأنه يخشى فوات أمر أو ضياع فرصة . . ثم أخذ يدنو قليلا قليلا ، وقد حجب تراب السفر كثيراً من بياض وجهه المشرب بالحمرة . .

وهنا التفت أحدهم وقال : إنه وأيم الله طلحة بن عبيد الله ، قادم الشام ؛ ولا أراه انفرد بعيره عن قوافل قريش إلا لأمر ! !

ورأى الشاب ثلة الشباب ، فأقبل يعدو نحوهم ، كأنه مسوق إليهم سوقا . . وحملق فى وجوههم ، فحياهم فى سرعة وأدب ، ثم دقق البصر فرأى نفسه أمام صديقه الزبير بن العوام فعانقه ، وشد على يديه وقال :

– هل كان من حدث يا ابن العوام ؟؟

– أجل . . حدث وأى حدث ! !

– عجباً . . وما الذى كان ؟؟

– محمد الأمين تنبأ . . .

– وهل تبعه أحد من وجوه القوم ؟؟

– تبعه ابن أبى قحافة . .

– وأين وقعت دعوته من نفسك يا أبا الطاهر ؟؟

– وقعت منى ومن هذا الرهط من إخوانى فى أحسن موقع : :

ونظر طلحة إلى الرهط ، فاذا هو بعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وعامر بن الجراح ، وعبيدة ابن الحارث ، وعثمان بن مظعون . . فقال :

- والله لا يسبقنى إليه أحد بعد الآن ، وما أنا بذاهب إلى بيتى إلا مؤمناً بالله ورسوله . .

ثم نظر إلى الزبير ، وقال :

- لتأتين معى إليه ، فانك ابن عمته والسابق إلى هدايته . .

- والله ما دفعنى إلى الإيمان به صلة القرابة ؛ ولكن صدق دعوته . . وما هدانى وهدى هذا النفر إلى سبيله غير أبى بكر . . فهيا بنا إليه . .

- يا ابن العوام . . والله إنه لرسول الله حقاً وصدقاً . . ! !

- عجباً يا ابن عبيد الله ! ! لقد حكمت عليه قبل أن تسمع منه ، وآمنت به قبل أن تجتمع إليه ، فمن الذى أنبأك قبل هذا ؟؟

- سوف تسمع عند أبى بكر . .

وسارا إلى بيت أبى بكر ، واستأذن الزبير لطلحة فدخل ، وأعلمه بخبره ، فسر الصديق ، وقال :

- حدثنا عن أمرك يا طلحة .

- كنت فى الشام كما تعلمون ، فبينما أنا فى سوق بصرى ، إذا بى أسمع راهبا فى صومعته يقول : سلوا أهل هذا الموسم ، أفيهم أحد من أهل الحرم ؟؟ فأسرعت إليه وقلت : نعم ، فقال لى : هل ظهر أحمد ؟؟ قلت : من أحمد ؟؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب ، هذا شهره الذى يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ، ومخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ . . فإياك أن تسبق إليه . . فوقع حديث الراهب فى قلبى ، فقطعت رحلتى وعدت أدراجى ، ووصلت

الساعة فلقيت أبا الطاهر وصحبه خارج مكة ، فسألتهم عما جهلته من الأمر ، فأعلمونى بما قد علمت ، فأسرعت إليك لتخرج بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

٢ ــ إيمان شاب . .

مضت الشهور تلو الشهور ، وجلس الناس ذات يوم يتسامرون فى نواديهم حول الكعبة ، وأخذوا يستعرضون سير هؤلاء الخارجين على سلطانهم ، وجاء ذكر إسلام طلحة على يد رسول الله ساعة حلوله من أرض الشام ، فأخذوا يتفكهون بأمره ويعلقون عليه بما يشاءون . . وفجأة طغى على الحديث ذكر الأخوة القديمة بينه وبين الزبير . . تلك الأخوة التاريخية منذ نعومة الأظفار ؛ حيث جمع بينهما التوافق فى كل شئ ، فى الروح ، وفى المزاج ، وفى الطبع ، بل تعداه إلى أن يتفق بينهما يوم الميلاد ! ! تلك الأخوة التى استطاعت فى النهاية أن تسوى بينهما فى العقيدة ، فراحا يلفظان تعاليم قومهما فى قوة وجرأة وإيمان . .

وإذا كان الشابان متحدين فى العقيدة ، فإن الناس ليرون طلحة ما يزال لين العريكة ، خفيف الحدة ، بينما يرون الزبير قد أصبح شديد البأس ، سريع البطش ، لا يبالى بالجهر برأيه لتسفيه أصنامهم ، معتداً بغض شبابه ، وصلابة عوده ، وطول قامته ، ولما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد . . وزاده شجاعة وإقداماً ، أن أحجم الناس عن إيذائه والتنكيل به لصغر سنه ، فما يزال فى عرفهم غلاماً لا خطر له على عقائد الرجال . . !

وبينما الناس فى حديثهم ، إذ شق صفوفهم شاب يبكى ويندب حظ أبيه ، وأخذ يصيح فيهم وهو يقول :

– إن الزبير بن العوام ضرب أبى وكسر ذراعه ، وكاد أن يقتله ، لولا أن احتجزه منه بعض الناس . . ألا يمسك ذووه عنان خلقه إن كان له أهل ؟؟ نريد عوضنا وثأرنا من هذا اليتيم المستعلى . .

واشتد غضب القوم ولغطوا فى أمره ، وأفاضوا فى الإساءة ، فوقف من بينهم نوفل بن خويلد يسأل الشاب ويقول :

– وماذا دعا ابن أخى إلى ما ذكرت ، أبينه وبين أبيك حاجة ؟؟

– لا حاجة بينه وبين ابن أخيك ، إلا عقيدة العرب . .

– ألا ما أسمجها من نغمة تبررون بها دعاواكم فى هذه الفتنة السوداء . .

– إنه سب دين العرب ، وسفه أحلامهم ، فاشتد غضب أبى ونهره ، فما كان منه إلا أن ألقى به على وجه الأرض ، وأخذ يكيل له اللكمات واللطمات ، حتى انتهى الأمر بكسر ذراعه ، وذهاب وعيه . .

– وأين أبوك الآن ؟؟

– ذهب محمولا على ظهره إلى بيت زوج أخيك صفية بنت عبد المطلب ، لترى إن كان لها بابنها حاجة بعد اليوم . .

وأسرع نوفل إلى البيت ، فوجد ابن أخيه ثائراً يريد أن يكسح أمامه أهل الرجل والناس يباعدون بينه وبينهم ، فلما رآه الزبير هدأت ثائرته ، فلبى إشارة عمه ، فلما دنا منه قال له :

– يا ابن أخي ، ما الذى دعاك إلى ما فعلت ؟؟

– هو الذى دعانى : ! !

– وكيف ؟؟

– لقد تعرض لعقيدتى ، ونال من رسول الله .

– أو ما تعتذر عن فعلتك ، لنصرف الرجل ونداويه ونرضيه ، فإنك مازالت غلاماً تصدر عن طيش ، وعذر الطائشين مقبول ؟؟

– والله لا أعتذر عن حق دافعت عنه ، وآمنت به . .

– إذن . . فواللات والعزى ، لن يهنأ عيشك فى كنفى ولا كنف صفية ، حتى تعود إلى رشدك وتقدس آلهتك .

– والله لا أرجع عن الحق أبداً ، ولو كان الهلاك فيه ..! !

٣ – صبر

بدأ الظلام يكتنف حياة الزبير بن العوام ، وأخذ أهله يتبرمون بمسلكه فى سب آلهتهم والتنديد بجهالتهم ، فتضافروا جميعاً للقضاء على عقيدته دون هوادة أو لين . . وبالغت أمه صفية بنت عبد المطلب فى القسوة عليه ، فلم ترحم يتمه ، ولم تبال بذكرى أبيه فى وحيدها الشاب . .

أخذه عمه نوفل بن خويلد ، فلفه فى حصير ، وأحكم وثاقه ، ثم علقه فى سارية ، وجعل رجليه إلى السماء ووجهه إلى الأرض وأوقد من تحته النيران ، تلحس محياه بلهيبها ، وتنفث فى عينيه سموم دخانها ،

وتملأ صدره بخبث ريحها : : وتأتى أمه صفية بالعصا الغليظة وهو على هذه الحال ، فتدق بها صدره ، ليلفظ عقيدته فى النار المتأججة تحته ، فلا يزداد إلا إصرارا على كلمة التوحيد وترديداً لشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . :

وتمر الساعات . . والناس من حوله يتعجبون لأمره ، ثم يتقدم إليه عمه ويقول : أما ترجع ؟؟ فيرد عليه قائلا فى قوة ويقين : « والله لا أرجع إلى الكفر أبداً ، وإن هذا فى الله لقليل . . » !!

وتسرى الكلمة الكبيرة فتملأ قلوب الظالمين يأسا ، وتذهلهم عن غايتهم ، فيكفوا عن إطعام اللهب . . ثم تأخذ النيران تخبو رويداً رويداً ، بعد أن يأكل بعضها بعضا ، فينهمر على كوتها الحامية سيل العرق مدراراً من جبين الزبير ، وتتساقط فوق حطامها الفانى قطرات الدموع من عينيه القريرة بالإيمان والرضى ، فتنطفئ شعلة البغى والعدوان ، ويبقى الشاب اليتيم صورة بارزة للإيمان الذى لا يتزلزل ولا يتزعزع . .

ويتقدم عمه اليائس ، فيفك عقاله . . ليبدأ وسيلة أخرى : .

ويتكرر الدرس القاسى كل يوم عند باب صفية ، ويجتمع عظماء قريش من بنى هاشم وغيرهم ليشهدوا الدفاع الفظيع عن الآلهة الصماء . . .

: . ويشاء الله أن تنعكس آية البغى بين أهل البغى ، فيرق قلب العم ، ويبدو عجزه واضحاً فى إطفاء أنوار الإيمان بجذوات النيران وسحب الدخان ، فينسحب من الميدان مهزوما . . بينما يقسو قلب

الأم ، فيلفظ آخر قطرة من ماء الحنان ورقة الأمومة ، فتتابع التنكيل بوحيدها ، وتبالغ فى الكيد لفلذة كبدها . . والإبن صابر محتسب ، ثابت على الوفاء لأمه والبر بها ، يقابل بطشها بالرفق والإحسان ، وجهلها بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . .

ويبلغ بنى نوفل فعال صفية بالزبير ، فينقلبون عليها ، ويثورون فى وجهها ، ويشتدون فى مؤاخذتها . . وتحرك العاطفة قلب نوفل فيطلب حماية ابن أخيه من بنى هاشم ، ويهددهم بالاحتكام إلى السيف ، فيسرع بنو هاشم إلى قتل الفتنة بين القبائل ، توحيداً للقوى ضد المسلمين ، ويعاتبون صفية فى أمر الغلام ، وينحون عليها باللائمة ، فتتراجع صفية أمام أهل بيتها عن غيها وقساوتها . . بل وتنشد أشعارها تبرر صنيعها وترجز بها نوفل وتقول :

من قال إنى أبغضه فقد كذب   وإنما أضربه لكى يلب
ويهزم الجيش ويأتى بالسلب   ولا يكن لماله خبأ مخب
يأكل فى البيت من تمر وحب

٤ ــ حرب العقائد

دارت الأيام . . وسرت دعوة الرسول فى أرجاء البلد الحرام بين أذى المشركين وإرهاقهم ، وأقبل الناس من أهل مكة على الإسلام سراً ، وواصلوا الاجتماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم عشية كل يوم . . وسمع أهل يثرب بأمر الرسول وأصحابه ، وحملت إليهم الأنباء كل عجيب عن إيمانهم ويقينهم وصبرهم ، فأقبلوا فى مواسم الحج كل عام ، ليروا طرفا من ذلكم الدين الجديد :

فأسلم القليل ، ثم تضاعف العدد بتعاقب السنين ، فازداد الخطر على كيان المشركين .

ودوى نذير الخطر ، فأصبحت مكة ميدانا رهيبا لحرب العقائد ، وأخذ الصراع العنيف بين الوثنية والتوحيد يقصف رعوده فى كل مكان ، وقامت قريش قومة رجل واحد للقضاء على كلمة التوحيد . .

وكانت محنة . . اختبر الله بها جنود الإيمان فصبروا صبر أولى العزم ، وهاجر المستضعفون منهم إلى الحبشة ، تاركين ديارهم وأموالهم وعشيرتهم ، ليفروا بدينهم فى مجاهل الأرض ، فهى أوسع لهم دارا . . ومرت بهم السنين وهم مشردون فى الآفاق ، فلم يشف ذلك من قلوب المشركين ، فتآمروا لإرجاعهم ، فأرسلوا من يدعوهم إلى مكة باسم أهلها ، ويخدعهم بأن أهل البيت الحرام قد آمنوا بالله ورسوله ، ويطلب منهم العودة إلى بلدهم الأمين ! !

وعاد مع رسول قريش من عاد من المهاجرين الأول ، فصب المشركون عليهم جام غضبهم وبالغ عذابهم . . وذاق الزبير من العذاب ألوانا جديدة ، وضيق أهله الحياة عليه ، فحرموه كل شىء . . بل قيدوه بالسلاسل على قارعة الطريق خلف جدار البيت ! !

واجتمعت قريش للقضاء على الدعوة الإسلامية فى أوسع نطاق ، وأبشع صورة ، وكتبت صحيفتها فى جوف الكعبة بمقاطعة المسلمين ، وحذرت القبائل من الاتصال بهم ، وقطعت أواصر الصلة بينهم وبين رحمهم . . وحرمت الزواج منهم ، وحاصرتهم قواتها فى شعب من شعاب مكة ، بعيداً عن الحياة فى رحاب المجتمع ، بل بعيداً عن الحياة فى رحاب الدنيا بأسرها . .

ولكن ما كان يبدو لطواغيت قريش من الغلبة والسلطان ، قد ارتدت حرابه المشرعة إلى قلوبهم ، وسهامه المسددة إلى صدورهم .. فلقد عالج الرسول الأعظم محنة المسلمين بحزمه وصبره وبصيرته ، فآخى بين أصحابه بمكة أخوين أخوين ، ليعين القوى الضعيف بقوته ، وليكفل الغنى الفقير بماله ، فكان الزبير أخا لطلحة . . وأحكم صلى الله عليه وسلم خطته ، فتتابعت الأقوات فى أجواف الليالى إلى شعب أبى طالب ، لإمداد المسلمين بالغذاء والكساء ، رغم كل شدة ومراقبة . .

ومرت ثلاث سنوات ، خرج المسلمون بعدها من ذلكم الابتلاء الكبير أعظم قوة ، وأصدق عزما ، وأثبت بنيانا . . ! !

٥ ـ تكريم ووفاء

اختلى أبو بكر بنفسه ذات مساء ، وأخذ ينظر من خلال ذاكرته إلى ذلكم البناء المكين ، الذى شادته يد الرسول وصحبه بجهادهم وتضحياتهم وصبرهم . حتى أصبح الدين الجديد بمكة أمراً واقعاً ، له خطره على عقيدة الجاهلية ، وغدت سيرة معتنقيه بالجزيرة العربية كلها مضرب الأمثال فى الشجاعة والأقدام ، والمحبة والإيثار . . واستوقف خياله جهاد الزبير وطلحة . . هذين الشابين الكريمين ، اللذين اختار الرسول أحدهما للآخر فى إخائه بين المسلمين فى معتقلهم بمكة ، فكانا مضرب المثل فى الحب والإخاء والتعاون فى ظل الإسلام ، بعد أن كانا مضرب المثل فى الحب والإخاء والتعاون تحت سماء الوثنية وفى حظيرة الأصنام . . !

وأراد أبو بكر أن يكرم الإيمان في أعماق الشابين ، وأن يسجل لهما الوفاء لدعوة الله ، منذ أن عرضها عليهما فاستجابا له صادقين ، قبل أن يلبي نداءه فرد واحد من آل بيته . . وأن يقدم لهما خير ما يستطيع وأعز ما يملك من صنوف التكريم والتعظيم . .

وهل يملك الصديق فى هذا المجال أعز من فلذات كبده ، يقدمهن زوجات طاهرات لأزواج طاهرين ؟؟ وهل يكافأ العزيز إلا بالعزيز ؟؟ بل هل هناك أولى بالمؤمنات من المؤمنين . . ! ؟ ؟

وأخذ أبو بكر من خلال خياله الجميل يفكر فى الأمر مليــا . . بأيهما يبدأ . . أبالزبير أم بطلحة . . فالصديق لا يملك فى حاضره إلا شابة واحدة قد نضجت ، هى أسماء . . وإلا فتاة صغيرة أخرى ، ما زالت تتمرغ فى أحضان الطفولة اللاهية البريئة . . وحتى هذه الطفلة قد انعقد عزم الصديق من قبل ، على تزوجها من رسول الله بعد نضوجها ، تدعيما لحبل الصلة ، وإظهارا لبعض المكنون من الوفاء ، بين الصادق والصديق .

وإذن . . فلا سبيل لتزويج كليهما فى وقت واحد . . هنالك دعا الصديق ربه بما دعاه . . فهو ولى الصالحين ، وهو الكفيل بأن يبلغه المأمول ، إن لم يكن فى الحياة . . فبعد الممات .

وفى لمحة خاطفة عقد الصديق عزمه على أن يبدأ بالزبير ، فيدعم بزواجه وشائج الصلة وأواصر القربى ، فهو الأحق ، لأنه المؤمن ، الفقير ، المعدم ، المطرود . . الذى استغنى بدينه عن دنياه . . وآثر أخراه على أولاه . .

وهكذا . . اختار أبو بكر لأبنته الغالية خير شباب المسلمين إيمانا وورعا ، وأعمرهم باليقين نفسا وروحا ، وأصبرهم على الجهاد بذلا وتضحية وفداء . . ففرح بذلك سيد المرسلين ، وطابت نفسه صلى الله عليه وسلم بالرضى ، ابر الصديق بأهل البر بالعقيدة ، وإن كان الزبير لا يملك من حطام الدنيا غير فرسه الذى يتقوت من السعى به فى سبيل العيش . . أجل ، إن فرح الرسول الدليل خير على توفيق أبى بكر ، وقرين بركة على ثمرة الزوجية فى مستهل حياة الإسلام .

أجل .. ما كان يملك الزبير غير فرسه ، حينما ارتضاه كبير أغنياء قريش زوجا لفتاته الفارعة الناضجة . . المملوءة أدبا وذكاء . . العريقة حسباً ونسباً . . الكريمة وسطاً وجاهاً . . ولكن ، أما كان فى مقدور الزبير أن ينشأ هو الآخر غنيا من أغنياء مكة ، لو سار فى ركاب الحياة الوثنية فى كنف بنى خئولته عند بيت عبد المطلب ، أو بنى عمومته عند بيت عبد العزى ، وهما الحيان اللذان تدين لهما العرب قبل غيرهما بالولاء والإكبار ، والسيطرة والسلطان . . ؟ !

وهل كان الزمان إلا خير عون لشبابه ونشاطه وقوته ، فى الوصول به إلى قمة المجد لو أراد ؟؟ ولكنه آثر الله ورسوله على كل شيء لوح به أعداء التوحيد ، فكانت نفسه الكبيرة أروح بالحرمان فى ظل الإسلام ، منها بالنعيم فى أكناف الجاهلين من عبدة الأوثان . . ! !

وإذن فما أسعد الصديق باختيار الزبير زوجاً لأسماء . .

وتسامع أهل مكة بزواج الزبير بن العوام من أسماء بنت أبى بكر ، فدهشوا للنبأ واستعظموه . . إنهم ليعلمون فقر الزبير ، ويلمسون

ضيق ذات يده ، ولكنهم يرون المسلمين لا يكترثون بهذه الفوارق ، ولا يقيمون لها وزناً أو اعتبارا ، بقدر أكتراثهم بمبلغ إيمان الفرد فى جماعتهم . . فعلى قاعدة الإيمان بالله ورسوله ، قام بناء المجتمع الإسلامى ، واستقر عليها ميزان الفضل بين المؤمنين طوال حياتهم القصيرة الرهيبة ، المليئة بكل غريب ومعجز وعجيب . .

وهكذا ، لم يكن زواج الزبير المؤمن الفقير ، من أسماء الطاهرة الغنية ، إلا ضوء جديد ، يسلطه أهل التوحيد على ظلام الجاهلية ، ليأذن بزوال مجتمعها الباغى ، الذى يقوم عماده على احترام القوة ولو كان مصدرها الوحوش الضارية فى صور بنى الإنسان . .

وإذن . . فلم يكن هذا النبأ غريبا فى أعين الكفار ، إلا لأنهم نظروا إليه من زاوية الخطورة ، التى تهدد مجتمعهم بالدمار والانحلال :

ولم يكن الزواج بين الزبير وأسماء ليقف عند هذا الحد . . بل تعداه إلى أعظم من ذلك . . لقد بدأ الزوجان الكريمان يشقان الحياة بروح جديدة متجانسة ، فتجاهلت أسماء ماضيها فى العيش الناعم فى بيت أبيها ، لتقاسم زوجها العظيم حياة الكد فى سبيل العيش الحر . . إنها أبت على شعور زوجها الغيور أن تقبل معونة من أبيها ، وكانت سعادتها بالعيش الخشن فى كنف الزبير ، لا تقاس بها نعومة الحياة فى كنف أبى بكر . . ! !

ولم تكن أسماء لتصدر فى حياتها الجديدة عن تكلف ومشقة يستوجبان منها الصبر والاحتمال ، ولكنها صدرت عن طواعية واختيار هما وليدا الوفاء الذى قامت عليه حياة الصديق مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، وأشربت به نفوس أبنائه منذ نعومة الأظفار ، فنما خلالها وترعرع .

لقد كان أبو بكر يلمس حال ابنته من الكفاف وخشونة العيش ، فما كان يستطيع أن يقنعها بقبول شيء من خيراته ، لأنها جعلت رسالتها إرضاء زوجها بالقناعة بكسبه ، والرضى بما قسم الله له من الرزق ، فوهبته كل وفائها ، وأعانته بكل قوتها ، وبثته من الإخلاص ما أخرجها عن مألوفها ، فكانت تعلف فرسه بنفسها ، وتكفيه مؤونته ، وتدق النوى لناضحه[1] .. وقد كان فى مقدورها أن تقبل خادماً أو خادمين أو ثلاثاً من بيت أبيها ، لتستعين بهن على شئون بيتها ، ولكنها رفضت كل ذلك ، واستعذبت النصب فى سبيل البر بزوجها الحبيب ، والاعتزاز برجولته وإيمانه ، والاعتراف بفضله وكفاحه . .

وإذا كانت أسماء تعرف أن زوجها صادق صامد فى مجابهة الحياة الخشنة اليوم ، فإنها على يقين بأن الله مجزل له العطاء فى مستقبل الأيام . . فإنه لا يضيع أجر المحسنين . .

٦ ــ إيمان شــابه

دار الفلك دورة من دوراته الرهيبة ، ووقفت عجلة الزمان عند مفترق الطرق بين النور والظلام ، وأخذت تتنازعها قوتان متباينتان ، قوة الحق يرفع عماده الرسول وحفنة قليلة من المؤمنين ، وقوة الباطل يحمل لواءه رؤوس مكة وسوادها الأعظم : . ولم يكن بد من أن

(١) ناضحه : جمل قد استأجره الزبير للعمل به فى نضح الماء من الآبار

يجابه الرسول أعداءه الأقوياء بأعظم حدث فى حياة الجزيرة العربية كلها ، عندما أذن الله له بالهجرة إلى المدينة تعززاً واستعداداً . . أجل ، لقد أدركت قريش أن سيف الهجرة قد فل سيف قوتها ، وأن سعيها فى القضاء على الدين الجديد خلال تاريخه الرهيب ، قد تحطم على صخرة الإيمان والتوحيد . . فأجمعت على قتل الرسول قبل لحاقه بأصحابه الذين سبقوه إلى المدينة . . فلم يبلغوا مرادهم ، وقد كان منهم على بعد خطوات . . ! ! !

ولقد شاء الله أن تقترن عظمة الهجرة بعظمة المرأة المسلمة ، وأن يجعل من أسماء الطاهرة مثلاً أعلى للايمان والصلابة فى الحق . .

فلقد ضربت قريش حصارها حول بيت أبى بكر عندما علمت بخروجه مع الرسول . . وتقدم أبو جهل ، فطرق الباب ولم يكن به سوى أسماء وأختها الصغرى من أبيها عائشة خطيبة رسول الله وأم رومان أم عائشة . . فتقدمت أسماء ففتحت ، فسألها :

ـ أين أبوك ؟؟

ـ لا أعلم . . . !

ـ متى خرج الليلة ؟؟

ـ لا أعلم .

ـ إلى أين سار ؟؟

ـ لا أعلم . .

ـ واللات والعزى لئن لم تفصحى لنؤذينك ! ! !

ـ لا أعلم . . وافعل ما بدالك . ! !

فلطمها الجبار لطمة أطاحت بقرطها من أذنها ، فانشقت فسالت منها الدماء . . فلم تعرها الفتاة اهتماماً ، بل تركت الدم يقطر على كتفها وهى ثابتة كالطود . . بالرغم مما كانت تعـانيه فوق ذلك من آثار الحمل فى أول عهدها بالحمل . .

ترى ماذا كانت النتيجة لو كان الزبير حاضرا بمكة هذه الساعة ولم يكن بعيداً عنها بسبب تجارته بأرض الشام . . !؟

بل ترى ماذا لو أشاح القدر عن وجه الغيب ، ليكشف لأبى جهل وللملأ الذين كفروا ، عن خطورة هذه النطفة الطاهرة ، بين أحشاء أسماء فى مستقبل تاريخ الجزيرة العربية ، بل فى مستقبل تاريخ الإسلام نفسه ، فى حدود دولته الفسيحة فيما بين المشرق والمغرب بعد حين ! ! إذن . . لاضطربت فرائصه ، ولعلم أن إرادة الله لا شك نافذة ، ولو غالبها أهل الأرض جميعاً . .

أجل . . لقد تراجع أبو جهل أمام ثبات الفتاة ، وانسحب خزياً وانكسارا . . وتبعه شباب قريش بأسلحتهم ورماحهم . .

ودخلت الفتاة ، وأغلقت عليها باب البيت من جديد ، وما كادت تأوى إلى مكانها ، حتى طرق الباب طارق آخر ، فقالت :

– أعوذ بالله من طارق لا يطرق بخير . .

وقامت إلى الباب وقالت :

– من بالبـــاب ؟؟

– أبو قحافـة

– جـــدى !؟

– أجل يا أسماء . .

ففتحت فدخل فقال :

ـ ما الذى كان من أمر ؟

ـ الخير إن شاء الله .

ـ خير . . ! ! أين أبوك يا بنية ؟؟

ـ هاجر إلى ربه مع خير خلقه . .

ـ وماذا دعاه ! !

ـ شرف الصحبة لرسول الله .

ـ وماذا تركه لكم خلفه ؟؟

ـ ترك الكثير . .

ـ لقد قال الناس انه قدم ماله كله لمحمد . ! !

ـ لقد ترك لنا كل شيء . . وحبذا لو كنت بصيراً لأطلعك . .

ـ فأريني إذن . .

عند ذلك أومأت أسماء إلى عائشة ، فجمعت حصى كثيراً من فناء الدار ، وجعلته فى صرة عظيمة ، قدمته إلى أختها ، فتناولته وقالت :

ـ ها هو ذا المال يا أبت . . قرب يدك . . وجعلت تمر بها على ظاهر الصرة وهى تقول : إنه لكثير . . إنه لكثير ! !

وفى جوف الليل خرجت أسماء ومعها أخوها عبد الله ، حاملة طعام رسول الله وصحبه قبل مسيرهما إلى يثرب . . وعند غار ثور ، تلفتت الفتاة فى ظلام الكون يمنة ويسرة ، وعرضت أذنها للريح

المرسلة ، تختبر فراغ الفضاء من عيون القوم . . ثم تقدمت إلى باب الغار ، واستأذنت فى الدخول ، وسلمت على رسول الله ثم على أبيها ، وقصت عليهما أخبار قريش وحركاتها .

وحان وقت الرحيل ، فأمر أبو بكر بتجهيز الراحلتين ، وجاءت أسماء بالطعام لتشده إلى رحال المهاجرين الكريمين ، فلم تجد شيئا يعينها ، فأسرعت إلى نطاقها فشقته نصفين ، أعادت أحدهما حول رأسها ، وشدت بالآخر طعام رسول الله . . ! !

ورأى رسول الله فعل أسماء ، فبدا السرور فى وجهه ، وملأ الحنان قلبه الكبير ، فدعا لأسماء فقال :

ــ أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة . .

ثم اعتلى الرسول وصحبه صهوة الراحلتين ، بعد أن ودعا أسماء وأخاها . . وسارا على بركة الله نحو دار الهجرة والأمان .

٧ — فى دار الهجرة

استقبل أهل المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهيبة والإعظام ، فتهيأ الناس للقائه والمثول بين يديه ، وتسابق غلمان المسلمين إلى خارج المدينة ينتظرون قدومه ويترقبون وصوله . . وبدت فى الأفق البعيد أضواء النبوة ، تشع من جبين سيد الخلق . . فعلت الأصوات بأناشيد الفرح والسرور . . :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

ولم تكن حرارة الاستقبال دليلا على أن المدينة كلها قد آمنت بالله ورسوله . . لا ، فهى مازالت رازحة تحت أثقال الشرك والضلال يسخرها اليهود لشهواتهم ومطامعهم، فهم أصحاب المال ، والمال عصب الحياة . . لا ؛ بل إن الرسول قد قدم المدينة فى وقت كاد أن يتبوأ عرشها فيه أحد كبار الأعراب من حلفاء اليهود ، ليتسنى لليهود امتصاص الدماء فى جو من الهدوء والاستقرار ، حينما يحكمون الأعراب بالأعراب ، ويذلون الأعراب بالأعراب ، وهم آمنون خلف الحصون مطمئنون – شأنهم فى ذلك شأن المستعمرين فى كل زمان ومكان ! !

وإذن . . لقد خرجت المدينة كلها خلف المسلمين لتملأ عينها من ذلكم الرسول الجديد ، الذى تحدثت بذكره الركبان ، وتحيرت فى إعجاز رسالته العقول والأفهام . .

وكان لابد للرسول من أن يقابل ظروف المهاجرين بحزمه وحكمته ، وقد صاروا إلى بلد لامال لهم فيه ولا متاع ، سوى رحابة صدور الأنصار ، الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم .. عندئذ آخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، إخاء جعل له حق إخاء الدم والنسب . . واستجاب الأنصار سراعاً لأمر نبيهم ، فشطروا أموالهم وما يملكون أنصافا بينهم وبين المهاجرين ، ثم تصاهروا فيما بينهم وترابطوا . .

ومضت الأيام لتكشف للرسول وأصحابه عن خطر اليهود والمنافقين ساعة بعد أخرى ، إنهم يبغون القضاء عليه وعلى دعوته ، إبقاء على كيانهم الذى أقاموه على أكتاف المستضعفين فى عصور الظلمات

والجهالة .. إنهم يرون خطر الهجرة النبوية ماثلا فى هذه الوحدة المتماسكة حول الحق ، والتى أذابت فى بحرها العذب ثارات الجاهلية وخلافات القبلية ، فأصبح المسلمون بنعمة الله إخوانا . . وإذن فليرجع اليهود وحلفاؤهم إلى مقاومة الدين الجديد مقاومة المستميت . .

ولكن . . على أى سلاح يعتمدون ، وقد فلوا من قبل كل أسلحتهم بأيديهم ! ؟

أليسوا هم الذين استعانوا على إخضاع العرب باستفتاحهم عليهم أن نبياً سيظهر ، كما تحدثت التوراة وذكر الإنجيل ! ؟

أليسوا هم الذين بشروا بمولده فى مكة وهجرته إلى المدينة ! ؟

أليسوا هم الذين هددوا الأعراب بقرب بعثته ليكونوا عونا له على من عاداه وكذبه ! ؟

أجل . . لقد ظهر النبى . . ولكنه ليس يهوديا — كما يحبون — فيعينهم على ظلمهم وبغيهم ومطامعهم . . إنه نبى عربى يدعو إلى الرحمة والعدالة ، وهما رمزان لا يعرفان طريقهما إلى قلب يهودى من اليهود .. أنه نبي عربى ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهما أمران يتعارضان مع طباعهم من قديم ، استحقوا عليهما لعنة الله : على لسان داود وعيسى بن مريم . . ! !

وإذن . . فليقاوموا الدين الجديد بالأوهام : وهى ما بقيت فى جعابهم من حجة وبرهان ! !

أعلن اليهود أنهم سحروا المسلمين فلن يولد لهم مولود بعد الهجرة ،

ولن يكون لأصحاب محمد بعد اليوم عقب أو ذكرى ، ولن يكون للاسلام من ضحية غير أهله . . ! !

وتمر الشهور تلو الشهور ، وأوهام اليهود تتمثل فى صورها المفزعة أمام ناظرى المسلمين . . وإن المسلمين ليدهشون من هذه الأوهام التى تكاد أن تطابق الواقع الملموس . ! !

حقاً ، إنها لمصادفة عجيبة ، تكاد أن تكون وهذه الأوهام على ميعاد . ؟ !

٨ — أول مولود . .

علم الزبير وهو بالشام بهجرة رسول الله وصحبه إلى المدينة ، فأسرع ينهب الطريق إليها ، ليشارك أصحابه ثواب الهجرة إلى الله . . إنه ليغذ فى السير ليهدئ من نار شوقه لخليله وإخوانه .

وبينما المسلمون مجتمعون فى المسجد إلى الرسول الأعظم ، إذ رأوا رجلا ينيخ بعيره أمام الباب ، ثم نزل فى سرعة ووقار ، وما أن أطل بوجهه الصبوح حتى قال المسلمون : الزبير . . الزبير !

وابتسم رسول الله وتهللت أساريره ، وضمه صلى الله عليه وسلم إلى صدره الكريم . . وكبر له المهاجرون والأنصار . .

وغاب الرسول برهة . . ثم عاد يحمل ثوبا أبيض فأعطاه للزبير . .

إنها هدية رسول الله إليه ، وهى هدية ذات مغزى . . إنها تنطوى على معنى من معانى الخلود . . تنطوى على علمه صلى الله عليه وسلم بنقاء سريرته ، ورواسخ عقيدته ، وبياض قلبه ، وحسن وفائه .

والتفت الأنصار بعضهم إلى بعض ، كل يريد أن يسبق الآخر

إلى شرف التآخى مع الزبير . . وهو المهاجر الذى لا يملك غير ثوب الرسول الأبيض ، فوق أثماله الممزقة . . ! ! وكبر سلمة بن سلامة ابن وقش ، حينما ارتضاه رسول الله أخا للزبير .

ودارت الأيام . . والزبير يجد فى سبيل عيشه ، وفى سبيل تدعيم دعوة الإسلام بدار الهجرة الجديدة . . ولكنه ما كان يستطيع أن يخفى حزنه لما ينشره اليهود فى أرجاء المدينة من دعاية السحر وعقم المسلمين . . إنه ينتظر اليوم الذى يولد فيه لمسلم مولود . .

وفى ذات يوم جلس المسلمون حول الرسول بالمسجد ، وجلس بينهم الزبير منصتا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلما نظر الرسول إليه وجده مطرقا خاشعا . . إن الحديث ليتناول عداوة اليهود للذين آمنوا . . وإن الزبير ليزداد إطراقا كلما انتهى الرسول عند وقفة وأخرى من خلال حديثه الساحر . . إن الحديث يذكره بقصة السحر الذى يزعمه اليهود ، فينتقل به إلى التفكير فى مقدم زوجه الطاهرة مع آل بيت الصديق من مكة . . إنه ليعرف أن الركب ما كان ليبطئ فى الطريق أو يتأخر فى الوصول أياما إلا لأمر ، لعله المرض ، أو الموت ، أو ما هو دون ذلك . .

وبينما هم كذلك . . إذ أقبل رسول النبى من مكة ، يسبق آل بيت الصديق ليبشر بسلامة الوصول . . ولكن إلى قباء .

ونهض الزبير ليستفسر عن سر التوقف فى قباء،فبادره البشير قائلا :

– أبشر يا ابن العوام ، فقد رزقك الله بمولود كريم . . ! !

– وأين . . ومتى ؟؟

– فى قباء الساعة . .

ودوت هذه الكلمة فى قلب المسجد ، فكبر لها المسلمون وهللوا .

وأسرع أبو بكر والزبير إلى قباء ، فحمل الزبير أسماء إلى هودجها مع أختها الصغرى ، عائشة وأمها أم رومان . . وتوجه بهن إلى منزل أبى بكر خارج المدينة . . أما أبو بكر ، فعاد إلى المسجد يحمل بين يديه أول مولود للمسلمين .

وتناوله رسول الله ، ووضعه فى حجره ، وتبسم له وقال : إنك أشبه الناس بأبى بكر . ! ! ثم دعا بتمرة فضغها وحنكه بها ، فكان أول شىء دخل جوف ابن الزبير هو ريق النبى !! ثم سماه صلى الله عليه وسلم عبد الله وكناه بأبى بكر ، تيمنا باسم جده وكنيته . .

وتبادل صحابة الرسول مولودهم يقبلونه ! ويضمونه إلى صدورهم ، ثم طافوا به خلف جده حول المدينة ، يعلنون كذب اليهود ، ويرتلون أناشيد النصر ، ويردون كيد الأعداء إلى نحورهم .

ولم يبد اليهود دهشتهم للنبأ ، ولكنهم قبعوا فى حصونهم ، مدحورين مهزومين . ! !

حقاً . . إن عبد الله الوليد ، كان وحده أعظم من جيش ! !

٩ – إشراقــة الأمل . .

أخذت عجلة الزمان تسرع فى دورانها ، لتمهد للمهاجرين والأنصار سبيل التساند والاستقرار ، ولتدمر فى طريقها كل عقبة يقيمها أعداء التوحيد فى الخفاء وفى الظهور . . ومضت على الهجرة سنة وبعض سنة ، أخذ الوحى من خلالها يسلك سبيله بين السماء والأرض

هابطا وصاعدا ، ليدعم للرسول والذين آمنوا معه صرح الهداية والقوة والنظام . . وأخذت آيات التشريع تنزل من الملأ الأعلى على قلب الأمين ، فينطلق بها لسانه الفصيح بين كتاب الوحى وأمنائه ، ليضيفوا الآية بعد الآية إلى سجل القرآن الكريم . .

وفى ذات مساء ، أخذ الزبير بن العوام يشق طريقه مسرعا إلى بيته تحت جنح الظلام ، وما أن طرق الباب حتى أدركت أسماء أن الطارق هو زوجها الحبيب ، فأسرعت لاستقباله حاملة بين يديها طفلها العزيز عبد الله . . فسلم عليها ودخل ، فأسرعت من خلفه إلى صحن الدار لتهيء له الفراش ليستريح . . ثم جلست بإزائه ، فرأت الفرح يعلو محياه ، ولمحت النور يشع من جبينه ، وبصرت بين يديه قرطاسا . .

وأدركت أسماء أن هناك نبأ هاما من أنباء الرسالة المحمدية ، وأن القرطاس الذى يحمله الزبير ، ليحوى الجديد من آيات التنزيل ، وأن هذه الآيات الجديدة لم تكن كسابقتها فى عالم التشريع . ! !

لقد اعتادت بنت الصديق عند نزول الآية أو السورة على رسول الله ، أن ترى زوجها يحمل بين يديه قرطاسه الذى جمع فيه التنزيل ، وهو ينتفض انتفاض المحموم لفرط تأثره وخشيته . .

ولكن ما باله الليلة فرحاً مسرورا ، باسم الثغر ، مهلل الأسارير حتى لقد أثناه الفرح عن عادته كل ليلة فى المبادرة إلى حمل طفله بمجرد دخوله البيت منذ ولادته التاريخية . . ! ؟

ولم تشأ أسماء أن تسال زوجها عما يتخلل أعماقه من السعادة والرضى ، ولكنها شاركته سعادته ورضاه ، فأخذت تتسلى بتدليل طفلها ، بينما أخذ الزبير يفتح قرطاسه ويسلط عينيه على مكنونه سطراً سطراً ،

وكلمة كلمة . . ثم التفت إلى زوجه الطاهرة وقال :

— يا أسماء . . استمعى إلى ما أنزل الله الليلة على رسوله بالحق .

ثم عاد ببصره إلى القرطاس ليقرأ قوله تعالى :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز • الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور . . » .

ولم تعجب أسماء أن تفعل هذه الآيات الكريمة فى نفس زوجها فعل السحر ، فهو المؤمن الذى برح به الأذى دفاعا عن دينه وبرا بعقيدته . . وهو الذى اضطره النصب إلى أن يهاجر وهو غلام يتيم ، فترك موطنه الذى ترعرع فيه بمكة ، إلى غربة الهجرة فى بلاد الحبشة . . وهو الذى أعاده الكفار إليهم مرة أخرى — مع من أعادوهم بخديعتهم — فصبوا عليه العذاب صباً ، وأذاقوه العنت ألواناً . . وهو الذى استبد به الضيق يوما بمكة لما تفعله قريش بضعفاء المسلمين ، فاستل سيفه لأول مرة فى تاريخ الإسلام ليجابه وحده طغيان الظالمين ، وهوى به على طاغية من طغاتهم ، وكاد نذير الحرب أن يدوى بين القبائل لاستئصال شأفة المسلمين ، لولا أن تدخل الرسول بحزمه ، ودفع الدية إلى أهل المطعون ، بعد أن خفف حدة الزبير . ودعا له بالخير . . وتعهد بألا يرفع مسلم سيفه ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . . وهو الذى أصبح بعد هذا وذاك فى دار هجرته الثانية بالمدينة ،

ليدفع ضريبة صدقه ويقينه ، صبراً وفداء مع المهاجرين وسيد المهاجرين . .

لا عجب أن يفرح أبو عبد الله بنزول هذه الآيات الكريمة أشد الفرح ، وأن يفرح بها كل بيت للمسلمين بالمدينة وما حولها ، لأنها إيذان من الله عز وجل بأن يسترد المؤمنون حقوقهم ، ويجنوا ثمرات بلائهم ، ويتبوأوا مكانتهم الجديرة بخير أمة أخرجت للناس : :

أجل : . لقد صادفت هذه الآيات الخالدات ، معنى كمينا فى أعماق الزبير ، طالما ترقب صداه على مضض فيما بين النبى والملأ الأعلى ، عند كل مرة يدعوه الرسول الأعظم لتدوين الآية أو السورة من القرآن : :

حقاً . . لقد رفعت كلمات الله الليلة أثقالا من الضيق عن كاهل أبى عبد الله ، وأزاحت عنه أغلالا من القيود ، طالما حالت بينه وبين إرضاء غريزته فى رد العدوان بالعدوان ، ومقابلة القوة بالقوة ، والانتصاف للحق فى أية صورة من صوره ، وإن كان وحيدا بين براثن المشركين : :

وإذن . . فليهنأ الزبير بما وهبه الله من نعمة الصدق والقوة والإقدام ، وليكشف القدر عن غطاء الغيب يوما بعد يوم ، لتقرأ الدنيا صفحات من النور والمجد والخلود فى سجل أبى عبد الله . .

١٠ — فارس الرسول . :

دخلت دعوة الرسول فى طور جديد من أطوار القوة ، وبدأت سرايا المسلمين ترفع أعلام الجهاد تمهيدا للكفاح فى سبيل حرية

العقيدة . . ولم تمر أشهر على نزول الأذن بالقتال ، حتى نادى رسول الله بالخروج إلى بدر . .

وأسرع الزبير إلى بيته ، ليودع زوجته وطفله ، ثم اعتجر عمامته الصفراء ، وتجرد بسيفه الصلت ، واعتلى صهوة جواده ، وانضم إلى صفوف المسلمين تحت لواء سيد المرسلين .

وعند ماء بدر ، اكتمل عداد المجاهدين ثلاثمائة وأربعة عشر ، لا يملكون إلا السيوف المغمدة فى القرب – وهى سلاح المسافر – وإلا سبعين بعيراً تعقبوها على طول الطريق . . وإلا فرسين اثنتين ، إحداهما للزبير .

ولم يكن رسول الله وصحبه ينتظرون حربا ، وإنما خرجوا للاستيلاء على عير لقريش يستردون بها بعض حقوقهم ، ويهددون بمصادرتها سلطان أعدائهم . . ولكنهم فوجئوا بمجيء قريش بخيلائها وفخرها ، بسادتها وعبيدها ، فى ألف من المقاتلين الأشداء ، قد دججوا أنفسهم فى الحديد ، واعتلوا صهوة مائتى فرس وستمائة بعير . . وأقبلوا يسدون الأفق البعيد ، ويشقون الغبار الكثيف ، مسرعين نحو هذه الحفنة الضئيلة التى تحدت سلطانهم المهيب فى الجزيرة العربية وما وراءها . . ليقضوا عليها القضاء المبرم فى ساعة من نهار . . !!

وكانت الواقعة الرهيبة ، التى لم تتردد حفنة المؤمنين فى خوض غمارها ، مطمئنة إلى طهرها وإيمانها ، مستعينة بصدقها وصبرها . .

وسطر أبو عبد الله بجهاده صفحة خالدة من صفحات البطولة والإقدام . . تحدثت عنها قريش نفسها بعد هزيمتها النكراء . . لقد رآه المشركون يمرق وحده بفرسه مروق السهم خلال صفوفهم وتحت

ظلال سيوفهم ، لا يبالى بجموعهم ولا بدروعهم ولا برماحهم . .
ولقد رأوه يمسك عنزته وهو فوق جواده الجموح ، فيصوبها إلى عبيدة بن سعيد بن العاص ، وقد دجج نفسه فى الحديد لا ترى منه إلا عيناه ، ثم يقذفه بها وهو يقول : خذها يا أبا ذات الكرش . . فتستقر العنزة فى عينه فيموت لساعته . . ليس ذلك فحسب ، بل يمعن الزبير فى كيد الأعداء ، فيسرع إلى غريمه المقتول فيضع قدم فرسه على هامته ؛ لينتزع العنزة من عينه أمام عيون المشركون ، فيخرجها وقد أنثنى طرفها من شدة الطعنة ، ثم يطوح بها بين ملأ الكافرين تحديا واستهزاءاً . ! !

ومن خلال هذا البلاء العظيم الذى سجله الزبير فى صفوف الحفنة المهيبة المؤمنة تحت راية رسول الله . . يتجلى رضوان الله على رسوه وعلى المؤمنين ؛ فيبعث ملائكته من فوق سماواته ، يثبتون أقدام دعاة الحق ؛ ويضربون أعناق الذين كفروا بسيوفهم ، ويضربون منهم كل بنان . . وكأنما علم الله ما يكنه أبو عبد الله من فناء خالص فى سبيله فأنزل جنوده المقربين على سيمائه ؛ على خيل بلق ، معتجرين بعمائم صفر ، وبأيديهم السيوف ! !

وانتهت المعركة الرهيبة بفرار قريش وهزيمتها، وقتل سادتها وقوادها ، وأسر جنودها وطغاتها . .

وعاد الزبير مع رسول الله إلى المدينة ، ودخل إلى زوجته وطفله . وقد شد إلى رقبته رباطا يخفى تحته جراحتين عميقتين فى مؤخر عنقه ، قد أصابتاه فى قتال قريش . .

أجل . . لقد عاد الزبير بجراحتين فى مؤخر العنق ، فيهما الدليل

على بأسه فى القتال ، واستهانته بالموت ، حينما يقتحم صفوف الأعداء وحده غير عابئ بشيء ! !

لقد كانت الجراحتان عنوانا على ضعف الأعداء وخورهم أمام فارس رسول الله . . فما كان لهم أن يصيبوه إلا من وراء ظهره أو من وراء حجاب ! !

ويشاء الله أن تكون هاتان الجراحتان بعد شفائهما مسلاة لعبد الله ابن الزبير ، يضع فيهما أصابعه الدقيقة ليلهو وهو صغير ، وليستمد من معينهما فيض الوفاء للعقيدة وهو كبير ! ؟

١١ ــ حــوارى الرسول . .

تتابعت غزوات الرسول واحدة إثر واحدة ، لتضيف إلى سجل ابن العوام صفحات تلو صفحات من البطولة والخلود . . فلم يكن بلاؤه العظيم فى بدر ، إلا حلقة صغيرة من سلسلة جهاده الطويل لإعلاء كلمة الله ورسوله فى مشارق الأرض ومغاربها . .

ولقد جاءت غزوة أحد ليتلقى المسلمون من خلال الهزيمة دروسا حافلة بالعبر والعظات ، وليعلموا أن نصر الله رهين بطاعة رسوله فى كل إشارة وأمر ، وليوقنوا أن كثرتهم فى أحد لم تكن أقوى من قلتهم فى بدر . . فكانت محنة ، دفع المسلمون ثمنها غاليا من الأرواح والدماء . . وكانت نكبة ، انقلب لها وجه المعركة ، فاستحال النصر الحاسم إلى هزيمة نكراء . .

وخرج المؤمنون من تلك الغزوة أشد قوة ، وأثبت إيمانا ، حتى لقد أغنى صدقهم عن النصر نفسه ، بل كان أبهى من النصر رونقا وجلالا . .

وكان الزبير من أولئك المؤمنين الصادقين ، الذين خلفوا من نكبة أحد ، أحسم نصر خلده التاريخ على مر العصور ، وضربوا للعالم المثل الأسمى فى البطولة ، التى زادتها الهزيمة قوة وخلودا . .

لقد رآه أبطال المعركة من الفريقين عندما دارت الدائرة على المسلمين فى النهاية – نتيجة لتغافل الرماة عن أمر رسول الله بمراعاة الجبل – وحوصر الجيش الإسلامى باحتلال العدو للمرتفعات المحيطة بالمعركة . . لقد رأوه يسرع إلى الرسول الأعظم ، ليعلن بيعته على الموت دونه ، وليجعل من جسده الطاهر درعا يقى النبى ضربات المشركين وقذائفهم المسددة المتتابعة ، حتى إذا ما خمدت نيران الحرب صار الزبير كالقنفد لكثرة ما علا ظهره وجنبيه من السهام والرماح ! !

ومضت غزوة أحد لتعقبها غزوات وغزوات ، سجل من خلالها جند محمد صلى الله عليه وسلم على هامة التاريخ كلمة العزة والبقاء ، وأبرزوا للعالمين صور البطولة الحقة والجهاد الصادق . . وكان الزبير فارس رسول الله فى كل ملحمة ، والبطل الصنديد فى كل معركة ، والجندى المجهول فى كل ميدان . . إنه القوى المتواضع الذى يخشى أن يشوب جهاده من أو فخر أو خيلاء . . حتى إذا ما جاء يوم الأحزاب أدرك المسلمون فوق إدراكهم عظم قدره فى أعماق رسول الله ، وسمو منزلته عند إمام المجاهدين . . لقد رأوا رسول الله فى هذا اليوم الخطير يفدى أبا عبد الله بأبيه وأمه ، ويدأب على الابتسام له فى ساعة العسرة ، ويظهر اعتزازه بإيمانه وبلائه . . فلما هزم الله الأحزاب وأزاح عن المدينة خطرهم المحدق ، وحقق للرسول والذين آمنوا معه إعجاز قدرته وسريع بطشه ، أمر رسوله الكريم بالمسير إلى بنى

قريظة توا ، للقضاء على خطرهم بعد نقض العهد والميثاق بانضمامهم إلى زمرة الأحزاب . . هنالك نادى رسول الله فى عسكره عمن يأتيه بخبر القوم ، وإنها لمهمة شاقة ، تنوء بحملها كواهل الأبطال فى مثل ذلك اليوم العصيب ، فقام الزبير على الفور وقال : « أنا يا رسول الله . !! » فانتدبه صلى الله عليه وسلم وقال على ملأ جنود الحق والإيمان : « إن لكل نبي حواريا ، وحواري الزبير[1] » !!

١٢ – بزوغ نجم . .

ولج الزبير بن العوام باب الحلقة الرابعة ، من عمره الحافل ، ليرى ابنه عبد الله غلاما ناضرا ، يغالب السنين بصلابة عوده ، وجلال منظره ، وسعة عقله ، ونادر ذكائه . . حتى صارت روح أبيه تدب فى أوصاله ، فجعلت منه صورة أخرى للزبير فى إطار صغير . .

. . إنه غلام حدث ، ما يزال أقرانه من غلمان المسلمين يتمرغون فى أحضان اللهو واللعب ، ولكنه رغم الحداثة لا يجاريهم ، ولا ينزل إلى ميدانهم . . إنه لم يبلغ السابعة من عمره بعد ، ولكن الرجولة قد احتلت جسمه الصغير قبل الأوان ، فكسته هيبة ، وبهاء ، وخطرا . . حتى غدا فى أعين الناس كالسر المدفون فى ضمير الغيب ، قد أخذت الأيام تكشف عن خطره بهدوء شيئا فشيئا . .

إن ابن الزبير ما يزال قرة أعين المهاجرين والأنصار منذ ولادته التاريخية ، التى كانت عيداً لأهل الإسلام جميعاً . . وإن المسلمين لينظرون إليه بعين الإكبار والإعظام ، ويتوقعون له المستقبل المجيد والعز التليد . . وهم اليوم يرون عبد الله الغلام الناشيء يتحدى فطرة الطفولة وخفتها ، ليصدر عن وقار الرجولة وحكمتها ، فهو يقرب

(١) الحوارى : الصاحب المستخلص .

إليه غلمان الصحابة وفتيانهم ، ويبغضهم فى اللهو واللعب ، ويخرج بهم من دائرة الطفولة رويداً رويداً ، ليدخلهم ميدان الجد والطموح ، حتى لقد تزعم فريقا منهم ، وسار بهم إلى بيت رسول الله ليبايعوه كما بايع آباؤهم من قبل . . ! ! فلما خرج إليهم النبي تكعكع الغلمان واضطربوا من هيبة الموقف ، وبقى عبد الله ثابتا رزينا . . ثم تقدمهم فبايع الرسول وقد سر لشجاعته وإيمانه ، وقال على ملأ من الصحابة وهم ينظرون إلى الغلام فى عجب وإكبار : « إنه ابن أبيه » ! !

حقاً . . لقد أخذ عبد الله عن أبيه كل صفاته ، فنشأ نشأة الصدق والوفاء ، وتعهدته أمه الطاهرة ، لتبث فيه روح الشجاعة والإقدام ، ولتطرق أذنيه الصغيرتين بأحاديث الحروب الإسلامية ، التى يخوض الزبير غمارها ، ويفعل فى ميادينها الأعاجيب ، ذوداً عن الدين وفداء لسيد المرسلين . .

ولم يكن عجباً بعد ذلك أن يدرك الغلام الصغير قدر النبوة وجلال الرسالة ، فما تكاد الشمس تبزغ من مشرقها صبيحة كل يوم ، حتى يترك عبد الله بيت أبيه إلى بيت خالته أم المؤمنين ، ليستلهم من فيض النبوة معانى الإيمان وأنوار اليقين . .

وتمر الأيام والشهور ، ليزداد عبد الله تعلقا برسول الله ، وتشبثا بالحياة فى كنفه ، وتوفرا على خدمته والأخذ عنه ، حتى صار النبي منتهى أمله فى الحياة ، وما بعد الحياة ! !

وتغلغل حب النبي فى أعماق عبد الله ، فجعله كالولهان ، الذى لا يطيق فراقا ولا يصبر عليه ، حتى صار بيت عائشة مرتعاً خصباً للغلام السعيد . .

١٣ – شــارب الـدم . . ! !

اشتد الألم برسول الله ذات يوم ، فاكتسى بيت النبوة بحلة قاتمة من الحزن العميق ، انعكس شعاعه الرهيب على وجه عبد الله ، فانفجرت عيناه بالبكاء المر والدمع الغزير . . ورآه الرسول على هذه الحال المؤلمة العابسة ، فصبره وشد من عزمه ، ثم قام صلى الله عليه وسلم من رقدته ليحتجم ، فأخذ الدم ينزل من رأسه الشريف فى آنية . . فلما فرغ من الحجامة ، نادى عبد الله فقــال ، أذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد ، فلما برز عن رسول الله ، نظر إلى الدم الطاهر ، فاستعظم أن يهرقه وهو دم النبوة ، وجعلت الأفكار المفزعة تراود الغلام ، فامتلأ قلبه خوفا على حياة رسول الله ، وظن الأجل قد دنا ، وتخيل شبح الفراق يقترب رويداً رويداً ، ليباعد بينه وبين خليله الأكبر . . فتمثلت أمامه صورة أبيه الزبير ، وهو يقص عليه بين يوم وآخر ، صورا من وفاء الصحابة لرسول الله ، وبرزت له من خلال تصوراته قصة « سواد » ذلك الصحابى الذى مسه رسول الله بجريدة وهو يسوى صفوف المسلمين فى غزوة بدر ، فانتهز « سواد » تلك الفرصة ، فقال : لقد أوجعتنى يا رسول الله ، فلما كشف له الرسول عن بطنه الشريف للقصاص ، عمد إليه فاحتضنه حتى مس جلده جلد الحبيب وقال : لقد ظننت يا رسول الله أن هذا المقام هو آخر عهدى بك ، فأحببت أن يمس جلدى جلدك ، مخافة أن تمسنى النــار ! !

وهنا استعاد عبد الله إدراكه ، ونظر إلى الآنية ، ثم جعل يصوب بصره فى أرجاء الدار الحزينة الباكية ، ليستخفى من الناس فلا يراه

أحد ، فلما اطمأن رفع الآنية إلى فه ، وعمد إلى الدم فشربه ! !

ودخل سلمان الفارسى بعد لحظة ليعود رسول الله ، فوجد الغلام على هذه الحال ! وكأنه يلعق ما علق فى جدران الآنية من طعام ، فمضى إلى حجرة رسول الله لا يلوى على شىء . .

وعاد عبد الله إلى الحجرة بعد برهة ، فوجد الصحة تسرح فى محيا رسول الله ، ورأى العافية تشرق من وجهه الشريف ، فانقلب غم الغلام فرحاً وسروراً . . وأخذ مجلسه بين القوم فى وقار وأدب ، وخشوع وصمت . .

والتفت النبى إلى عبد الله ، فناداه فقام إليه ، فقال :

– يا عبد الله . . ماذا صنعت بالدم !؟

– جعلته فى أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس ! !

ونظر سلمان فى هذه اللحظة إلى الرسول ، وتمعن فى العصابة فوق الجبين الكريم ، وتذكر رؤية عبد الله والآنية ذات السائل الأحمر على فمه ، فقال :

– ما ذاك يا رسول الله ؟؟

– أعطيته محاجمى يهريق ما فيها .

– ذاك شربه والذى بعثك بالحق . . ! !

والتفت الرسول إلى عبد الله وقد قام من رقدته ، فقال :

– لعلك شربته ! ؟

– نعم يا رسول الله .

– ولم شربت الدم ! ؟

– أحببت أن يكون دم رسول الله فى جوفى ! !

عند ذلك مد الرسول يده ومسح بها جبين الغلام وهو يقول :

— ويل للناس منك . . وويل لك من الناس ! !

وغاب الرسول عن الحديث برهة ، وعبد الله مطرق خاشع ، ثم عاد صلى الله عليه وسلم فركز بصره فى الغلام وقال :

— يا عبد الله لا تمسك النار إلا تحلة القسم . .

١٤ — زعامة مبكرة . .

شرب عبد الله بن الزبير من دماء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مدفوعا بعوامل الحب والإخلاص لذاته الشريفة ، فاستحال الغلام خلقاً آخر من البشر ، وصورة حية للإيمان الثابت الذى لم يعهده المسلمون فى غلام مثله لم يتعد السابعة من عمره بعد . .

لقد امتصت أعضاؤه الصغيرة دم النبوة ، فسرت فى أنحائه أنوار الهداية والطهر ، وتركزت فى أوصاله أسرار القوة والبأس ، وانعكست على جبينه أضواء الحكمة واليقين . .

وإذا كانت طبيعة الغلمان قائمة على عز وفهم عن مواطن الجد فى مبدأ حياتهم ، وانشغالهم بأسباب المتع والملذات فى مستهل نشأتهم ، واتصال روابطهم وانفصامها على أسس العاطفة دون العقل فى كل ما يتخلل محيطهم . . فإن عبد الله قد استحال درة فريدة فى عقد غلمان المسلمين من أترابه ، وصار مثلا حياً للرجولة الحقة فى صورة غلام صغير . . فهو دائم التفكر عميق التبصر ، مزدحم الرأس بشتى عوامل الخير والطموح ، وهو سمح الوجه غير عابس ولا متهلل . . وهو وقور الطالع لا يخلط بين الجد والهزل . . وهو عظيم الاعتداد بنفسه فى غير غرور ولا خيلاء . . وهو فوق ذلك مفتول الساعد قوى

البنية ، ولكنه كثيراً ما يخفى شدة بأسه الذى طرأ عليه مذ شرب من دم رسول الله . . فهو يحاول إخفاء قوته أمام الناس تواضعا واستحياء ، فلا يظهرها فى غير دواعى الإصلاح بين أقرانه من الغلمان ، حين يأخذ للضعيف منهم حقه من القوى ، وللمظلوم منهم حقه من الظالم ! ! وحتى فى هذه المواضع فإنه يلبس قوته ثوب الحكمة والموعظة ، ومن ثم يستجيب الغلمان الصغار لرأيه راضين بحكمه وقضائه . . ثم هو فوق ذلك كله زاهد كل الزهد فى مطعمه وملبسه ، قانع كل القنوع بجريش الطعام وخشن الملبس . راض كل الرضى بأقل القليل من ضرورات الحيـــاة . .

ولم تكن القناعة فيه وليدة فقر أبيه . . لا . . فلقد غدا الزبير صاحب ثروة لا يستهان بها . . فهو المكافح الصادق ، الذى يجمع بين النجاح فى أسباب دينه ودنياه . . ولكن عبد الله يأبى إلا أن يشق طريق المجاهدين الصادقين ، بتطهير نفسه ومحاربة شهواته . . مبتدئا من حيث ابتدأ عظماء المسلمين وخيار الصالحين ، فى بناء صرح مجدهم وعزهم . . ومقتفيا لآثار سيد المتقين فى طريقه إلى ربه . . موقنا من أن من يسير على الدرب لا بد واصل . .

هكذا تحول عبد الله ، وهكذا تحولت طبيعته ، فأصبح محطا لأنظار صحابة رسول الله ، وموضعا لإشادتهم بالفضل فى مجتمعاتهم وبيوتهم . . حتى صار معلوما فى محيط الجماعة الإسلامية كلها ، أن العناية الإلهية تحوط عبد الله من كل جوانبه لتخلق منه فى مستقبل الأيام زعيما صادقا وسيداً مطاعا . . وها هى ذى الأرهاصات قد بدأت تشيع لهم قليلا قليلا عن تلك الحقيقة الملموسة ، فتجعل من

عبد الله الغلام زعيما وقورا فى محيط أقرانه من الغلمان ، كما بدأت تكشف رويداً رويداً عن جانب خطير فى حياته ، فهو قد خرق ناموس الطبيعة ، فبلغ من القوة الجسمية حداً تساوى فيه بالكثير من أهل القوة بين الرجال ! !

ليس ذلك فحسب . . بل إن عبد الله قد بدأ يلفت إليه الأنظار بفروسيته الخارقة على ظهور الخيل ، فهو يخرج بفرس أبيه بين حين وآخر ، حيث يذهب إلى معسكر التدريب العسكرى للجيش الإسلامى ، وهو المكان الفسيح الذى أعده رسول الله خارج المدينة . . لتربية المجاهدين ، وتنمية أجسام المقاتلين ، وجعل له من القدسية ما للمسجد سواء بسواء ، حتى إنه صلى الله عليه وسلم أمر الصحابة بخلع نعالهم إذا نزلوه ، واعتبر سيد المرسلين أرضه من أرض الجنة ، لأنها سبيل الشهداء إلى الفردوس الأعلى . . هنالك يثب عبد الله على صهوة جواده ويطلق له العنان ، ليقوم بحركاته الرياضية القوية ، بين الإعجاب والإعظام ، ولينتزع أسهمه من كنانته وهو على هذه الحال ، ليسددها بإحكام إلى الهدف المقام وسط الميدان لتدريب الفرسان على القتال والطعان . . وليثبت بالأمر الواقع أنه فارس مغوار رغم حداثته ! ! ولا عجب فهو ربيب بيت الجهاد والاستبسال . . وابن فارس رسول الله . .

١٥ ــ حمام المسجد . . ! !

صار المسجد هو المكان المحبب إلى عبد الله ، والمحط المختار لرحاله فى شتى ساعات النهار . . وأمسى الغلام كثير العكوف على نفسه بين جدرانه فى ذكر وصلاة ، ودعاء وتسبيح ، لا تفوته صلاة

جمعة أو جماعة خلف الرسول . . حتّى صلاة الفجر ، فإن عبد الله يشارك أباه وأمه اليقظة فى دجى السحر ، قبل أن يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ليقوم معهما للمناجاة والعبادة ، وليقاسمهما لذة التهجد والاستغفار ، فيسرع إلى آنية المـــاء فيتوضأ ويتطيب ، ثم يأخذ مكانه إلى جانب أمه خلف أبيه فى اتجاه القبلة ، التى كثيراً ما يدور بخلد الغلام ذكرها الرهيب على لسان أبويه ، فيزداد خشوعا وتبتيلا . . حتّى إذا ما قرب وقت الفريضة خرج عبد الله بين أبويه إلى بيت الله فى ظلام الكون ، فينحاز الزبير إلى صفوف الرجال ، ويهرع عبد الله إلى صفوف الغلمان من ورائهم . . وتأوى أسماء إلى مكانها بين نساء المؤمنين فى آخر المسجد خلف الستر المنصوب . . وبعد الصلاة يلحق الزبير بزوجته إلى البيت ، بينما يظل عبد الله عاكفا على نفسه بين تفكر واستغفار . . حتّى إذا ما أطلت الشمس من مشرقها ، واكتسى الكون بنور الصباح ، أوى الغلام ، إلى بيت رسول الله ليستمتع بالحضرة النورانية ، التى تمكنت من قلبه فملكت عليه أحاسيسه ومشاعره . ويمكث الغلام ما شاء الله له أن يمكث فى مهبط الفيوضات ومنزل الرحمات ، فإذا ما فرغ الرسول من شأنه فى بيته ، وخرج لشئون الناس فى محيط المدينة ، عاد عبد الله إلى بيت الله من جديد . ! !

وغدا أمر عبد الله بين غلمان الصحابة عجبا ، فأخذوا يقلدونه ويتأسون بفعاله ، ويلتفون حوله ، ويوقرون مجلسه ، بل ويحتكمون إليه . . تماماً كما يفعل الرجال عند الفصل فى قضاياهم أمام أرشدهم ! ! وهنا تتسع لعبد الله دائرة الزعامة الحقة فى محيط جيله الجديد . . ويصير المسجد للأبناء كما هو للآباء ميدان التقويم والتنافس للخير

والرشاد ، ومعين الحكمة والفلاح والسداد . . حتى لقد كان يمر اليوم كله فى كثير من الأحيان دون أن يغادر عبد الله بيت الله إلى بيت أبيه ، لفرط انشغاله بحب الله والرسول ، وفنائه فى طريق رضائهما ، بغية القبول والوصول .

ولم يكن عجباً أن يصير ارتباط عبد الله ببيت الله وثيقاً ، فهو يعلم أنه المدرسة التى تخرج فيها شهداء المسلمين الذين كثيراً ما طرقت أذنه عواطر ذكراهم ، وهزت مشاعره حرارة تقواهم . . وهو يعلم أنه ميدان السياسة والحروب ، الذى طالما جمع بين جدرانه أعلام الدين والسيف ، لإعلاء كلمة الله والرسول ، فسجل لهم التاريخ أنصع الصفحات ، وذهب بوفائهم إلى أجواز العلياء ومراتب الشهداء فى أعلى الجنات . . وهو يعلم أنه مقر القيادة الحكيمة التى خطت بيمينها مصائر الكثير من بطون الجزيرة العربية وقبائلها . . ثم هو يعلم فوق ذلك أنه بيت التشريع السماوى ، الذى اهتدى بهديه صحابة رسول الله الأبرار ، وارتفع على عماده الراسخ بناء المجتمع الإسلامى الرهيب .

إن عبد الله الغلام المؤمن الطموح ، ليدرك فضل بيت الله فى تكوين المؤمنين الصادقين ، الذين شقوا طريق العزة والبطولة والإيمان ، وتركوا خلفهم أفواه الدنيا تلهج لهم بالذكر العاطر والثناء الجميل . . فوهب نفسه لله ورسوله ، واشتد حبه لبيت الله ورسوله ، وازداد تعلقه بحرم الله ورسوله . . وأصبح لا يطيق فراق المسجد لحظة من لحظاته إلا للضرورة الغالبة أو العذر الشديد ! !

وخشع أصحاب الرسول أمام هذه الحقيقة الخالدة ، فاتفقت كلمتهم على أن ينعتوا الغلام بوصف يقابل إيمانه وورعه وتعلقه

بالمسجد !! ويكافئ دقة فهمه الباكر لأصول الإسلام ومعانى الإيمان وطهارة المقصد ، فاصطلحوا على تتويجه بلقب كريم ، فأطلقوا عليه « حمام المسجد » ! !

١٦ – ثمرة غرس : .

مضى على دعوة النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ثمانى سنوات ، ارتفع من خلالها علم الجهاد الصادق مرفرفا على مشارق الجزيرة العربية ومغاربها . . وأخذت جيوش الإسلام تجوب الفيافى وتقتحم القفار ، وتجتاز الصعاب ، معلية كلمة الله ورسوله ، ومعلنة عن تحويل مجرى التاريخ ، بانطواء صفحة قاتمة من صفحاته السود ، لتتلوها صفحة أخرى ناصعة البياض فى سجل الخلود الإنسانى ، حيث تتبوأ رسالة السماء عرشها المكين على وجه الأرض :

وعلى نغمة النصر المتواصل ، وتحت دقات وقعها المنظوم ، استيقظت حمية عبد الله بن الزبير ، فأصبح الغلام على حداثة سنه شديد الرغبة فى خوض المنايا واقتحام المعارك .

ولم تكن هذه الحمية المبكرة فى قلب عبد الله قائمة على العاطفة دون العقل ، شأن أى غلام من الغلمان ، حين يحلو لهم بوحى الفطرة أن يصيبوا أعداء آبائهم بالحق أو الباطل ، دون تفكير فيما عساه أن يصيبهم من أذى ، أو يلحق بهم من نكال . . فالغلمان حينذاك لا يقدرون النتائج ، ولا يدركون العواقب . . ولو قدروها وأدركوها ، لرأوا فيما ينزل بساحة آبائهم من بطش الأعداء – رغم النصر – ما ينأى بهم عن معترك الحياة الدامية ومصطرع القوى بين تلكم الأجساد الكبيرة فى ميادين الحروب . .

ولكن التربية الإسلامية قد هذبت فطرة الغلمان ، فجعلت منهم زينة للحياة بمعناها الصحيح ، وعدة للمستقبل المشرق الوضاء ، ومدخراً للحياة العزيزة ، الجديرة بخير أمة أخرجت للناس .

ومن هنا بلغ عبد الله الغلام من سعة العقل مبلغ الأوفياء من الرجال للعقيدة ، ونال من حصيلة الصدق ذخيرة الأتقياء من الأبطال للميدان . . ولا غرابة ، فإن ابن الزبير مذ فتح بصره على نور الكون، لم ير حوله إلا الجليل من الأعمال ، والخطير من الأحداث ، والعظيم من الأمور . . ولم تقع عينه قط على نقيصة من النقائص ، أو خطيئة من الخطيئات ، وإنما نشأ نشأة الأحرار فى كنف الأحرار . . وتغذى بلبان النبوة ، وهى غذاء الصفوة من الأبرار . . ومن ثم فقد تهيأت له أسباب اليقين ، فاستطاع من خلال هذا التاريخ القصير أن يستكمل فى نفسه كل مقومات الوفاء لدين الله . . حتى صار قلبه المملوء بالإيمان ، هو مبعث اندفاعه إلى خوض المنايا واقتحام المعارك ، إعلاء لكلمة الله ، أو فوزاً بالشهادة ، وهى سبيل المجاهدين إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار . .

أجل . . إن ثمانى سنوات مضت على هجرة الرسول ، وكانت فى مجموعها هى عمر عبد الله ، قد صارت مدرسة الجيل الإسلامى الناشئ ، الذى تزعم فيه الغلام أقرانه من غلمان المسلمين . . بل صارت الجامعة الكبرى ، التى تلقى فيها النشء علوم الحياة الصحيحة عن الآباء والأمهات . . فكان عبد الله — فى مقدمة النشء — الحافظ للحوادث عن ظهر القلب ، الطموح إلى المجد ما وسعه الجهد، ولا عجب فى ذلك ، فأبوه هو الزبير فارس الرسول وحواريه . . وأمه هى

أسماء بنت الصديق ذات النطاقين . وخالته هى عائشة أم المؤمنين التى اتخذته ولداً لها ، حتى لقد أطلق النبى عليها « أم عبد الله » فكانت له خير معلم ، وكان لها خير واع . . ولقد كان أبواه يدعمان فهمه فيختبران علمه بالدين والتاريخ بين وقت وآخر ، شأنهما فى ذلك شأن كل أب وأم فى الجماعة الإسلامية كلها ، فلقد كان الآباء والأمهات يعلمون أبناءهم مغازى النبى كما يعلمونهم السورة من القرآن ! !

ومن ثم لم يكن عجبا ، أن صار الغلام الرشيد ، وهو ابن ثمان ، مستوفياً علمه بالغزوات والمشاهد كلها ، وكأنه من أبطالها . . مستكملا إدراكه بالحقائق والأحداث ، وكأنه أحد رجالها . . ! !

أجل . . لقد سمع عبدالله من أبيه دروس العظمة ، وهو يتحدث إليه عن بدر ، بل مازال يشاهد بعينيه آثار الخلود واضحة المعالم فى عنق أبيه ، وما فتئ يذكر كيف كانت الجراحتان العميقتان مسلاة له ، مذ كان يلهو بإدخال أصابعه الدقيقة فى فجواتها الرهيبة .

ولقد سمع عبد الله عن قوة الإيمان حين تذود عن حياض المؤمنين ، وشدة الحفاظ حين تدفع الشرور عن أرض السلام ، فبرزت له من خلالها صورة بنى قينقاع لما نقضوا عهد رسول الله وغرتهم قوتهم وأموالهم وبأس رجالهم ، فانتهز جنود الحق فرصة استهزاء صائغ منهم بامرأة مسلمة فى السوق ، حيث طلب منها أن تكشف الحجاب عن وجهها فأبت المرأة ، فعمد اليهودى إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها دون أن تشعر ، فلما قامت انكشف للملأ من اليهود بعض عورتها ، فأخذوا يضحكون ويسخرون . . عند ذلك

قامت الحرب الدامية فى سبيل ذلك العرض المسلم ، ودارت الدائرة على أعداء الله ، وكان لهم الدرس الأخير . .

ولقد سمع عبدالله عن أحد ، وصدق الصادقين فى الذب عن رسول الله ساعة العسرة ، ورأى آثار الخلود واضحة المعالم فى ظهر أبيه ، حين جعل الزبير منه درعا تقى النبى سهام المشركين . . ! !

ولقد سمع عبدالله عن شهداء الصدق الأربعين فى بئر معونة ، حينما بعثهم رسول الله استجابة لطلب بعض الأعراب بحجة تعليم الإسلام والدعوة إلى هداية القرآن . . فلما نزل البعث ديارهم ، وفد نفر منه إلى عدو الله عامر بن الطفيل سيد نجد ، بكتاب رسول الله فما كان منه إلا أن عدا على حامل الكتاب فقتله ، وتبعته قبائل الكافرين ، فأحاطوا بالبعث فقتلوهم جميعاً ، إلا كعب بن زيد ، فقد تركه الغادرون على أنه قد فارق الحياة . . وشاء الله أن يرجع إلى المدينة بأعجوبة ، ليواصل جهاده فى سبيل الله ، وليحدث المسلمين عن آيات الصدق والوفاء فى تلك المحنة القاسية . . وها هو ذا عبد الله يسمع منه ما يردده كعب بين أسماع أنصار الحق من حديث ابن الطفيل الذى وعاه ساعة قتل البعث ، حيث قال عدو الله لأتباعه : من رجل منهم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض ، حتى رأيت السماء من دونه ؟؟ فقالوا له : هو عامر بن فهيرة ! ! بل ها هو ذا عبدالله يسمع ما يردده أبوه من حديث بعض من أسلم ، وكان من قاتلى ذلك البعث الكريم حيث قال : إن مما دعانى إلى الإسلام ، أنى طعنت رجلا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول: فزت والله !! فقلت

فى نفسى : ما فاز !! ألست قد قتلت الرجل ؟ فلما سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا : فاز بالشهادة ، فقلت : فاز لعمر الله .!!

ولقد سمع عبدالله عن إجلاء بنى النضير ، حين أرادوا أن يغدروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى الخبر إلى رسول الله من السماء بما أراد القوم ، فأسرع المسلمون لحربهم رغم قوتهم وكثرتهم . . فحاصروهم وأخرجوهم بإذن الله أذلاء صاغرين ، وأنزل الله قوله فى ذلك عبرة وذكرى للمؤمنين : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين . . فاعتبروا يا أولى الأبصـــار » . .

ولقد سمع عبد الله عن غزوة ذات الرقاع ، وما كان فيها من صور الإيمـان واليقين . . لقد وهب فيها أحد المشركين نفسه لقومه من بنى غطفان ومحارب ، فى سبيل قتل رسول الله ، فدخل الرجل إلى صفوف المسلمين فى جوف الليل خفية على أنه أحدهم ، وأقبل على رسول الله وهو جالس وسيفه فى حجره ، فاستله المشرك وأخذ يهزه فى سرعة وارتعاش ، وكلما هم بقتل الرسول وقفت يده وجفت أعصابه . . ثم قال : يا محمد . . أما تخافنى !؟ فقال له الرسول : لا وما أخاف منك ؟ فقال له المشرك : أما تخافنى وفى يدى السيف ؟ فرد عليه نبي الله فقال : لا . . يمنعنى الله منك ! !

عند ذلك أعاد المشرك السيف إلى حجر النبي ، وآمن بالله ورسوله إيمان الصادقين . .

بل إن عبدالله قد سمع غير ذلك من آيات الصدق والوفاء فى أعماق الصحابة خلال هذه الغزوة نفسها ، وتجلت له من بينها درة ناصعة فى تاريخ الإيمان والبلاء . . لقد أمر رسول الله رجلين ، أحدهما عمار بن ياسر من المهاجرين ، والآخر عباد بن بشر من الأنصار لحراسة أحد المنافذ المؤدية إلى الشعب الذى نزل فيه جيش المسلمين . . فلما خرج الرجلان إلى المكان ، قال عباد لعمار : أى الليل أكفيكه ، أوله أم آخره ؟؟ فقال عمار : بل اكفنى أوله .

واضطجع عمار ، بينما قام عباد بالحراسة ، بين ذكر واستغفار وقراءة قرآن . . وقبيل منتصف الليل ، أقبل على باب الشعب رجل من الكفار يطلب ثغرة للوثوب على المسلمين ، فلما رأى حارس المسلمين واقفا ، بادره بسهم فثبت فى جسده ، ولكن عبادا نزع السهم ورماه على الأرض ، فأخذ الدم يسيل مدرارا ، وهو ثابت لا يتزعزع . . ونزع العدو من كنانته سهما آخر وسدده إلى جسد عباد مرة ثانية ، فانتزعه عباد ورماه على الأرض . . وتابعه العدو بثالث ورابع وخامس ... فلما برحت به الجراح وآلمته السهام خر راكعاً وهو يرفع صوته ويقول : الله أكبر . . الله أكبر . . عند ذلك استيقظ عمار ليرى زميله على هذه الحال الأليمة ، فبادره عباد يأمره بالجلوس والانبطاح على الأرض ، حتى يتلافى طريق السهام . . وسمع العدو يقظة عمار فعاد أدراجه وولى الأدبار .

وتقدم عمار إلى عباد ، فوجد دماءه تسيل على الأرض فى حالة مفزعة ، فقال له :

— سبحان الله !! أفلا أهبتنى أول ما رماك ؟؟ فرد عليه عباد يقول :

ـ كنت فى سورة أقرأها ، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفدها ، فلما تتابع على الرمى ، ركعت فأذنتك ـ أى أيقظتك ـ وأيم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه ، لقطع العدو نفسى قبل أن أقطعها أو أنفدها . . ! !

ولقد سمع عبدالله عن بدر الأخرة ، وكيف انقلب فيها بأس قريش إلى ضعف أمام سلطان المسلمين ، حينما خرج رسول الله والمؤمنون للقاء جحافل مكة ، رداً على تحدى أبى سفيان . . ولكن قريشاً جبنت أمام إيمان الرسول وصحبه ، فعادوا من عسفان وكانوا فى طريقهم إلى بدر ، ولكن رسول الله ظل ينتظرهم ليالى وأياماً ، ليؤكد لعبيد قريش ، ضعف قريش وآلهة قريش . .

ولقد سمع عبدالله عن غزوة الأحزاب ، بل إنه رأى بعينه الآثار واضحة المعالم فى ذلك الخندق ، الذى حفره المسلمون حول المدينة ، ليقص على النشء قصة البطولة والخلود ، ويروى للعالمين صدق وعد الله للمؤمنين ، وشديد بطشه بالكفار والمشركين ، ولو كانوا أهل الأرض أجمعين . . ورأى الغلام فوق ذلك آيات الإيمان ما تزال تشرق على أبطال الخندق ، حينما ينظر يمنة ويسرة بين أرجاء المسجد وفى طرقات المدينة ، فلا يجد إلا بطلا عظيما وفارساً صنديداً ، وها هو ذا أبوه يحدثه عن بعض أبطال المعركة ، فيذكر له قول سعد بن معاذ لرسول الله ، عندما شاوره صلى الله عليه وسلم فى أمر الخطر ليعلم رأيه .. لقد قال له رسول الله : « إنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما . . » أجل : لقد أراد رسول الله أن يكسر

من شوكة المشركين بأن يقبل كتاب غطفان بثلث ثمار المدينة ، إبقاء على دماء المسلمين حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا ، ولكن إيمان الصحابة برسول الله ، وصدق حبهم له ، وفداءهم لذاته ؛ قد أبى عليهم إلا إعزاز كلمة الله ورسوله ، ولو كان الهلاك وكان الفناء . . هنالك أجاب سعد رسول الله فقال :

– يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ! ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؟ ؟

فقال رسول الله وقد علاه السرور : « فأنت وذاك . . »

عند ذلك تسلم سعد الصحيفة من رسول الله ، وأخذ يمحو ما فيها من الكتاب وهو يقول :

– ليجهدوا علينا . . ليجهدوا علينا ! !

ولقد رأى عبد الله تكريم جبار السموات ونصره لأنصاره وأنصار رسوله ، فأنزل قوله تعالى مسجلا آيات الوفاء لأهل الوفاء : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلو تبديلا . . إلى قوله تعالى : ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالو خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزا . . »

ولقد سمع عبدالله عن هزيمة بنى قريظة غداة هزيمة الأحزاب ، حين أمكن الله منهم رسوله والمؤمنين ، ولم يشف صدر أعدائه باجتماع العرب على قلب رجل واحد ، بغية التنكيل بأنصار التوحيد ، فدفع يهود قريظة ثمن نقضهم عهد رسول الله غالياً : وصدق رب العالمين إذ يقول : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها ، وكان الله على كل شىء قديرا . . »

أجل . . لقد سمع عبد الله بن الزبير عن ذلك كله ، وعن كثير غيره مما تخلل حياة العزة الإسلامية فى أقل من ثمانى سنوات ، فتمكنت من قلب الغلام نزعة الجهاد والنضال .

١٧ – دروس من عالم الغيب

أصبح عبد الله بن الزبير – وهو ابن ثمان سنين – يتحين الفرصة للاشتراك فى صفوف المجاهدين لإرضاء نزعته إلى الجهاد والنضال ، ذوداً عن دين الله ، وابتغاء مرضاته ومرضاة رسوله . . وزاد من شوقه ولهفته إلى ميدان الحرب ، خروج جيش التوحيد لقتال الروم لأول مرة فى تاريخ الإسلام ، وانتظار رسول الله ومن بقى من المسلمين فى المدينة لأخبار جيوش الحق فى ساحة القتال .

وفى خلال هذه الفترة المهيبة كان الغلام كثير الاجتماع بأترابه من غلمان المجاهدين فى المسجد كعادتهم كل يوم ، وكان الحديث بينهم ينصب على جلال القتال وجلال الشهادة . . فاذا ما انفرط عقد اجتماعهم اليومى فى بيت الله ، اصطحب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ليواصلا السمر فى موضوع الحديث نفسه . . فلقد كانت الصلة بين الغلامين فريدة فى بابها ، ووجه الشبه فى حياتهما ظاهر وعظيم ، فالغلامان ولدان لبطلين مرموقين من أبطال المسلمين وزهادهم الصادقين . . اشتركا فى الهجرة الأولى إلى الحبشة فراراً من الفتنة ومن العذاب ، كما هاجر الأثنان الهجرة الثانية إلى المدينة ، وإن كانت هجرة جعفر قد تأخرت بضعة أعوام بسبب ندورة المواصلات ، حتى إذا ما كان يوم خيبر فوجئ رسول الله والمسلمون بمجيء جعفر وآل بيته ، ليشهد النصر الحاسم بإنزال آخر علم لدولة اليهود العاتية فى جزيرة العرب . . وكان فرح الرسول بوصول جعفر فى ذلك اليوم كفرحه فى النصر على الأعداء ، حتى لقد قال صلى الله عليه وسلم على ملأ المجاهدين :

ـ « ما أدرى بأيهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » !؟

وكما أن عبد الله بن الزبير كان أول مولود للمسلمين فى هجرتهم الأخيرة إلى المدينة ، كذلك كان عبد الله بن جعفر أول مولود للمسلمين فى الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وكلا الغلامين قد استبشر المسلمون بولادته خيراً ، وإن كانت ولادة ابن الزبير قد اعتبرها الرسول وأصحابه نصراً مؤزراً للاسلام بعد الهجرة ، لأنها ردت كيد اليهود إلى نحورهم . .

ومن ثم فالغلامان مدفوعان أحدهما إلى الآخر بدوافع قاهرة من الحب الخالص فى سبيل الله ورسوله ، وعوامل قوية من الانسجام الروحى ، قد ربطت بين قلبيهما بحبل الله ورسوله .

وبينما الغلامان يتناجيان ذات يوم بحديث البطولة والقتال ،

ويذكران جيش المسلمين فى جهاده مع الأعداء فى موتة إذ اعترتهما قشعريرة خفية ، هى نبض الشوق إلى ساحات الوغى والجهاد وميادين المجد والظفر ، فظلا يتبادلان الحديث حتى انتهى بهما المسير إلى بيت الله ، وما أن دخلا المسجد، حتى ارتفع صوت المؤذن لصلاة العصر .. واصطف المسلمون خلف الرسول لأداء الفريضة . . ومن خلال الصلاة أخذ صلى الله عليه وسلم يدعو لجيشه بالنصر والسلامة ، حتى كاد يغلبه البكاء .

إن ثلاثة آلاف مقاتل ، قد بعثهم صلى الله عليه وسلم لقتال الروم فى أرض البلقاء من الشام ، قد خلفوا وراءهم فراغا عظيما ، يحوى آلاف الأسر التى تدعو لعائلها بالأجر والمثوبة ، وإن من عداد هذه الأسر ثلاثة أبيات يتلهفون على الأخبار قبل غيرهم . . بيت زيد ابن حارثة ، وبيت جعفر بن أبى طالب ، وبيت عبد الله بن رواحة ، فلقد عين رسول الله الرؤوس التى تتولى قيادة الجيش قبل المسير للقاء العدو ، فقال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة على الناس ! !

ومعنى ترتيب رسول الله للقواد مع ذكر الإصابة ، هو أن الغيب ربما يخفى أشياء ، وهذا هو ما يدور بخلد المسلمين منذ تحرك الجيش وتأخرت أنباؤه ، فالجميع فى حاجة إلى أخبار مطمئنة من القيادة العليا ، وفى مقدمة الجميع أهل بيت القواد الثلاثة . .

. . وانتهت الصلاة ، وجلس الناس فى خشوع وصمت ، بينما قام رسول الله وأدار وجهه الشريف إليهم ، وقد علته الحمرة وغلبته الرعشة والحزن . . عند ذلك ارتاع المسلمون لمشهد الرسول . .

وشد عبد الله بن الزبير على يد عبد الله بن جعفر ، وقد اشرأب منهما العنق ، انتظاراً لما يقوله صلى الله عليه وسلم .

وثبت بصر الرسول ، وكأنه ينظر بعينه إلى ملحمة حامية ، قد دارت بين ثلاثة آلاف من جنده ، وبين مائتي ألف من أعدائه ، وكادت الدائرة أن تدور على جنده . . فأخذ يقول صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى دهشة وعجب مما يقول :

ـ أخذ الراية زيد بن حارثة ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً . . ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً . ! !

ونزلت هذه الكلمة على قلب عبد الله بن جعفر ، فاهتزت لها أوصاله ، وارتعشت يده فى يد ابن الزبير ، ولكنهما نظرا إلى بعضهما فتذكرا حديث الشهادة والبطولة ، فعاد إليهما الثبات والصبر . . بين ظهرانى الناس . .

وصمت رسول الله برهة ، حتى تغيرت وجوه الأنصـــار ، وظنوا أنه قد كان فى عبد الله بن رواحة ـ وهو منهم ـ بعض ما يكرهون . . ولم يطل انتظارهم حتى استأنف صلى الله عليه وسلم حديثه فقال :

ـ ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً . .

عند ذلك هتف الأنصار من أعماقهم بين جنبات المسجد . . الله أكبر . . الله أكبر . . إنهم خشوا ألا يشاركوا المهاجرين فخر الاستشهاد فى هذه الغزوة . . فكان فرحهم بشهادة عبدالله ، بمقدار حزنهم على فراقه وفقده .

وصمت الرسول برهة أخرى ، ثم أطرق بوجهه فأغفى إغفاءة

خفيفة ، ثم عاد فرفع بصره . . وانتظر الناس أخبارا جديدة من عالم الغيب ، فرفعوا أعناقهم ، وسلطوا أبصارهم إلى فم الرسول وهو يقول :

– لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم ، على سرر من ذهب فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة أزوراراً عن سريرى صاحبيه، فقلت عم هذا ؟؟ فقيل لى : مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى . . ! !

وانتهى حديث الرسول ، وأخذ الناس ينصرفون إلى بيوتهم وقد امتلأت قلوبهم هيبة من الرسول ، وتصديقاً لما جاء على لسانه الطاهر ، فذاع الخبر فى آفاق المدينة ، فأدرك كل بيت ما حل بالجيش من مصائب ومحن ، فارتفعت الأكف بالضراعة ، والألسنة بالدعاء طلباً للنصر والسلامة . .

ولم ينشغل عبد الله بن الزبير بشىء مما سمع قدر انشغاله بالفرق الطفيف بين إقدام عبد الله بن رواحة وبين إقدام صاحبيه ، هذا الفرق الذى جعل سريره فى الجنة فى مرتبة دون سريريهما ، فأضاف الغلام إلى مداركه معنى آخر من معانى اليقين ، لابد للمجاهد من أن يملأ به قلبه ، حين يتفهم معنى الإقدام لنصرة الله فى ميدان الاستشهاد . وهنا أخذ الغلام يسترجع بقلبه ولسانه حديث الرسول بالمسجد ، ليحفظه عن ظهر قلب ، وليخبر به أمه أسماء عندما يعود إلى البيت ! !

وظل الناس ينتظرون عودة الجيش بقلوب هالعة ، ليعلموا الأخبار بالتفصيل . . ومرت أيام ، أتى من خلالها الخبر بسلامة الجند ، حين أخذ اللواء بعد الشهداء خالد بن الوليد ، وخدع العدو

بتنظيم جديد ، فأوقف سيله الجارف ، وعاد بالمسلمين سالما .

ووصل نبأ قدوم جيش مؤتة ، فخرج الرجال والغلمان للقائه وقد ملأت صدورهم نار الثورة عليه ، وتقدم رسول الله جموع الناس لاستقباله وهو على ظهر دابته ، وما أن دنا الجيش من حول المدينة حتى بادره الرجال بأشد العبارات وأقساها ، وهاجمه الغلمان بالطوب والحصى وحثو التراب . . وتزعم عبد الله بن الزبير فريق الغلمان ، ليرددوا الهتافات ضد الجيش وهم يقولون :

ـ يا فرار . . يا فرار . . فررتم فى سبيل الله ! !

ولكن رسول الله هدأ بحكمته ثائرة الجميع ، وأمرهم بالسكون والهدوء ، فسكت الرجال وسكت الغلمان عندما قال عليه السلام :

ـ ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

ثم نادى صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن جعفر من بين صفوف الغلمان فحمله بين يديه تكريما وتعظيما . . وعاد الجميع إلى المدينة .

وأوى المجاهدون إلى بيوتهم ، ليقصوا على الأبناء تفاصيل الغزوة ، ليوسعوا بها دوائر معارفهم فى محيط الغزوات ، وهنا أضاف عبد الله ابن الزبير إلى معارفه صوراً أخرى من البطولة والخلود ، ليستعين بها على تدعيم مستقبله فى الجهاد والإقدام .

١٨ ـ عقبة فى الطريق . ! !

مضى على غزوة مؤتة ثلاثة أشهر ، حين دخل شهر رمضان على المسلمين فى السنة الثامنة للهجرة . . وبينما كان الجو حاراً لافحاً فى يوم من أيامه الأولى ، ولج عبد الله بن الزبير باب المسجد قبيل الظهر ،

ليستروح بالنسيم الهادئ قرب إحدى النوافذ المجاورة لمكان القبلة ، وليهدئ من جفاف حلقه الذى سلبه الصوم لعابه ، وأودعه رائحة غير عادية . . هى خلوف فم الصائم .

وأخذ الغلام يتعبد ويتنفل ويستغفر ، استعداداً لصلاة الظهر ، وما أن أذن بلال مؤذن الرسول ، حتّى امتلأت ساحة المسجد بالمسلمين ، وصلى النبي بالناس . . وبعد الصلاة استدار صلى الله عليه وسلم ليلقى على الصحابة من فيضه دروس الحكمة واليقين .

وما كاد النبي ينتهى من حديثه بين ظهرانى المسلمين ، حتّى طرق باب المسجد وفد من مسلمى خزاعة وبنى كعب ، يتقدمهم عمرو بن سالم الخزاعى ، فسلم . . ثم أنشد يقول :

يا رب إنى ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتمو ولداً وكنا والداً ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربدا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لى فى كداء[1] رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير[2] هجداً ... وقتلونا ركعاً وسجدا

وسكت عمرو . . فقال رسول الله : نصرت يا عمرو بن سالم . . ثم رفع النبي بصره إلى السماء من إحدى نوافذ المسجد ، فرأى سحابة

(١) كداء : جبل بأعلى مكة .
(٢) الوتير : اسم ماء لخزاعة بأسفل مكة .

قائمة تسير مسرعة نحو مكة ، فأشار إليها صلى الله عليه وسلم وهو يقول :

ـ إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب . . ! !

وتهلل وجه عمرو ، فجلس بين الصفوف فرحاً مسروراً ، بينما أخذت الحيرة والدهشة ترتسم على وجوه صحابة الرسول . . فهذا رسول خزاعة وبنى كعب ، ينشد شعره فى اقتضاب واختصار ، وها هو ذا رسول الله يرد عليه بالتأييد والانتصار ! !

ولم يمض قليل ، حتى وقف المسلمون على حقيقة الأمر . . فهذه قريش قد نقضت عهد رسول الله وميثاقه ، فانتهزت فرصة من مسلمى خزاعة وبنى كعب ، وهما البطنان اللذان دخلا فى عقد المسلمين ، وآثروا الإيمان بالله ورسوله يوم الحديبية ، وصدقوا الله وعده بصدق الإيمان ، وإن نأت بهم الدار ، وعظم عليهم خطر الجار . . فلقد وقع المحظور ، فانقضت عليها قريش مع حلفائها من بنى بكر وبنى الديل ، بدافع الحقد الدفين وتحت جنح الظلام ، وأثخنوهم قتلا وجراحا وتعذيبا .

عندئذ غلت الدماء بحرارة الإيمان فى عروق المسلمين بالمسجد ، واشتعلت بينهم نار الحمية والجهاد ، فصاحوا يطلبون الخروج لقتال قريش .

ورآهم رسول الله يتشوقون لغزو مكة ، ويعتبرون ما وقع منها فرصة سانحة للانقضاض عليها ساعة قبل أخرى ، وبدا له صلى الله عليه وسلم واضحاً ـ كما كان يبدو له قبل ذلك ـ أن جنوده يتقلبون على لظى الصبر منذ وقع صلى الله عليه وسلم مع قريش عقد الصلح

يوم الحديبية ، على ألا تقوم بينه وبينهم حرب خلال عشر سنين ! !

أجل . . لقد سنحت الفرصة ، لكى تأخذ قريش الدرس القاسى ، ليؤول أمرها إلى ما آل إليه أمر البطون الأخرى . . ولتنكسر بانكسارها شوكة الشرك فى ربوع الجزيرة العربية كلها وليتبوأ الإسلام مكانة القيادة العامة للعرب أجمعين .

واستأذن الوفد رسول الله بالرجوع إلى ديارهم فى مكة ، فأذن لهم . . ثم خرج الرسول إلى بيته ليعد العدة سراً ، حتى لا يتسرب أمر الغزو إلى قريش ، وبدأ المسلمون يخرجون إلى بيوتهم فى انتظار مشيئة رسول الله .

واستقر أمر رسول الله وصحبه على الخروج فوراً ، فأعلنت التعبئة العامة لإخراج أكبر جيش إسلامى دب بقدمه على وجه الجزيرة .

وتاقت نفس عبد الله بن الزبير أن يصحب أباه فى فتح مكة، ليمتع نفسه برؤية الكعبة التى طال حنينه إليها ، وتقديسه لها ، واتجاهه فى صلاته الخاشعة نحو قبلتها . . وليسكن من نار شوقه إلى الطواف حول أول بيت وضع للناس فى البلد الحرام . . وأخيراً ليرضى حميته التى استيقظت مبكرة فى انتهاج سبيل المجاهدين الصادقين . .

وتحركت فى الغلام نوازع الجهاد ، فتجاهل عقبة السن فى طريقه، فأسرع إلى أبيه يطلب الخروج مع الجيش ، ولكن أباه عارضه فى حنان ورفق وهو يقول : إن عبد الله بن عمر كان غلاما أكبر منك يوم بدر ، ولكن رسول الله لم يجزه يوم ذاك وهو ابن ثلاثة عشر سنة ، ويوم أحد كان سنه أربعة عشر سنة ، فلم يجزه الرسول

كذلك .. ولكن أجازه يوم الخندق لأنه جاوز الخمسة عشرة سنة ، فكيف بلك يا عبد الله تريد الخروج وأنت ابن ثمان !؟ وظل أبوه يذكر له الغلمان الذين منعهم الرسول عن الخروج فى شتى الغزوات لصغر السن رغم الإصرار الشديد والبكاء المرير .

وبينما الغلام يبكى فى حضرة أبويه ، وهو يلح فى الخروج ، إذ طرق الباب رسول من عند نبى الله يطلب الزبير على عجل ، فأسرع الزبير إلى رسول الله ، فوجد فى حضرته علياً بن أبى طالب فأعلمهما صلى الله عليه وسلم أنه قد أتاه الخبر من السماء أن امرأة من مزينة قد بعثها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى قريش يعلمها عن مسير المسلمين لفتح مكة .. فأسرع على والزبير إلى المكان الذى وصفه رسول الله للقبض عليها ، وهناك أخرجا منها الكتاب وأحضراها إلى النبى كما أحضرا حاطبا . . وأمام الرسول أوضح الصحابى المخطئ حسن نيته فعفا عنه صلى الله عليه وسلم كما عفى عن المرأة .

ودوى نفير الزحف ، فخرج جيش المسلمين لفتح مكة ، تحت لواء الرسول . . وخرج عبد الله بن الزبير فى صحبة الغلمان وراء الجيش ، وظلوا يتابعونه إلى منتهى البصر من المدينة ، ثم بدأوا يتراجعون . . بينما استمر عبد الله فى إصراره على الخروج، فأخذ أبوه والمسلمون يسترضونه فى العودة ، حتى عاد على الرغم منه انتظاراً لفرصة أخرى . .

١٩ – روعـــة الفتح

أحد عشر شهراً مضت منذ غادر المدينة جيش الفتح ، كانت أيامها ولياليها سلسلة متصلة الحلقات من الخيال الجميل ، تحيط بحياة عبدالله بن الزبير .

فلقد كانت الأخبار تأتى إلى المدينة تباعا خلال هذه الأشهر ، فتحمل بين طياتها أنباء النصر يزاحم بعضها بعضا ، فيستقر صداها فى قلب الغلام الصغير ، فتنبعث الدماء فى عروقه بحرارة الشوق إلى الجهاد فى سبيل الله . . ولكنه لا يزال يرى الطريق مغلقة أمامه لحداثة سنه . . ومن ثم لا يجد عبد الله بداً من الصبر ، فيتلمس لنفسه الوسائل ليهدئ من شوقه إلى جهاد المشركين ، فكان يحلو له أن يختلى بنفسه ، ليملأ خياله بصورالعزة التى كتبها الله لرسوله وللمؤمنين ، ويستعيد بذهنه أنباء النصر الخالد فى صورها المجسمة ، فتبدو له المعجزة الخالدة على مر الزمن . . أليس عجباً أن يخرج المشركون رسول الله والذين آمنوا معه من مكة بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله ، وإلا أن يرددوا كلمة التوحيد فى رحاب البلد الحرام . ، وإلا أن يعبدوا الله وحده لا شريك له . . ثم يعود هؤلاء المسلمون بعد ثمانى سنوات إلى البلد الذى أخرجهم ، حاملين نفس الراية التى أخرجوا من أجلها ، صائحين بكلمة التوحيد التى فروا بها من ظلم الظالمين وبطش الباطشين . . فما من مشرك ولا جاحد ولا مفتون ، إلا ويردد اليوم خلفهم « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » بأعلى صوت وأعمق وجدان ، ليعصموا بها دماءهم وأموالهم وأرواحهم ، من محمد والذين آمنوا معه ! ؟

بل أليس عجيباً أن يهاجر رسول الله والمؤمنون من مكة ذلك الحين ، وهم لا يزيدون عن المائة ، فإذا بهم اليوم بعد ثمانية أعوام يعودون إلى ديارهم عودة الأعزة الفاتحين ، على رأس عشرة آلاف من جنود الحق والإيمان ، هم عدة جيش التوحيد لفتح مكة ،

يرددون قول الله تعالى فى جنبات البلد الحرام : « قل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » ؟

ليس ذلك فحسب ، بل ينخرط فى صفوفهم من رجال مكة ـ الكافرة بالأمس ـ ألفان قد أسلموا وجههم لله ، وبهرتهم قوة اليقين فى أعماق جند الله ، فساروا فى ركاب محمد صلى الله عليه وسلم لحرب أعدائه الذين كانوا بالأمس حلفاء قريش ، بل وأشد أعوانها على قتال رسول الله والمؤمنين ! ؟

بل أليس عجيبا وعظيما فى وقت واحد ، أن تتهيأ لرسول الله رؤوس أعدائه جميعاً ، وتجتمع له أعناقهم ليفعل بها ما يشاء ، ولو أطاح بها لكان ذلك جزاء وفاقا ، ولكن الرءوف الرحيم صلى الله عليه وسلم قد أبى ذلك على نفسه ، وتعالى عن مقابلة السيئة بمثلها ، فأعلن العفو العام ، تعظيما لحرمة البيت ، وتدعيما لقاعدة السلام على الأرض فى ظل العقيدة ، وقال مخاطباً جموع المشركين فى ساحة البيت الحرام : « يا معشر قريش ، ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم » فقال صلى الله عليه وسلم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء . . ! ! » .

وأخذت تدور بخيال عبد الله تلك الصور اللامعة ، فيجد فيها شفاء قلبه ، وهدوء نفسه ، فيمتثل لأمر الله ، ويصبر على بطء السنين .

وبينما الغلام فى المسجد ذات يوم يؤدى فريضة ربه ، ويتعبد بما شاء الله له أن يتعبد ، وغلمان المسلمين من حوله ينسجون على منواله ، إذ دوت جنبات المدينة بأصوات الفرح لعودة الجيش الظافر ، فخرجوا خلف الرجال سراعاً للقاء رسول الله والمجاهدين . .

وعلى مقربة من المدينة ، اختلطت بالجيش جموع المستقبلين ، فأخذوا يرددون هتافات الفتح المبين بأصوات دونها الرعود القاصفة « لا إله إلا الله وحده . . صدق وعده . . ونصر عبده . . وأعز جنده . . وهزم الأحزاب وحده . . » .

واستقبل رسول الله فتية الإسلام من أبناء المسلمين ، وتقدم عبد الله بن الزبير إلى السلام عليه ، والمثول بين يديه ، فصافحهم النبي ودعا لهم بالخير والبركة . .

ودخل رسول الله المدينة بين التكبير والتهليل ، وقد ارتفع على كل بيت علم من أعلام السرور والتكريم . . وأطبق ظلام الليل بعد الغروب ، فازدحمت الأنوار على حافة كل طريق ، فبدت واضحة المعالم متلألئة الضياء . . فقد كانت الليلة هى ليلة الرابع والعشرين من ذى القعدة للسنة الثامنة من الهجرة . .

وبعد أن حط كل مجاهد برحاله ، واطمأن كل رجل على أهله وعشيرته . . وتشرف كل بيت شهيد باستقبال نبأ شهادته فى سبيل الله ورسوله . . هرع الجميع إلى بيت الله ، حتى لم يبق رجل ولا غلام إلا وقد ذهب إلى المسجد للاستماع إلى كلمات القائد الأعلى عن أنباء الفتح والقتال . .

وتدفق فيض الحكمة من معين النبوة ، فملأ النفوس عزة فوق عزة ، وإيمانا فوق إيمان . . فما فرغ الرسول من حديثه حتى شعر كل مسلم من أعماقه — فوق شعوره — بأنه صار سيداً فى الأرض . . وهنا تحركت مشاعر الجميع ، فانطلقت بين جوانبهم تردد قول الله تعالى لرسوله عند منصرفه من الحديبية قبل الفتح بعامين ، والمسلمون حينذاك

لا يستهينون بكلمة « فتح مكة » ولا يتصورون طريق الفتح نفسه . .
حتى رأوه اليوم بأعينهم حقيقة واقعة لا شك فيها ولا مراء . . أجل ،
هنا رددوا من أعماقهم قوله تعالى :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . . »

وأوى كل مجاهد إلى بيته يقص قصة الفتح على أهله وذويه ، ليضيفوا إلى محفوظاتهم من القرآن ومغازى النبي صورة أخرى من صور البلاء والفوز المبين . .

واستمع عبد الله إلى أبيه الزبير وهو يروى له قصة الفتح بالتفصيل ثم قصة قتال المشركين من هوازن وثقيف وبعض القبائل الذين لم يشاءوا الإيمان بالله ورسوله حتى يروا العذاب الأليم بعد فتح مكة بأيام !! ثم عن أنباء الغنائم الكثيرة ، وما أفاء الله على المسلمين من مال وسلاح . . ثم عن إسلام القوم وتقهقرهم عن الباطل أمام سيف العزة وعزة السيف . . ثم عن نصرة الملائكة فى وادى حنين ، حينما نزلت على هيئة نمل أسود مبثوث ، أقبل من السماء حتى سقط بين الجيشين ، ثم سرى بين الأعداء فلم تكن إلا هزيمة القوم . . ثم أخذ الزبير يذكر لولده ما كان من النصر على ثقيف بعد هوازن . . والغلام يستوعب بقلبه كل الحوادث ، ويفرح عند كل مقطع من كلمات النصر ، فلما ذكر له أبوه كيف قتل بعض المسلمين فى لحظة من لحظاتهم سبعين رجلا من ثقيف تحت راية ثقيف نفسها ،

أخذت عبد الله قشعريرة خفية لا يعلم مصدرها وإن كانت من وحى الفرح بنصر الله . . ترى هل كانت هذه القشعريرة قشعريرة المستقبل الغامض الذى سوف يكشف ستره عن خطر ثقيف بعد نيف وستين عاما على عبد الله بن الزبير وهو إذ ذاك شيخ كبير يذود عن جلال الخلافة ، فيقتل على يد طاغية من ثقيف ! ؟ ولم لا ؟ . . فان النفوس الطاهرة الصافية لتحس بآخرتها وهى فى مستهل حياتها ، وتشعر بالنهاية عند البداية ، وقد يخفى الله عنها الكثير ، ولكنه سبحانه يلاطف أعماقها بأضواء المستقبل بين آونة وأخرى، لتستقر فيها عوامل الاستعداد وأسراره ، ولتنهج على نحو يريده المولى ويبتغيه . . وهكذا كانت حياة الأبرار والصالحين من عباد الله منذ خلق الله الأرض ومن عليها .

وأخذ الزبير يذكر له عظماء ثقيف ، الذين أطاح المسلمون برقابهم فلما ذكر قتل عثمان بن عبد الله أحد كبراء ثقيف وطغاتها ، أعقب كلامه بقول رسول الله فيه بعد موته والحرب قائمة : « أبعده الله ! فإنه كان يبغض قريشاً ! ! » . . وهنا أخذت عبد الله قشعريرة أخرى لا يعلم مصدرها . . وإن كانت من وحى الإجلال لبيت الله الحرام والحنان إلى مكة المكرمة . . ترى هل كانت هذه القشعريرة قشعريرة المستقبل ، حين يكشف الستار لنفس عبد الله الصافية عن نيف وستين عاماً ستأتى ، حينما يصير الغلام شيخا كبيرا يلوذ بالبيت الحرام ، دفاعا عنه وذوداً عن حماه أمام جيش الأمويين بقيادة طاغيـــة من ثقيف ، وهو يدك الكعبة عليه بالمنجنيق والحجارة ! ؟

وانتهى الزبير من سرد قصة ثقيف لعبد الله بذكر ما كان من حامل رايتهم عندما حمى الوطيس . . لقد أسند رائد العدو رايته

إلى شجرة وهرب والقوم فى إثره ، فما أدرك المسلمون منهم غير رجلين فقتلوهما ، وكان أحدهما يقال له الجلاح - من بنى كبة - فقال رسول الله عندما بلغه نبأ قتله « قتل اليوم سيد شباب ثقيف » .

وهكذا كتب الله على المشركين المذلة والمسكنة ، فقطع دابر الذين كفروا ، والحمد لله رب العالمين .

وفرغ الحديث بين فارس رسول الله وولده ، فاستأذن عبد الله أباه فى زيارة خاله عبد الله بن أبى بكر الصديق ، فقد جاء مع الجيش جريحا من رمية سهم مسموم فى حصار الطائف . . ودخل عبد الله على خاله وهو متعب مجهد ، يعانى ألم الطعنة ، فأخذ يصبره وهو يتمنى لو كان الجرح فيه ، لينال ثواب المجاهدين . . وكأن خاله قد شعر بهذا الإحساس المتدفق ، فنسى أنه مطعون . . فأخذ يحدث الغلام فى - حماسة وقوة - حديث الفتح ، ويذكر له حرب هوزان وثقيف والطائف . . وأبى عبد الله بن أبى بكر إلا أن يكرم الغلام السعيد فى شخص أبيه الزبير ، فذكر له فى آخر حديثه قصة مالك بن عوف النضرى ، حينما اجتمعت له هوزان وثقيف كلها لحرب رسول الله بعد فتح مكة ، ووقفوا فى بطن وادى حنين ، فملأوا أفقه الفسيح برجالهم وعتادهم وفرسانهم ، وبينما وقف فيهم مالك يحضهم على القتال والنزال ، إذ بدت له وهو على الثنية خيل لبعض فرق الجيش الإسلامى فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟؟

قالوا : نرى قوما عارضى[1] رماحهم ، أغفالا[2] على خيلهم

---

(١) أى واضعيها بالعرض .

(٢) أى لا علامة لهم برداء أو شعار واحد .

فقال لهم : هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم ! !

فلما انتهى مالك وأصحابه إلى مكان آخر ، نظروا فى الأفق البعيد فرأوا فارساً يطلع عليهم على رأس قوة من فرسان رسول الله ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟؟ قالوا : نرى فارسا طويل الباد ، واضعاً رمحه على عاتقه ، عاصباً رأسه بملاءة حمراء ، فارتعش وقال لهم على الفور : هذا الزبير بن العوام، وأحلف باللات ليخالطنكم ، فاثبتوا له ..

ولم يكن غير قليل حتى خالطهم الزبير ، وظل يطاعنهم ويقتل فيهم ، حتى أزاحهم عن الميدان جميعاً ! !

وشعر عبد الله أن خاله يتألم من جراحه ، ويكظم كثيراً من توجعاته وآلامه ، فاستأذنه الغلام وهو يدعو له بالبرء والشفاء .

وفى الطريق إلى البيت أخذ عبد الله يدعو ربه أن يمن عليه بنعمة الجهاد ، وفخر البلاء والابتلاء والاستشهاد ، ويحدث نفسه حديث الصبر حتى يأتى موعد الحج ، فيستأذن فى الخروج إلى البلد الحرام ، فربما ازداد بقربه من الكعبة المحرمة قربة من الله أن يقبل رجاءه ويجيب دعاءه . .

٢٠ – طيف الكعبة

انقضى على فتح مكة وما حولها عام وبعض عام ، تجلى خلالها نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأضاف عبد الله بن الزبير إلى مداركه من خلالها صورا جديدة فريدة من الجهاد الخالص والبلاء الصادق ، وتلقى من حوادثها القوية الرهيبة

دروسا حافلة بالعبر والعظات ، استلهمت كل أسرارها وأنوارها من واهب اليقين لأهل اليقين .

وجاءت السنة العاشرة للهجرة ، ليختم الله فيها رسالة السماء إلى الأرض ، وليتم نعمته على رسوله ، وليكمل للمسلمين دينهم ، وليختار إلى جواره الكريم بعد ذلك خير أصفيائه من خلقه ، بعد أداء الأمانة وتبليغ الرسالة ، وترك المؤمنين على المحجة البيضاء ليلها كنهارها .

وأذن مؤذن الحج ، ليأخذ المسلمون أهبتهم لأداء فريضتهم خلف رسول الله ، بعد أن حجوا عامهم السابق خلف أبى بكر ، وبعد أن نزلت سورة « براءة » بعد سير الحجيج بيوم وليلة ، فأسرع الرسول بإبلاغها إلى الصديق ، وهو فى الطريق حينذاك ، ليعلن على الناس فى موسم الحج انقضاء عهد الشرك ، ومنع المشركين أن يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا .

وخرج الناس أرسالا خلف الرسول الأعظم إلى مكة ، وقد آثر كل بيت أن يخرج كله أو أكثره ، ليدرك شرف الحج الأكبر لأول مرة خلف رسول الله ، وليشهد أعظم جمع بين أهل التوحيد فى ساحة الطهر والفلاح ، وليمتع نظره بالنبي الكريم فى هذا المشهد العظيم ، خوفاً من أن تفوته الفرصة أبد الدهر . . فلقد أحس الناس أن شبح الفراق يقترب رويداً رويداً بينهم وبين رسولهم ، لا لأن الرسول قد كبرت سنه ووهنت عظامه ، ولكن لأن سورة « النصر » قد نزلت منذ قليل ، وفيها يقول الله عز وجل : « إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك

واستغفره إنه كان توابا » ولئن كانت السورة لا تحمل بين طياتها معنى صريحا لقرب لأجل ، إلا أن أهل التأويل قد أولوها إلى ذلك ، وهاهو ذا عبد الله بن عباس رضى الله عنه يعلن للمسلمين هذه الحقيقة المفزعة وهو يبكى وينتحب ويقول :

– إنها إيذان بدنو الأجل وقرب الرحيل ! !

ولعل هذا الحج يكون للنبي بمثابة الاستغفار الذى يريده مولاه ، وفيه يعلن لأمته آخر تعاليمه وأوامره ونصائحه ونذره ، ليترك الدنيا وقد وفى بعهود ربه وحقوق عباده . . بل ولعل هذا الحج هو الجزء الأخير الباقى من مكنون سورة النصر ، لأن الفتح قد نزل ، ولأن الناس قد دخلوا فى دين الله أفواجا ، حتى لم تبق قبيلة من قبائل العرب أو بطن من بطونها ، إلا وقد ألقى سلاحه تحت أقدام النبى ، وأعلن إسلامه لله رب العالمين . .

وخرج عبد الله بن الزبير مع أبيه فى عداد وفد الله وزوار بيته ، وقد امتلأت نفسه شوقاً إلى البلد الحرام ، وتكدست رأسه بمعانى الجلال والخلود ، وتزاحمت فى خياله خواطر مهيبة عن جلال الموقف يوم عرفة ، فتمثل للغلام حديث رسول الله « مارئى الشيطان فى يوم أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة » وبدا له معنى كلام الله عز وجل عندما ذكر عداوة إبليس اللعين لعباده المؤمنين حيث قال :

« لأقعدن لهم صراطك المستقيم » وكان من قصد إبليس ، منع عباد الله عن حج بيت الله . . ليبعدهم عن رحمته التى تغمر ساحة بيته المعمور ، والتى تحدث عنها إمام المتقين فقال : « ينزل على هـــذا

البيت فى كل يوم مائة وعشرون رحمة ، ستون للطائفين ، وأربعون للمصلين ، وعشرون للناظرين ؟؟ !! » .

* * *

ولم يكن حديث الناس فى طريقهم إلى مكة إلا عن الحج وإلا عن حرمة البيت ؛ فكانوا يستعيدون بين الساعة والأخرى أقوال الرسول عن الكعبة وأسرار مناسكها ، وحقائق الإعجاز عن تاريخها القديم ، الذى سبق تاريخ آدم أبى البشر . . ! !

وكانت الكلمات تسقط على قلب عبد الله ، وهو مردف خلف أبيه ، فتصيب صميمه ، فيقشعر لها بدنه الصغير إجلالا وإعظاما . . ثم ينتقل الحديث بالركب إلى وجوه متعددة من مناسك الحج ، والغلام منصت خاشع .. ثم يأتى الحديث عن الحجر الأسود ، فتأخذ عبد الله رعشة الهيبة عندما يردد المتحدثون ما يعونه من قول رسول الله عنه « ليس على ظهر الأرض من آثار الجنة شيء .. غير الحجر الأسود » وقوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله عز وجل فى الأرض يصافح بها خلقه ، كما يصافح الرجل أخاه »[1].

وهنا أخذ الغلام يتساءل بينه وبين نفسه عن سر لونه الأسود ، مع أن الجنة – فيما يتصوره خياله الصغير – تزهو بكل جميل وبديع !! بل ما للجنة والأحجار السوداء ، التى امتلأت بها الأرض ، واكتست بها سفوح الجبال وأعماق الوديان ! !

ولم يطل تساؤل الغلام حتى عادت به اليقظة من خياله على قول

---

(١) قال الخطابى : معنى أنه يمين الله فى الأرض ، أن من صافحه فى الأرض كان له عند الله عهد .

متحدث بين القوم ، يذكر قول التاريخ فى الحجر الأسود كما أوردته الأخبار : « إن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة ، وأنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق به ، يشهد لكل من استلمه بحق وصدق » وإذا كانت هذه الياقوته قد صارت سوداء مظلمة ، بعد أن كانت تشع بأنوار الجنة وضيائها . . فلأن آثام البشر وكفر الناس على اختلاف عصورهم ، قد اسود من هولها وجهها الكريم حزنا ورثاء ! !

وهنا تتكاثف حول خيال عبد الله جلال المعانى وبدائع الصور ، فيسبح فى حلم طويل جميل ، لا يستيقظ منه إلا على صوت جديد يعلو بذكر شيء آخر عن الكعبة التى لا يكاد الحديث عنها ينتهى بين الركب على طول الطريق . .

وتسطع من الأفق البعيد أنوار الكعبة وأضواء البلد الحرام . . وتقترب مكة رويداً رويداً ، ويبدو لعبد الله جلال السعى إلى بيت الله على ظهور الإبل ، فيخفق قلبه على دقات وقعها المنظوم على وجه الأرض ، وكأن الإبل نفسها قد شمت رائحة القرب من الحرم المبارك ، فأخذ يشتد خطوها على صوت حاديها فى البيداء المقفرة إلا من أصوات الإيمان ، ترتفع بذكر الله والثناء عليه فى تضرع وخشوع . . « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ، لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك ، والرغباء إليك ، لبيك بحجة حقاً ، تعبداً ورقاً ، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد » .

وهنا تتضخم لعبد الله حقيقة الرضوان فى كنف الكعبة المشرفة ، فيستعيد الغلام بذاكرته الواعية حديث رسول الله حيث قال : « إن الله

عز وجل قد وعد هذا البيت أن يحجه فى كل سنة ستمائة ألف ، فان نقصوا أكملهم الله عز وجل من الملائكة ، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة وكل من حجها يتعلق بأستارها يسعون حولها ، حتى تدخل الجنة فيدخلون معها . . » وينتهى عبد الله من سرد حديث رسول الله فتجتمع فى خياله صور المعانى العلوية التى لفت الكعبة بردائها المعجز الرهيب ، فتأخذ الغلام الرهبة ويملؤه الحنين الخاشع والشوق الوقور . .

أليست الكعبة – كما سمع الغلام – هى أول بيت وضعه الله لعبادته فى الأرض قبل أن يكون آدم فى الوجود ، ولما أنزل الله آدم إلى الأرض ونزل فى ساحة البيت وقضى مناسكه ، لقيته الملائكة المقربون فقالوا : « بر حجك يا آدم ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام » ! !

أليست الكعبة – كما سمع الغلام – هى دار الأمان لمن فر إليها من أهل الأرض أجمعين ، مؤمنهم وفاسقهم على السواء ، وهى التى وصفها المولى بقوله « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا » . . آمنا من كل شىء ، حتى من إقامة حدود الله عليه حتى يخرج منه ! ! بل آمنا حتى من غضب السماء إذا نزل على الأرض ، كما حدثت بذلك أخبار قوم لوط حين أنزل الله عليهم الحجارة من السماء تحصدهم وتبيدهم من الوجود بما كانو يفسقون . . إلا ما كان من أمر أحدهم حينما فر إلى البيت الحرام وهو يائس من النجاة ، وكان حجر من أحجار السماء متجها إليه ، فلما دخل الرجل ساحة

الكعبة ظل الحجر معلقا بين السماء والأرض . . وبقى محتميا من أمر الله فى بيت الله أربعين يوما كاملة ، فلما خرج سقط الحجر عليه فمات مكانه ! !

بل أليست الكعبة — كما سمع الغلام — هى قبلة المؤمنين فى كل العصور على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأنبيائهم ، بل هى حبل الاعتصام بين الناس جميعاً ، حين كانت الخلائق تضل عند انقطاع سبيل الوحى على فترات الأنبياء بين الرسالة والرسالة . . بل هى فوق ذلك وذلك سر الله فى الوجود ، ورمز البقاء فى حياة الكون إلى الأجل المكتوب فى اللوح المحفوظ ، كما يتبين من قول الله تعالى فى حديثه القدسى إلى رسوله الكريم ، « إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتى فخربته ، ثم أخرب الدنيا على أثره . . ! ! » .

ولقد تجلى فضل الله على الناس — إملاء لهم وشفقة عليهم — بإظهار هذه الحقيقة فى حفظ بيته على مر القرون ، وكان أصغر مثل لها هو هلاك جيش أصحاب الفيل ، عندما تقدمهم أبرهة الحبشى لهدم الكعبة المكرمة ، والقضاء على سحرها الروحى فى نفوس الخلائق . . فلما فر أمامه أهل مكة جميعاً ، بل أهل الجزيرة كلها ، وهم بين يائس وخائف ومهزوم ، حتى لقد كان أكثرهم شجاعة يومذاك من قال : إن للبيت ربا يحميه ! !

عند ذلك أنزل الله ملائكته يحملون الموت الناقع لأعداء البيت فجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . . ! !

* * *

أجل . . تجمعت هذه الحقائق السماوية كلها فى فؤاد عبد الله ، حين وصل الركب الكريم إلى أطراف مكة بين تلبية وتهليل . .

وانفتحت للرسول وصحبه أبواب البيت الحرام فى البلد الحرام ، ليضم بين حناياه خير الرسل وأكرم الأتباع ، فملكت أنوار الخلود على الغلام مشاعره ، وأورثته حباً عنيفاً جارفاً لبيت الله، يضيق به قلب كثير من المؤمنين الصادقين . .

٢١ – وداع . .

وقف المسلمون بعرفة يوم الحج الأكبر ، بعد أن أراهم النبى مناسكهم ، وأقام لهم فريضتهم ، ليستمعوا إلى أول خطاب جامع من نوعه ، يلقيه صلوات الله وسلامه عليه بينهم ، بل ولعله آخر خطاب له فيهم بعد أن تحقق وعد الله للذين آمنوا بزوال معالم الشرك عن أرض الجزيرة كلها ، وقطع دابر القوم الذين كذبوا ، من حول البيت الحرام والبلد الحرام ، إنفاذاً لأمر الله إلى رسوله والذين آمنوا منذ عام مضى ، حيث قال سبحانه « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . . »

وساد السكون جمعهم العظيم على الجبل العظيم ، وسرى الهدوء إلى ما وراء الجبل ، فشمل العير والأبقار والشاء الضاربة فى أعماق الوادى إلى حدود الأفق ، فوقفت الإبل عن رغائها ، وصمتت الأبقار عن خوارها ، وامتنعت الشاء عن يعارها ، ثم عمت السكينة أجواء الفضاء ، حتى لكأن الخطاب موجه إلى العوالم كلها ، فهى بين سامع وشاهد وشهيد . .

وتطلعت الأبصار إلى رسول الله وهو على ظهر ناقته ، وأرهفت الآذان ، واشرأبت الأعناق ، وتكدس الجمع المنتشر وقد ضـــاق به الجبل على عظمه وامتداده ، حتى لا يفوت أحداً معنى من المعانى أو كلمة من الكلمات . .

وضاقت أنفاس عبد الله بن الزبير من شدة الزحام بين الناس ، واحتجاز نسائم الهواء عنه لفرط قصره بين الأجساد الكبيرة المتراكمة ، فتسلل الغلام إلى خارج الصفوف ، ليستمع وهو على بعد ، إلى ربيعة ابن أمية بن خلف ، وهو يردد بصوته الجهورى وسط الحلقة العظيمة خطاب الرسول جملة جملة ، وكلمة كلمة . . ليبلغ البيان التاريخى إلى الأسماع المرهفة واضحاً ظاهراً : :

واستهل رسول الله خطابه بحمد الله والثناء عليه ، ثم بقوله : « أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا . . »

وهنا خشعت الأبصار تحت ضغط المعنى الرهيب على القلوب . . فما زال شبح الفراق يتراءى للمسلمين بصوره المفزعة عند كل مناسبة ، منذ نزول سورة « النصر » وتأويل ابن عباس لها بأنها إيذان بدنو الأجل وقرب الرحيل :

واستمر رسول الله فى إلقـاء خطابه الخالد وسط الخشوع السائد على ظهر الجبل ، ليركز فى النفوس دعائم الدعوة لبنة لبنة ، وليستعيد على الأفئدة أركان الرسالة قاعدة قاعدة ، وليوضح لحملة الأمانة من بعده معالم الحلال ومعالم الحرام ناحية ناحية ، ليعلن بذلك البلاغ الأخير ، وليشهد الله والناس على إبراء ذمته بأداء أمانته إلى العالمين كاملة شاملة . .

وانتهى الرسول من خطابه ، وقد ركز فى القلوب معانى الرسالة ، وحرك فيها كوامن الخوف على فراقه ، بعد أن أيقظتها آخر آية نزلت من كتاب الله عليه ، فى هذا اليوم نفسه ، وعلى ظهر الجبل نفسه ، وفى وسط الجمع نفسه ، وفيها يقول عز وجل « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا . . » .

ولم يكن عبد الله بن الزبير على صغر سنه بأقل إدراكا لهذا المعنى الرهيب من غيره ، فهو الذى سلمت فطرته من منازع النقص أو الريب ، منذ تفتحت عيناه على أنوار الخلود تشع من معين النبوة ، فتملأ حياة المسلمين كمالا وجلالا . . ولا غرو أن قد علم الغلام قدر الرسول مبكراً فنشأ فى ظله ، وكان يفضل الحياة فى كنفه الطاهر ساعة من نهار ، على الحياة فى كنف أبويه العظيمين أبد الدهر . . بل لقد آثر الغلام بفطرته السليمة ووعيه الناضج ، أن يشرب دم رسول الله ساعة أن احتجم ، على أن يلقيه فى زاوية من زوايا البيت ، معللا ذلك بأن دم الرسول جنة له من النار . . ! !

* * *

وانتهى موسم الحج ، وتهيأ الناس للعودة إلى ديارهم ، وتحرك رحل المدينة خلف رسول الله إلى عاصمة الإسلام . . وسار الركب وئيدا ، يجر أقدامه بخطى بطيئة قصيرة ، يقيدها الحنين إلى البيت الحرام عن السير الحثيث . .

ومن خلال المشهد الرهيب ، أخذ عبد الله بن الزبير يتلفت خلفه بين لحظة وأخرى ، ليمتع النظر بمشاهد النور ، حول البيت ، وليودع معالم الخلود الرابضة فى أطهر بقاع الأرض ، وهى تبتعد عن عينيه

الذابلتين شيئا فشيئا . . حتى إذا ما غابت عند الأفق البعيد ، بدأ الغلام يفيق من خياله الجميل ، ليستأنف الفكر فيما عسى أن يجره المستقبل على المسلمين من أحداث ، بعد سماعه خطاب الرسول التاريخى الذى كان فيه أشبه ما يكون بمودع صريح . . عند ذاك أخذت الغلام قشعريرة خفية لم يعلم مصدرها ، ولم يملك إزاءها إلا أن يلتفت مرة أخرى صوب مكة والبيت الحرام ! ! ترى هل كان عبد الله ينظر بعين بصيرته إلى المستقبل البعيد ، وقد كشف له عن نيف وستين سنة ستأتى ، وقد بدا للغلام صورته من خلالها وهو شيخ كبير بدافع وحيداً عن جلال الحق الذى آمن به دفاع المستميت ، فتشتد حوله الكوارث ، وتحيط به الأحداث . . حتى لا يجد عبد الله الشيخ مخرجا من ضيق الدنيا وظلمها وظلامها إلا أن يجنح إلى حقيقة الأمن فى رحاب البيت الحرام ! ؟ ؟

واستمر عبد الله سابحا فى خياله الصافى ، وقد تجمعت حوله كل عوامل الجد والاجتهاد ، وتكدست فى فؤاده شتى منازع الخير والإقدام . . وما أن وصل الغلام المدينة ، حتى كان يحمل بين جنبيه روحا جديدة وثابة ، تدفع به فى طريق المجد دفعاً ، وتعينه على انتهاج سبيل البررة من العابدين الصادقين ، ابتغاء مرضاة الله ورسوله . . فلئن بخل الزمان عن تحقيق أمنية الغلام فى الشهادة والجنة ، تحت لواء سيد المرسلين وفى حياته ، فأن طريق المجد الذى ارتضاه عبد الله لنفسه ، لابد سينتهى به حيث انتهى بغيره من أنصار الله وأحبائه ، فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

٢٢ ــ غروب . .

فى خلال شهرين مضيا على عودة الرسول وصحبه من مكة المباركة

بعد الحج الأكبر ، كانت قوات الجيش الإسلامى تعد صفوفها المتراكمة فى ميدان التدريب العسكرى خارج المدينة ، تحت إمرة شاب لم يبلغ التاسعة عشرة من عمره بعد ، قد ولاه رسول الله القيادة العامة لحرب الروم فى أرض فلسطين ، فشمل سلطانه الحربى رؤوس الصحابة جميعاً ، كبارهم وصغارهم ، وتجلى للعيان جلال الطاعة فى أوسع حدودها وأبهى معانيها ، وظهرت فى سماء الوجود صورة الإنسانية الرفيعة تنطق بجلال الإسلام وعظمته وعدالته ، وتعلن للعالمين أن جلال الإنسان فى ميزان السماء لا يقدر بجاه أو حسب ، ولا يوزن بمال أو نسب ، وإنما مرده إلى الإيمان والتقوى ، ولو استقرت فى قلب مولى من الموالى أو عبد من العبيد .

وهكذا أراد رسول الله أن يركز المعنى الرفيع فى نفوس أصحابه فى آخر عهده بهم ، ليحفظ للدين بقاءه وجلاله ، ويمحو من النفوس كل ظل للجاهلية فى صرح الحق ، فولى على الجيش العظيم أسامه بن زيد بن حارثة ، مولاه وخادمه ! !

وبينما كان الجيش يقوم بتجهيزاته العسكرية ذات يوم قبيل موعد مسيره إلى أرض العدو ، أحس رسول الله بمرض الموت يغزو جسده الطاهر ، فسكن فى رأسه أول ما سكن ، ثم تسرب إلى أوصاله الكريمة وهو ثابت يكاد سروره باقتراب أجله ولقاء ربه ، يخفى كل إحساس بالآلام والأوجاع . .

وفى جنح الظلام نزل أمر الله من السماء إلى الرسول بتوديع الدنيا ، فاستجاب للأمر ، وخرج يستند على كتف مولاه أبى موهبة فى اتجاه البقيع ، حتى إذا ما بلغه صلى الله عليه وسلم أشتد عزمه ، واستقام فى مشيته ، وسار بين المقابر وهو يقول :

– السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنىء لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى . .

وصمت رسول الله برهة ، وكأنه يفكر فى حال المسلمين من بعده ، وقد أقبلت عليهم الدنيا ، وأسلمت لهم زمامها . . ثم التفت إلى مولاه وقال :

– يا أبا مويهبة ، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا ، والخلد فيها ، ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة .

فرد عليه مولاه وهو مشفق من فراق حبيبه وخليله ، فقال :

– بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها . . ثم الجنة . .

وهنا أجابه الرسول الأعظم :

– لا والله يا أبا مويهبة . . لقد اخترت لقاء ربى والجنة . .

وأخذ الرسول يستغفر لأهل البقيع ساعة ، ثم ودعهم وعاد إلى بيت عائشة . .

ومضت أيام ، أحس المسلمون فيها ألم الخوف على حياة رسول الله ، فارتسمت الكآبة على كل وجه ، وعم الحزن كل بيت . . ولكن موت الرسول مازال أمراً عظيما على النفوس ، لاتستطيع أن تتصوره ، فضلا عن أن تتصور احتماله . . بل إن الرسول نفسه أشفق على أصحابه أن يفاجأوا بنبأ موته ، فمهد السبيل لاحتماله بالصبر ، وهو على المنبر

معصوب الرأس من شدة الألم ، قبل قبضه بساعات . . فقال من خلال موعظته الأخيرة البالغة إليهم . . « أيها الناس ، إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله . . »

وفهم أبو بكر مرمى الرسول ، فارتعد وأجهش فى البكاء ، وارتفع صوته بالنحيب وهو يقول : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا . .

وخاف الرسول على المؤمنين هول الصدمة ، فأشار إلى الصديق بالسكوت فى حزم وهو يقول : على رسلك يا أبا بكر . .

ومضت الساعات الباقية من حياته المباركة صلى الله عليه وسلم . . وحل الأجل المكتوب ، وحم القضاء المحتوم . . وفاضت روح الرسول الأعظم إلى بارئها ، وقد انعقدت من حوله الألسن عن الكلام أمام هول الصدمة ، وجفت الدموع فى العيون تحت ضغط النيران المتأججة بالذهول والحسرة ، وانحبس الريق فى الحلاقم من وهج الآلام المضطرمة بين الصدور المنحبسة الأنفاس . .

وتجمعت الأهوال كلها على قلب عبد الله بن الزبير ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضاقت عليه نفسه بما اتسعت به من معانى الإيمان واليقين ، وبدا الغلام بعد هنيهة شبحاً قد أرهقه الأسى فبدا ضعيفا كئيبا ، وأخذ منه الحزن كل مأخذ ، فغدا لا يكاد يرى من أمامه من فرط ما أصاب عينيه من البكاء المر والدمع الغزير .

وعند باب المسجد أوى الغلام إلى الجموع المضطربة فى الداخل والخارج ، وجعل يسلط بصره على عمر بن الخطاب وهو ينفى للمسلمين نبأ وفاة الرسول ، ويستعظم الخبر ويستكثره ، ويهدد بالقتل من يذكره أو من يتفوه به . . ! ! ولم تكن إلا لحظات حتى ولج الصديق

باب المسجد ، واتجه إلى المنبر وهو يشير إلى الفاروق بالصمت ، فسكت الفاروق على الفور .

وتطلعت الأبصار الذاهلة إلى أبى بكر وهو يقول فى حزم وقوة : « من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين . . »

وهبطت كلمات الصديق على قلوب المسلمين مهبط السكينة ، فأعادت إليهم صوابهم ، وردت عليهم ثباتهم وصبرهم ، فراحوا يتدبرون أمر خلافة رسول الله فيهم . . وفى خلال ساعات ، بايع المسلمون فى المدينة أبا بكر دون خلاف لفضله وسابقته وتقواه ، وعهدوا إليه بأمرهم قبل أن يودعوا نبيهم ، إبقاء على سيرته صلى الله عليه وسلم بينهم ، ووفاء بعهده إليهم ، وإشهاداً له — وهو على أهبة فراقهم الجسدى — على أنهم قائمون بأمر الله وأمره فيهم .

وانبعثت فى أفق عبد الله بن الزبير إشراقة أمل جديدة ، من خلال السواد الحزين ، الذى أحاط بنفسه حزناً على فراق خليله الأكبر ، فانقشع الظلام عن وجهه قليلا ، ليرى أن سبيل العمل مازال مفتوحا أمامه لمتابعة طموحه إلى نصرة الحق فى صفوف المجاهدين . . وعسى أن يكون عهد جده الصديق ، فرصة لإشباع نهمه الباكر نحو الجهاد فى سبيل الله ورسوله . .

٢٣ — صالح المؤمنين . .

لكأن رسول الله قبل صعوده ، كان يتطلع بعين بصرته إلى

أعماق المستقبل الرهيب ، المملوء بالأحداث العظام والأخطار الجسام ..
ولئن لم يصرح صلى الله عليه وسلم للمسلمين بحقيقة الخطر الذى يتربص الدوائر بدعوته بعد صعوده إلى الرفيق الأعلى ، فإنه لمح بذلك حين ودع الدنيا وزار البقيع ، وخاطب الموتى فقال : ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . . أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى . . »

وصدقت نبوءة رسول الله إثر موته على الفور ، فما كاد نبأ الفاجعة يدوى بين أرجاء الجزيرة ، حتى أطلت الفتنة برأسها من الأفق البعيد ، تحمل راية الكفران من جديد . .

لقد أعلن بعض رؤساء القبائل الضاربة فى نجد واليمن ارتدادهم عن الحق ، ظناً منهم أن دعوة الإسلام قد انطفأت جذوتها بموت رسولها ، فتألبوا عليها ، وطردوا سفراءها من ديارهم . .

وتتابعت الأنباء المفزعة بانتشار حركة الردة بين القبائل ، وادعاء قادتها شرف النبوة بينها ، وحشد الجيوش المرتدة لحرب المسلمين ، حتى فى عقر عاصمتهم ، بغية القضاء المبرم على رسالتهم ، والتخلص من قيود الحنيفية السمحاء وشعائرها . .

ومرت ستة أشهر ، كان اهتمام المسلمين فيها بأمر استقرار حكومتهم ، ورسوخ خلافتهم ، وتنظيم شئونهم ، أكبر من اهتمامهم بأمر الأحداث المحيطة بهم ، لأنهم لم يتعودوا الخوف من الناس ، أو الخشية من المستقبل ، ماداموا يحملون عن أيمانهم كتاب الله ، وعن شمائلهم سيوف الحق . . والنصر بعد ذلك من عند الله ، وهو وقف على أهل طاعته وتقواه .

ستة أشهر . . تجلى فيها لعبد الله بن الزبير ، حقيقة الحرية الإنسانية فى محيط كل فرد فى الجماعة الإسلامية ، لاختيار خليفة رسول الله من بين المؤمنين ، وانفتحت له من خلالها صفحة ناصعة البياض فى سجل الخلود ، ليضيف إلى مداركه الباكرة ، لونا جديداً من ألوان الحكمة والهداية والرشاد ، فى ظل جده الصديق رضى الله عنه . . وهو أحد الأربعة العظام ، الذين قرن صلى الله عليه وسلم طاعة الناس لهم بطاعتهم له ، حيث قال : « عليكم بسنتى ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى . . عضوا عليها بالنواجذ . . »

ستة أشهر . . انتهت بمبايعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ومن معه من بنى هاشم لأبى بكر الصديق راضين مختارين ، فالتأمت بهم دائرة الوحدة القوية المتماسكة . .

فلم تكن الخلافة بالشىء الهين أو الأمر اليسير ، وإنما كانت الأمانة العظمى ، التى تنوء بحملها السموات والأرض والجبال الراسيات ويتساوى أمام مسئوليتها الكبرى رعاة الأمة ورعاياها على حد سواء . . ومن هنا اضطربت معايير المؤمنين بعد صعود الرسول الأعظم ، وفى خضم المصيبة المضطرب ، حول اختيار الخليفة الأول ، لمواجهة المهمة الشاقة التى تنتظره لتوجيه سفينة الإسلام وسط الأنواء والزعازع والأعاصير . .

ومن خلال هذه الموجة المضطربة بدت لعبد الله بن الزبير حقيقة خالدة ، ما لبثت أن استقرت فى أعماقه ، فملكت عليه مشاعره . . لقد بدا للغلام واضحا أن خلاف الرأى بين وجوه الصحابة فى تقدير المسئولية واختيار الخليفة ، بلغ ذروة الجلال والكمال . . وبرزت له

مثل من أمثلة الشجاعة النفسية فى شخص أبيه الزبير ، عندما تمسك لآخر لحظة بمبايعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه دون أبى بكر ، والصديق هو من يعلم الزبير – قبل غيره – منزلته ومرتبته فى صفوف المؤمنين ، بل هو من وصفه رب العالمين بالفضل والقوة ، وأنزل فيه قرآنا فى شتى مواضع كتابه الحميد ، وقال فى حقه ضمن ما قال منذراً بعض زوجات الرسول الطاهرات « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . . » وقد كان أبو بكر هو صالح المؤمنين . .

أجل . . تمسك الزبير برأيه الحر فى موطن الاجتهاد والمسئولية ، رغم شتى الاعتبارات الناطقة الصارخة ، ورغم فضل أبى بكر عليه هو بالذات منذ أسلم على يديه ، وتعهده فى ظل الرسول ، وأزال عنه أثقال الوحشة حين استبد به الضيق من أخواله من بنى هاشم إرضاء للات والعزى ، فزوجه الصديق ابنته الطاهرة أسماء الغنية ، ثمناً لوفائه لله ولرسوله ، رغم ما كان يحيط به من فقر مدقع شديد . . ولقد ظل الزبير يرتقى فى مدارج الإخلاص والتأسى والثبات ، حتى بلغ ما بلغ من فضل . . وبالرغم من كل ذلك ، فانه اليوم يرى بيعة على كرم الله وجهه دون الصديق ، إرضاء لما يحسه فى أعماقه من صواب رأيه ، دون النظر إلى أى اعتبار آخر . . وفى ذلك ما فيه من تجلى الحرية الفردية فى أوسع حدودها وأسمى معانيها . . ليس ذلك فحسب ، بل إن الزبير قد أقسم ألا يغمد سيفه حتى يبايع عليـــا ، بالرغم من اتجاه على نفسه إلى المسجد الجامع ليبايع الصديق على ملأ المؤمنين ، وليذكر أمامهم بعض أفضاله التى خفى خطرها على الزبير

نفسه فى هذه الغمرة الهائلة . . وليعلن ولاءه الأكيد للخليفة الأعظم فى كلمات يشع منها نور الصدق وحرارة الإيمان . . فلما ألح الصديق على المسلمين لإعفائه ثلاثة أيام متتابعة ، نهض على من بينهم وهو يقول : والله لا نقيلك ولا نستقيلك أبدا ، قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتوحيد ديننا ، من ذا الذى يؤخرك لتوجيه دنيانا . . ؟ !

ولقد عرف المسلمون للزبير صدق نيته وطهر هواه ، بالرغم من كل ذلك فأبروا له قسمه ، وأخذ بعضهم منه السيف فضرب به الجدار فداء ليمينه ، كما أشار بذلك الفاروق رضى الله عنه . . ومنذ هذه اللحظة عادت إلى الزبير سكينته ، فأسرع إلى أبى بكر على الفور فبايعه ، وهو رضى النفس ، قرير العين ، ثابت الفؤاد . . ! !

هكذا . . كان أمر الخلافة ميداناً رائعاً من ميادين السمو بالأجيال إلى سماء الهداية وعنان التحرر والرشاد ، فقد ألقى عليها دروس القوة والصدق ، ونفخ فيها روح الحرية والثبات ، بل هكذا أضاف عبدالله ابن الزبير إلى معارفه تلك الحقيقة السامية ، ليستعين بها على شق طريقه نحو المجد فى مستقبل أيامه ، كما شقه أبوه من قبله منذ حين . . وليصدق فيه قول رسول الله فى كل موضع : إنه ابن أبيه ! !

ولقد أكدت الحوادث أن العناية الإلهية هى التى اختارت الصديق ليخلف رسول الله فى أمته خلال محنتها المضاعفة ، وأنها هى التى نظمت عقد الخلافة من بعده ، لتوزع على المؤمنين مؤونة الرشاد والهداية من معين الخلفاء الأربعة فى عهودهم المتعاقبة ، توزيعاً عادلا حكيما ، اختلطت فيه حكمة الزعامة بحكمة ظروفها ومقتضياتها ، فجمعت بذلك كل أشتات الخير المرتبط بأسبابه وأهدافه . .

وهكذا بدت للناس أضواء تلكم الحقيقة العظمى ، بتولية رسول الله لأبى بكر على أمر الصلاة وهى عماد الدين وعموده . . وكأن رسول الله حين اختاره للأمر العظيم ، أراد ألا ينازعه أحد سلطانه العظيم ، فأعلن غضبه عندما تقدم الفاروق مرة للصلاة بالناس فى غيبة أبى بكر ، وقال صلى الله عليه وسلم قولته الشديدة لزوجه الطاهرة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق نفسها ، عندما رجته إعفاء أبيها من تلك المهمة الكبرى لفرط تأثره فى الصلاة بين يدى الله . وشدة بكائه من خلال آيات الله وهو يقرأ القرآن . . لقد قال صلى الله عليه وسلم لها ولمن حولها وهو غاضب : « إنكن صويحبات يوسف . . مروا أبا بكر فليصل بالناس » ! !

حقاً . . لقد خفيت على الناس بواطن أبى بكر على مدى حقيقتها وقوتها ، بل لقد خفيت هذه البواطن على خاصته من أهل بيته ، لفرط رحمته المتجلية على مظاهره . . ولهم العذر فيما رأوه لأن رسول الله كان لا يزال بين أظهرهم ، يسبى العيون بأنواره الباهرة القاهرة . . ومن ثم فالذى يعلم حقيقة الرجال هو صانع الرجال . . فهو العليم بهم ، وبما انطوت عليه نفوسهم . . ولقد علم رسول الله حقيقة الصديق بين المؤمنين يوم أن قدمه وترك أمره للزمن نفسه ، ليكشف الغطاء عن خطره العظيم فى بقاء الإسلام ، وعن أثره الخطير فى حياة الأبطال فى شتى الأجيال . . ولقد كان عبد الله بن الزبير أحد أولئك الأبطال العظام . .

٢٤ — دروس القوة . .

من خلال سنتين وعدة أشهر ، هى فى مجموعها عمر خلافة

الصديق ، استكمل عبد الله بن الزبير كل أسباب البطولة ومقتضياتها ، فبرز الغلام بين صفوف المجاهدين كالزهرة العبقة الفياحة فى شجرة الجهاد الضخمة الباسقة ، يزكم الأنوف شذاها العطر القوى المنتشر ، رغم دقتها بين الزهور والرياحين . .

إنه لا يعدو الثانية عشرة وبضعة أشهر ، ولكنه تخطى حدود الفطرة ، فبدا بطلا مغوارا فى صورة غلام صغير . . ! !

لقد كانت خلافة جده الصديق منذ أول يوم تولى فيه أمر المسلمين ، فتحاً جديداً فى عالم الفتح المبين ، غزا سلطانه كل نفس ، وتسربت قوته إلى كل قلب ، فأشعلت نيران الشجاعة والإقدام فى الصغير قبل الكبير . . وغدا الخليفة المعروف بوداعته ورحمته فى عهد رسول الله ، مصدر قوة أهل القوة ، ومنبع بلاء أهل البلاء . . وانعكست على محياه الوديع أضواء الرهبة ، فبدا للناس صورة للشكيمة ، ورمزاً للبأس الشديد . .

أحاطت الشدائد بصحابة رسول الله ، ونفذ سهم الخوف إلى قلوبهم فارتجت أوصالهم حيال الفتنة السوداء المفزعة ، وامتلأت نفوسهم بالإشفاق على الدعوة من مصيرها المشئوم ، حين تمثلت أمامهم قوى العـــرب الرهيبة المحتشدة للقضاء على التراث وأهل التراث . . وماج بعضهم فى بعض ، يرجو خلاص الدين من محنته بأى ثمن مستطاع ، بعد أن انكمشت أطراف دولته إلى المدينة ومكة والطائف وعبد القيس . . تحت ضغط الكفر والارتداد . . وتقدم أهل الشورى من وجوه المؤمنين وأقويائهم إلى الصديق ليثنوه عن عزمه الخطير ، ويشيروا عليه بمهادنة القوم ، بقبول شروطهم فى

التجاوز عن الزكاة ، حتى يكتمل المسلمون عدتهم لإخضاعهم والقضاء على أدعياء النبوة بينهم . . ولكن أبا بكر ثار فى وجوههم ثورة لا عهد لأحدهم بمثلها من قبل ، ووقف بينهم كالأسد الهصور أو الوحش المخيف ، يملى عليهم أمره العظيم برفض العرض ، مهما بلغ بهم الخيال فى تصور العاقبة ، وقال على ملئهم قولته الخالدة :

– والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه . . والله لو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى ، حتى يحكم الله بينى وبينهم وهو خير الحاكمين . . والله لو خالفتنى شمالى لقطعتها بيمينى . . ! !

وأراد الفاروق أن يخفف من غضب أبى بكر بعض الشىء فقال :

– يا خليفة رسول الله . . تألف الناس وارفق بهم ، فانهم بمنزلة الوحش الكاسر . .

فالتفت إليه الصديق ، ومد يده إلى لحيته وجذبه منها جذبة شديدة مؤلمة ، وقال له :

– رجوت نصرك وجئتنى بخذلانك ! ! أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ! ؟ بماذا عسيت أن أتألفهم ؟ بشعر مفتعل ؟ ؟ أو بسحر مفترى ؟؟ هيهات هيهات ، مضى النبى صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحى ، والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى ، وإن منعونى عقالا . . ! !

* * *

بتلك الروح الفريدة فى قوتها ، البالغة فى خطورتها وسطوتها ، قبض الخليفة الأعظم على زمام الموقف وحده ، وسيطر على ناصية

الأمور كلها . . فصغرت بجانب شجاعته وإقدامه قوة الأقوياء من سيوف الإسلام ودعاة الحق ، فسار الجميع فى ركابه طائعين خاضعين مختارين . .

وبدت لعبد الله بن الزبير من أفق الحياة الدافقة والاستعداد العظيم ، أضواء الأمل تنير له طريق جهاده المبكر بسيفه مع المجاهدين ، فقد رأى بعينى رأسه كيف استغنى جده الصديق فى تلك الظروف الشديدة عن أكبر قوة حربية منظمة ، تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل ، هم عداد جيش أسامة من عيون صحابة رسول الله لحرب الروم فى فى أطراف الجزيرة . . لقد أبى الصديق القوى الأمين إلا أن يوجه الجيش الكبير إلى وجهته خارج حدود الدولة ، تنفيذاً لأمر رسول الله قبل موته ، رغم الأخطار المحيطة بالإسلام نفسه ، وعاصمة الإسلام نفسها ، إن أبا بكر يرى أن طاعة الرسول ميتاً كطاعته حياً ، لأن أمره من أمر الله ، الذى يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . .

ومن خلال أيام ، استجاب أنصار الله لدعوة الصديق من كل صوب ، فأقبلت كتائب الحق تشق طريقها نحو المدينة ، لتضع أرواحها بين يدى الخليفة الأعظم ، ليتصرف بها حيث يشاء .

وتقدم غلمان الصحابة ليؤدوا واجبهم العسكرى مضاعفاً لأول مرة فى تاريخ الحرب الإسلامية ، فحفروا الخنادق مع الرجال حول المدينة ، واعتلوا الأبراج الشاهقة لمراقبة طرق البادية ورصد حركات القبائل المتمردة ، وقد بدت طلائعها تقترب من العاصمة المقدسة لغزوها واستباحة حرماتها . . وتجرد عبد الله بن الزبير سيفه على ظهر جواده ليتحدى بسنه المبكرة قوى الأقوياء من أهل البأس والإقدام ،

وأخذ يجوب المنشآت الدفاعية والعسكرية بفرسه الجموح جيئة وروحة ، ويتوغل فى جوف الصحراء الممتدة شرقاً وغرباً ، ويتخلل دروبها الملتوية ذهاباً وإياباً ، وهو يود لو أصاب لأعداء الله عينا أو رصداً فيرديه بسيفه ، أو يعود به مغلول الإسار إلى قائده الأكبر وجده الصديق . .

ودوى نفير الزحف ، فأوى كل مجاهد إلى مكانه من الصفوف المتراصة ، وأبى الصديق إلا أن يسير معها رغم صد الصحابة له عن الخروج ، فكان إقدامه المهيب لخوض أول معركة ضد المرتدين ، هو القوة الدافعة ، التى ملأت قلوب المؤمنين يقينا بالنصر ، ولو كان أعداء الله ملء الأرض جميعاً . .

ووقعت الواقعة الأولى مع قبائل غطفان الجبارة على غير بعيد من المدينة ، فأنزل الله بأعدائه نقمته ، وأحل بهم سخطه على يد الصديق . . وجعلهم فى غمرتهم حيارى من هول البأس الشديد والعذاب الأليم . . ومن ثم عادوا إلى حظيرة الطاعة راضين خاضعين . . وتسربت الأنباء إلى أهل الردة فى أنحاء الجزيرة ، فعلموا أنه الموت ، فتجمعوا لحرب الفناء . . مخافة الفناء . . ! !

وعسكر جيش المسلمين فى ميدان النصر الأول بأرض غطفان ، بينما عاد الخليفة إلى المدينة ، لينظم كتائب الجهاد ، وليرسل الواحدة منها تلو الأخرى إلى منطقة الاحتشاد قبل الزحف العام ، حتى تهيأت قوات الحق ، واكتمل تعدادها بعودة جيش أسلمة من حرب الروم عشرة آلاف مقاتل .. ثم أصدر الصديق أوامره بتقسيم القوات إلى أحد عشر جيشا ، وولى عليها خيرة القواد وخيار الصناديد ،

ووجههم لملاقاة الأعداء فى شتى الميادين ، بعد أن زود كل جيش – على حدة – بإرشاداته الحكيمة الملهمة ، كل حسب وجهته وطبيعة ميدانه . .

وأسرع عبد الله بن الزبير إلى منطقة الاحتشاد ، ليشهد سير الجيوش إلى ميادين الحرب ، وليستمع إلى خطاب جده لقواده وجنده قبل الزحف ، ليستلهم العبر ، وليغذى الروح ، وليتعلم دروس القتال . . لعل الحظ القريب أن يسعده والفرصة تواتيه . .

وسارت كتائب الحق نحو أعدائها ، تسوى بالأرض صروحهم ، وتفرق فى الفلوات جموعهم . . وأخذت سيوف الإيمان تطيح برؤوس الكفر وأتباعهم دون هوادة أو لين . . وجعلت الأخبار تتوالى على المدينة إثر بعضها ، فتقر لها عين الصديق ، فيضاعف التعبئة لاتساع الميادين وكثرة المتمردين ، حتى بلغ عداد الجيش الإسلامى فى شتى المعارك عشرين ألفا أو يزيدون . .

ومن خلال أحد عشر شهرا شهدت الجزيرة الدرس العظيم الذى ألقاه خليفة رسول الله على أعداء الله ، ليكون العبرة الصارخة لأهل الباطل ، ولو كانوا ملء الأرض كلها ، وكان بعضهم لبعض ظهيرا . . ! !

أحد عشر شهراً . . استطاعت روح الصديق من خلالها أن تبرز للناس جميعاً جلال الإيمان وقوة اليقين ، وأن تصنع للأحداث رجالها المنصورين وأجنادها الغالبين ، ومن ثم . . لم ير قواد الصديق لأنفسهم منذ اليوم الأول فضلا فى النصر بجانب أفضال خليفة رسول الله .

لقد سار المسلمون أول ما ساروا ، وهم يعلمون خطورة الميادين ،

لا فى ابتلاع جيوشهم فحسب ، وإنما فى القضاء على كلمة التوحيد فى الأرض . . ولكن روح أبى بكر قد سيطرت على النفوس ، فحولت القلة إلى كثرة ، والضعف إلى قوة ، والخوف إلى استبسال وإقدام ، وهنا أيدت إرادة الله إرادة الصديق ، فتحكمت فى الميدان كلمة الإيمان ، فلم ينته قتال المرتدين باندحارهم ، وقتل طواغيتهم ، والسيطرة الشاملة على مشارق الجزيرة ومغاربها خلف حدود فارس والروم فحسب ، وإنما انتهى لتبدأ من بعده موجة الفتح المبين فى مشارق الأرض ومغاربها . . لقد أبى الصديق إلا أن يواصل جهاده للقضاء على ملك فارس والروم كله ، حتى لا يبقى على وجه الأرض غير سلطان واحد ، هو سلطان المسلمين . . ترى هل آن الأوان ليلمع نجم عبد الله ابن الزبير فى أفق البطولة الإسلامية ، وهو غلام لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره بعد . ! ! ؟

أجل . . لقد آن الآوان . ! !

٢٥ – الفارس الصغير

وقف عبد الله بن الزبير إلى باب المسجد وسط الجموع الكثيرة التى جاءت لتتنسم الأخبار عما يقره اجتماع مجلس شورى الخليفة الأعظم ، حول إعلان الحرب على كسرى الفرس ، وقيصر والروم . . إن النفوس التى ملأها نصر الله قوة وعزة ، لتتوقد اليوم شوقاً إلى محو معالم الباطل من فوق الأرض ، وإنها لتذكر موقف كسرى من كتاب رسول الله حينما بعثه إليه ليسلم وجهه لله ، فما كان من الطاغية إلا أن مزق الكتاب علواً واستخفافاً ، فدعا عليه الرسول حينذاك بقوله : « مزق الله ملكه . . ! ! » . وإنها لتذكر مع ذلك بشرى

رسول الله لها قبل صعوده بامتلاك أرض فارس وأرض الروم . .
وها هى ذى الفرصة قد دنت ، لتحقق الأمر الخطير والمجد الكبير . .

وانفض الاجتماع ، وقد علت هامة الصديق أنوار الرضى ، فانطلقت أسارير وجهه ، كأنما ظفر بالتأييد المطلق فيما عرضه وابتغاه . .

وسمع المسلمون خارج المسجد صوت على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو يبتسم إلى الخليفة ويقول :

– إنك مبارك الرأى ، ميمون النقيبة ، فإنك إن سرت إليهم أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله . .

وارتفعت أصوات المسلمين خارج المسجد بالتهليل والتكبير ، وأسرع كل رجل إلى بيته ليخبره بالنبأ العظيم ، وليعد العدة لخوض غمار الحرب المقدسة لتحطيم أكبر امبراطوريتين تقتسمان العالم وتتحكمان فى مصير الكون . .

وأسرع عبد الله بن الزبير إلى أبيه وهو خارج من المسجد وسط أهل الشورى ، فتأبط ذراعه فى الطريق إلى البيت ، وأخذ يتوسل إليه بغية السماح له فى الاشتراك فى الحملة . . وظل الغلام يرجو أباه حتى أخضعه لرغبته تحت ضغط الإصرار والبكاء . . فنزل الوالد عند إرادة الغلام ومبتغاه ، ووعده باستئذان الخليفة لإجازه وإنفاذه . .

وتحرك الجيش من المدينة فى اتجاه بلاد الفرس ، فى الوقت الذى بعث فيه الخليفة إلى قواده عند حدود الشام بابتداء الزحف على أرض الروم . . وأخذ أنصار الله يدكون فى طريقهم كل قوة فى الميدانين الخطيرين ، اللذين اتحدا بعد طول شقاق ، لمواجهة الفناء الأكبر على أيدى المسلمين . .

ولقد علم قواد الخليفة فى قتالهم أعداء الله أن روح الصديق ما زالت تسيطر على سماء المعارك ، وتتحكم فى زمام المواقع ، فلم تردهم عقبة ، ولم تثنهم كثرة . . واعتقدوا أن النصر هو نصر الله ، وأنهم هم أهل طاعته وتقواه ، فلم يشكوا لحظة فى الغلبة والفوز ، ماداموا على عهد الله قائمين ، وبرسالته مبشرين ومنذرين . . حتى إن خالد ابن الوليد ، ترك الميدان مرة — وهو القائد المسئول — وذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، والائتناس ببيت الله الحرام ، ثم عاد دون أن يعلم بأمره أحد ! !

وبلغ الخليفة الخبر وهو مزمع على توليته قيادة جيوش اليرموك ، وأمره بسحب بعض قواته من أرض الفرس لخوض أرهب معركة مع الأعداء فى ميدان الروم ، فبعث إليه كتابه الخالد وفيه يحذره من أن يعود لمثل ما فعل . . فقال :

— سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ، فانهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل مافعلت ، فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولن ينزع الشجى من الناس نزعك ، فليهنك أبا سليمان النية والحظوة ، فأتمم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل ، فإن الله له المن وهو ولى الجـــزاء . .

وواتت الفرصة عبد الله بن الزبير ، فسار فى ركاب أبيه إلى المعركة الفاصلة الرهيبة ، لتشهد الإنسانية على امتداد الزمن وتوالى السنين ، كيف يصنع الإسلام المعجزات فى تنشئة الأبطـــال وتربية الأجيـــال . ! !

ودقت ساعة الخطر ، لتواجه قوات خالد بن الوليد ، فى أربعين ألف مقاتل ، قوات العدو فى مائتى ألف من الروم ، يملكون من السلاح ما لا عهد للمسلمين بمثله من قبل . . وفوق ذلك ، فإن قواد الروم قد حفروا الخنادق الكبرى من وراء جيوشهم وسلسلوا قواتهم بسلاسل الحديد ، حتى لا يفر من الميدان جندى واحد من جنودهم . ! ! وفوق ذلك وذلك ، فقد جاء الرهبان والقساوسة ، يحملون « الأناجيل » والصلبان ، ليبعثوا فى الروم حرارة القتال والبأس الشديد ، دفاعا عن مجد الرومان ، وذوداً عن « تراث » المسيح ..! !

وقبل أن تشتعل نيران الحرب الضروس فى معركة الفناء ، سيطرت روح الصديق فى سماء المعركة مرة أخرى تلوح برايات النصر والفوز المبين . . واستجابت لها جنبات الوادى تردد فى الفضاء المزدحم هتافات المسلمين وخطب قوادهم المثيرة قبل لقاء العدو بلحظات . .

وقبل أن يبدأ السكون لاستقبال جحافل الروم أمر خالد ، المقداد ابن الأسود ، ليقرأ بصوته الجهورى الرصين سورة الأنفال ، وبعد ذلك ، وقف على صهوة جواده ليخطب جنده فقال :

ـ أيها الناس : هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم ، لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها . .

وقبل أن يستوى القائد العام على فرسه ، استأذنه عمرو بن العاص فى إلقاء كلمته بين جنوده . . فأذن له ، فقال :

ـ غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ،

فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة ، فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد ، فوالذى يرضى الصدق ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ويجزى بالإحسان إحسانا . . لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا وقصرا قصرا ، فلاتهولنكم جموعهم ولاعددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير أولاد الحجول . . ! !

ودقت ساعة الخطر ، وأقبل الأعداء فى قضهم وقضيضهم ، وخيلائهم وفخرهم ، يحادون الله ويهزأون من أنصاره . . وخاف صحابة رسول الله على سلامة الجيش أمام سيل العدو الجارف ، فأسرع بعضهم إلى الزبير بن العوام فى مقدمة الفرسان فقالوا : ألا تشد فنشد معك ، واستجاب الزبير لنداء العزة ، فشد على أعداء الله ، وشد من خلفه الفرسان ، ووثب المسلمون من خلفهم وثبة الأسد على قطيع من الغزلان . . فأزاحوهم عن الوادى ، وسدوا عليهم المسالك بروؤس الأسنة من كل جانب ، وأرغموهم على تسلق أعالى الجبال الشاهقة ، وسلوك سبلها المفرقة المضلة ، بحثاً عن النجاة ولا نجاة . .

وشهد الميدان فى غمرته الهائلة ، معجزة الإيمان فى قلب ابن الزبير . . لقد أبى الغلام وقد واتته الفرصة الثمينة فى جهاد أعداء الله ، إلا أن يشارك أباه ركوب فرسه ، لضرب رؤوس الكفر وجنود الشياطين . . وتحرك قلب الزبير ، فأبى إلا أن يجيب نداء ولده فى ساعة البأس ، وأن يحب له ما كان يحب لنفسه — وهو غلام حدث — من الذود عن دين الله بيده أو بسيفه . . ومن ثم أردف غلامه أمامه فوق جواده الأصيل ، ليغرقه فى بحر القتال إلى ذقنه ، لتقر عينه ويسكن قلبه . . وتقدم الزبير إلى مكانه فى الصف الأول بين الفرسان ، وترك لروحه العنان فى مخالطة الأعداء — كما هو شأنه فى كل ميدان —

وأخذ الفارس الصغير ينافس الفارس الكبير فى ضرب الرقاب وقطع الرؤوس ، وتشتيت أكداس العدو المكتظة فى ساحة المعركة . . وظل الفارسان يتوغلان فى صفوف العدو وحدهما على هذه الحال الرهيبة . . حتى خرجا من الناحية الأخرى من كتلة الروم المتراصة . . ومن ثم ، عادا من نفس الطريق وبنفس الأسلوب المعجز فى تاريخ الحروب . . ! !

لقد كان الزبير وابنه عبد الله بمثابة جيش خطير ، أذهل الأعداء عن القتال ، وفت عضدهم عن النضال ، وأرغمهم على الفرار من الميدان ، إشفاقا من وخيم العاقبة وسوء المصير . .

ولم تكن إلا لحظات ، حتى أيقن أعداء الله أنهم يواجهون الفناء ، وأن فرارهم من القضاء قد صار فى حكم المستحيل . . وهكذا أحاطتهم جيوش الحق من كل جانب ، وأسلموهم للهوة السحيقة من فوق الجبل الشامخ ، فتحطمت فى الوادى العميق أوصالهم ، وتمزقت على المنحدر المسنون أشلاؤهم ، وغدت لحوم ثمانين ألف رومى — فى ساعة واحدة — نهبا لجوارح الطير ، وغذاء للكلاب والذئاب . .

وعاد عبد الله بن الزبير مع أبيه إلى المدينة بعد الفتح المبين ، تسبقهما أخبار بلائهما الصادق إلى العاصمة المقدسة، فتجاوبت لها أرجاؤها إعظاما وإجلالا وخلودا . .

ومن خلال الطريق تفقد عبد الله جراحة أبيه فى عنقه ، فهاله عظمها وعمقها . . ولكن الزبير نظر إليه وهو يبتسم وقال :

— هون عليك أيها الفارس الصغير . . فلسوف تبرأ جراحتى ، لتصير ملهاة لإخوتك ، كما كان غيرها ملهاة لك من قبل . . ! !

أجل . . ملهاة وأى ملهاة . . لقد كانت المدرسة التى خرجت أبطال الوغى ، فاستطاعوا الوصول إلى درجة الإعجاز فى أول معركة ! !

٢٦ ـ خاتمة كتاب . .

انتهت موقعة اليرموك بأحسم نصر أحرزه المسلمون على جحافل أعدائهم فى ميدان الروم . . وطار فى الآفاق على أثرها صدى البطولة الخارقة فى سجل عبد الله بن الزبير . . وهل خلد تاريخ الشعوب ، كلها صورة لبطولة غلام صغير فى ميدان الحرب مثل ما خلده تاريخ المسلمين لابن الزبير ، وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره إلا قليلا ! ؟ ؟

أجل . . إنه غلام صغير ، قد أدى من الكفاح ما كان يعجز عن أدائه الكثير من أبطال الرجال . . حتى غدا الصورة النادرة التى لا تجود بمثلها الأقدار إلا بين الحين والحين . .

ويشاء القدر أن يختم بتلكم الموقعة بإعجازها الخالد ، كتاب الصديق رضى الله عنه وأن يجعلها النقطة اللامعة فى سلسلة الانتصارات الحاسمة التى خلدتها حروب الخليفة الأعظم لمحو معالم الشرك والوثنية من فوق الأرض ، وإنزال رايات الأكاسرة والقياصرة من عليائها راية بعد راية . ! ! فبينما كانت معركة اليرموك على أشدها ، كانت سكرات الموت تغالب أبا بكر ، لتنتقل به فى سرعة من دار الفناء إلى دار البقاء . .

ويعلم الله وحده ماذا كانت النتيجة لو أن جيش الخليفة قد وافاه نبأ القضاء المحتوم وهو يحارب فى قلته تلكم القوى الخطيرة بعتادها الذى لا عهد للمسلمين بمثله من قبل . . ولكن الإيمان بالله وحده ،

والإخلاص له دون سواه . . هما اللذان أحاطا بالموقف كله ، وسيطر على القائدين الكبيرين ، أبى عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد . . فلم يبديا للجند شيئا ، وكأن أمراً من الأمور لم يقع ! !

لقد وصل كتاب الخليفة الجديد بالنبأ المفزع ، وفيه أمر الفاروق عمر بن الخطاب فوراً ، بانتزاع سلطة القيادة العامة من خالد وإعطائها لأبى عبيدة مرة أخرى ، لأنه كان قد بلغه أن الناس لغطوا فى أمر الانتصارات الخارقة ، التى أحرزها المسلمون على يديه منذ ولاه الصديق ، فخاف عليهم الفتنة به ، وأراد أن يذكرهم – حتى فى هذه اللحظة الخطيرة من تاريخهم – بأن النصر من عند الله لا من عند خالد ! ! بالرغم من قول الرسول فيه « إنه سيف مسلول من سيوف الله » ! ! وبالرغم من تولية الصديق له على جيوش المسلمين كلها فى أرض الروم ، لخوض غمار أخطر المعارك فى أخطر الميادين ، وكتابته إلى أبى عبيدة بن الجراح – أمين الأمة ، وعميد قواد المسلمين بالشام قبل خالد – يأمره بأمره حيث قال : « سلام عليك ، أما بعد : فقد وليت خالداً قتال العدو فى الشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع ، فإنى لم أبعثه عليك أن لا تكون عندى خيراً منه ، ولكنى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك . . أراد الله بنا وبك خيراً والسلام » .

إن كل هذه الاعتبارات الخالدة فى سيرة خالد ، لم تضعف من عزيمته مثقال ذرة واحدة ، حين تلقى الأمر ، ولكنه رفعه فوق هامته وقال على الفور : « سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين . . والله لو ولى على الفاروق امرأة لسمعت وأطعت ! ! » لقد كان همه الوحيد هو إعلاء كلمة الله فى الأرض ، ونيل ثواب المجاهدين فى سبيله ، سواء أكان هو القائد أم كان آخر جندى فى الصفوف ! ! لقد كانت

هذه عقيدته منذ اليوم الأول لاختياره قائداً عاماً لجيوش الإسلام ، فكان أول مافعل قبل أن يسير بجنده من ميدان الحيرة فى بلاد فارس ، إلى ميدان اليرموك فى بلاد الروم ، أن كتب إلى أبى عبيدة يقول له : « سلام عليك . أما بعد ، فقد أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالسير إلى الشام ، وبالقيام على جندها ، والتولى لأمرها ، والله ماطلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك الذى كنت عليه ، لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمرا ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك . . » !!

بمثل تلكم الروح الإسلامية العالية ، عالج القائدان الكريمان الموقف الدقيق فى أحرج ساعة ، فكتما الخبر عن الجيش كله من خلال معركة الفناء ، حتى كتب الله لجنده النصر المبين والفوز العظيم .. وهكذا وصلت أنباء النصر الحاسم إلى عاصمة الإسلام الدامعة الباكية .. فخفف بعض الشىء من هول النازلة الكبرى . .

وعاد الزبير وابنه عبد الله ، وعاد معهما بعض وجوه القواد والأجناد إلى المدينة ، ليخففوا عن أنفسهم ألم الفراق ولوعة الأسى عند قبر الصديق ، وليشاركوا — باسم الجيش — مدينة الرسول حدادها فى خضم المصيبة الفاجعة . .

ووصل عبد الله مكلوم الفؤاد ، محزون النفس ، سقيم البدن ، وأسرع يجر أقدامه المتثاقلة المكدودة إلى بيت خالته عائشة أم المؤمنين فى صحبة أمه أسماء ذات النطاقين . . وقف الغلام بجوار أمه أمام ضريح جده ، يذرف الدمع السخين ، حتى نضب معينه من مآقيه ، فبدت عين الغلام من فرط الاحمرار كالسراج الضعيف قد قارب حد

الانطفاء ، فما يكاد يبصر من حوله إلا السواد الضارب فى كل ناحية ، وكأنه حزن الدنيا كلها قد تجمع فى عينيه الذابلتين ليعلن كلمة الوفاء فى ساحة الفراق . .

ويمر الناس من خلال اليوم فى طريقهم إلى المسجد للصلاة من جوار الضريح ، فيسمعون أنين عبد الله وبكاءه المثير . . فينعكس على الجميع رداء حالك متجدد من الحزن والأسى . . ويظل الحال كذلك أياما وأياما ، وعبد الله لا يغادر بيت عائشة ، حتى كادت روحه أن تزهق من فرط الكمد عند قبر جده الرحيم بجوار قبر خليله الأكبر ، الذى ما زال فراقه الأليم يهد فى أوصاله هو الآخر رغم مرور الأعوام والشهور . . وتقف خالته نفسها من ورائه تخفف عنه الوقع ما استطاعت ، وتذكره بقول جده للمسلمين عند مصيبتهم العظمى بفقد رسول الله « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ثم تتلو عليه الآية : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين . . » ثم تنثر عليه من رياض الصبر ما يعيد إليه عبير الحياة ونسائم الرضا ، بما كان وبما يكون . . ثم لا تزال به حتى تهدأ نفسه فيعود إلى ثباته وهدوئه من جديد . .

وبقى عبد الله فى دار أم المؤمنين ، ما شاء الله له أن يبقى لا يغادرها ، فقد صارت داراً لذكرياته التى لا تفارقه ، لأنها ذكريات البعث الذى جعل من حياته صورة للاعجاز الخالد والبطولة الخالدة ، ولأنها تحوى الضريحين المقدسين ، ضريح رسول الله الذى أنشأه نشأة

القوة والإقدام ، وضريب جده الذى فتح له باب الجهاد على مصراعيه ، فضرب فيه بالسهم الوافر من أول الطريق . .

ومرت أيام هدأت بعدها حدة الصدمة عند آل الصديق ، فتشوق عبد الله إلى أن يستوعب من مآثر جده ما غاب عنه وهو فى أرض الروم ، لأنه يعلم أن تاريخ الصديق هو عنوان المجد الذى يسير على هداه أبطال الجهاد الخالص لإعلاء كلمة الله ورسوله . . فأخذ الغلام يسأل خالته وهى تجيبه بتبسط وإسهاب . . لقد ذكرت له ما قاله الصديق لها وهو على فراش الموت : « يا بنية ، إن أحب الناس غنى إلى بعدى أنت ، وإن أعز الناس فقراً على بعدى أنت ، وإنى كنت نحلتك أرضى التى تعلمين ، وأنا أحب أن ترديها على فيكون ذلك قسمة بين ولدى على كتاب الله ، فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك وأختاك . . » ! !

وهنا علت الدهشة وجه عبد الله فسألها :

ـ وهل لك يا أم المؤمنين إلا أخوان اثنان ـ بعد صعود أخيك عبد الله ـ وأخت واحدة هى أمى أسماء ! ؟

ـ لقد فهمت من جدك أن حمل زوجته حبيبة بنت خارجة هو أنثى ، مع أن أمرها لا يزال سراً فى ضمير الغيب ! !

ـ أليس سر ما فى الأرحام هو من أمر الله وحده يا أماه !؟

ـ أجل يا عبد الله . . ولكنى أذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا فى ملكوت السموات . . » ولقد علم الله مكانة جدك عنده ،

فأطلعه على بعض غيبه ، وأكرمه بأن يوصى بالحق لأهله ، وإن كانوا أجنة فى بطون الأمهات ، ليس ذلك فحسب ، فمن يدرى ؟ ؟ لعل الله يريد أن يبلغ الصديق مبتغاه بعد صعوده إلى منازل الأبرار فى أعلى الجنات ، فتلد زوجته حبيبة أختا لنا ، فتشب وتنمو وتترعرع ، وتكون شريكة لحياة طلحة بن عبيد الله فى مستقبل الأعوام ، فقد كان جدك يتمنى مصاهرته بإحدى بناته ، وفاء لعقيدته ، ورمزاً لصدقه فى الإيمان على يديه ، كما كان الحال مع أبيك الزبير ، يوم زوجه جدك بأمك ، وكان أبوك لا يملك من حطام الدنيا ديناراً ولا درهما ، وإنما كان يملك مفتاح السعادة فى الدارين . . تقوى الله والفناء فى سبيله ، أجل من يدرى ! ؟ ولكنى أحس بان أحلام الصديقين ، هى حقيقة الواقع فى حياة الكون ! !

وتشعب الحديث بين الغلام وخالته حول مآثر الصديق فى ساعته الأخيرة ، فذكرت له كيف أبرأ الخليفة الأعظم ذمته من كل ما يراه حقاً فى عنقه حيث قال : « ياعائشة ، إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهما ، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وليس عندنا من مال المسلمين قليل ولا كثير ، إلا هذا العبد الحبشى وهذا البعير الناضح ، وجرد هذه القطيفة ، فإذا مت فابعثى بهن إلى عمر ، وأبرئى ذمتى منهن » .. ! !

ثم انتهى حديث عائشة بذكر قول الصديق لها وهو يجود بآخر أنفاسه : « ياعائشة ، ادفنونى بجوار رسول الله » وهنالك اشتد

الكرب على الخليفة وهو يعالج سكرات الموت ، فاستبد الفزع بأم المؤمنين ، فأخذت تبكى وهى تقول :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

عند ذاك ، استفاق الخليفة على قولها ، وبدا فى وجهه الغضب فقال : « ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولكن : قولى « وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » . . ثم أسلم الصديق روحه لله وهو يقول : « رب ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

بتلكم الخاتمة الخالدة . . استوعب عبد الله بن الزبير كل ما فاته من مآثر جده ، ليجعل منها جميعها مثله الأعلى فى مواصلة الطريق نحو المجد الذى سجلته له يد القدرة فى عالم الغيب ، وأخذت تميط عنه اللثام قليلا قليلا . .

٢٧ – ابن أبيه . .

ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه خلافة المسلمين بعد الصديق ، فعظمت مهابة الناس له ، حتى أشفقوا على أنفسهم من حدته وصولته .. وإذا كان الفاروق قد عرف بالشدة ، حتى فى عهد رسول الله وعهد خليفته الأول ، فماذا يكون شأنه ، وقد صار الأمر كله فى قبضته ؟؟

لقد رآه المسلمون منذ اليوم الأول كالبركان الثائر ، لكثرة ما احتواه جوفه من العوامل والانفعالات : فهاهى ذى التركة المثقلة

بالأعباء الجسام والأحمال العظام قد تسلمها من الخليفة الراحل ، فلم يستطع معها النوم ساعة كاملة بالليل أو النهار . . إن جيوش المسلمين العديدة لرابضة اليوم فى جهات عريضة من أرض العدو ، لم يسبق فى تاريخ الحروب لغير المسلمين أن يقتحموا مثلها أبدا ، وهى تنتظر أمر الخليفة الجديد ، وتضع أرواحها بين يديه ، يصرفها حيث يشاء ، وأجرها واقع على الله ، وتبعتها واقعة على عمر ! !

وأخذ إشفاق المسلمين على أنفسهم يتحول فى سرعة ، حتى صار إشفاقا على أميرهم ، فكان الجهاد عند ضعفائهم أو مرضاهم ، أهون عليهم من البقاء ، حتى لا يروا عمر وهو يتململ من المسئولية تململ السليم جيئة وذهابا ، وينتفض من فرط الهموم انتفاض المهموم بكرة وأصيلا . . وهو فوق ذلك قد حمل أعباء المجاهدين جميعاً ، فخلفهم فى بيوتهم وأهليهم وأمور معاشهم . . ألا إنها أعباء أمة بأسرها ، قد حملها الفاروق وحده . . فأنى له أن يستريح طرفة عين ! !

وخلت المدينة من كل قادر على حمل السلاح إثر دفن الصديق ، فقد أنشأ الفاروق جيشاً جديداً لإمداد قواته بميدان الفرس لاستئناف القتال ، ولم يبق بجواره إلا حامية صغيرة ، وإلا بضعة نفر من أهل الرأى والمشورة . .

هكذا كان حال المدينة يوم أن عاد إليها عبد الله بن الزبير مع أبيه بعد موقعة اليرموك فى ميدان الروم ، ليخفف عن نفسه — وقع صدمته فى وفاة جده الصديق ، بالمثول أمام مثواه الطاهر الذى احتواه منذ شهر أو يزيد قليلا . .

ولم يمض قليل حتى برئت جراحة الزبير فى عنقه بعض الشيء فلم يستطع البقاء فى ظل الراحة ، بينما جيوش الإسلام تواجه الأهوال والأخطار فى اكتساحها لأعظم امبراطوريتين فى وقت واحد . .

ولم يسع الفاروق إلا أن يجيب رجاءه ، فأذن له فى العودة إلى ميدان الشام ، على أن يبقى ابنه عبد الله بجوار أمه وإخوته الصغار . . وهكذا بقى الغلام على الرغم منه ، وإن كان فى بقائه بعض التفريج عن أمه وخالته عائشة ، فقد كان عبد الله أشبه الناس بأبى بكر ! !

ولم يكن البقاء بالأمر الهين على عبد الله وقد ذاق حلاوة الجهاد فى صفوف الرجال . . ومن ثم أحس بالضيق يملأ جناحيه ، فكان يسرى عن نفسه بالاجتماع بغلمان المسلمين كل يوم ، يحدثهم عن الحرب ، ويطرق آذانهم بسحر القتال فى سبيل الله ، ويذكر لهم ما رآه فى الميدان من آيات القوة وعجائب الرجولة . .

وتمر الأيام فيزداد عدد الغلمان فى نادى ابن الزبير ، وقد انبعثت فى أعماقهم روح الفتوة البريئة ، ولمعت فى آفاقهم أضواء المستقبل المأمول ، وكأنهم قد رأوا أنفسهم من خلاله ، وقد صاروا رجالا يلعبون دور البطولة على صرح الحياة ! !

وسمع أمير المؤمنين بأمر عبد الله ، فأحب أن يمر بناديه لتقر عينه بأشبال دولته ، وليسرى عن نفسه بعض الهموم بالنظر إلى هذه الصور اللامعة فى صفحات المستقبل الباسم القريب . .

وبينما هو يقترب من الغلمان فى ندوتهم ، إذ ملكتهم عوامل المهابة منه ، فبدأوا يتفرقون من حول ابن الزبير فردا فردا ، حتى

صار الغلام وحيدا ، فلم يتحرك ولم يتأثر ، وكأن أمير المؤمنين فى نظره لا يعدو فرداً عادياً فى عداد الناس . :

ووقف الفاروق المهيب أمام ابن الزبير ليعجم عوده وليختبر إيمانه ، فسأله :

— « لم لم تفر كما فر إخوانك ؟؟ » فأجابه الغلام على الفور بقوله :

— « ليست الطريق ضيقة فأوسع لك ، ولم أكن مذنباً فأخاف منك » ! !

وهنا ابتسم له الفاروق وربت على كتفيه — وكان قليل الابتسام من فرط همومه — وقال : « صدق رسول الله ، إنه ابن أبيه ! ! » .

٢٨ — تقلص الظلام . .

أخذت أنباء النصر الحاسم تتوالى على المدينة بين آونة وأخرى ، وأخذت أفواج المحاربين تفد فى إجازاتها الحربية ، التى نظمها أمير المؤمنين لمن يرغب فى رؤية أهله بعد مرور ستة أشهر عليه فى ميدان القتال ، فاهتزت أركان العاصمة المقدسة بما يرويه جنود الحق من صفحات الفخار المتتابعة ، وما يحملونه إلى الفاروق من غنائم الفرس ، والروم،وقد خلفها أعداء الله وراءهم وهم يجدون فى الفرار ، وقد ألقوا سلاحهم وراياتهم تحت أقدام المسلمين الفاتحين .

واشتد ساعد لأنصار الله على أثر نصره ، فشددوا ضغطهم على كل الجبهات فى الامبراطوريتين المنهارتين ، فظفروا برأس كسرى ورأس قيصر ، ورؤوس أجنادهما العظام ، وغنموا قصورهم وأموالهم

وأبناءهم ، ونشروا كلمة التوحيد والعدالة فى الأرض التى طالما حملت أثقال الشرك والطغيان آلاف السنين . .

ودار الفلك دورة من دوراته الطوال ووقف المسلمون عند منتهى حدود الشام ، بعد أن تقلص ظل الروم عنها بانسحابهم إلى مصر حيث تتجمع فلولهم الناجية من براثن الموت . . وخاف قواد المسلمين خطر العدو الرابض خلف حدود دولتهم الجديدة فى أغنى ممتلكات الروم وأمنع أراضيهم . . فكتب عمرو بن العاص إلى الفاروق يستأذنه فى فتح مصر ، فأذن له . .

وسار عمرو على رأس أربعة آلاف مقاتل ، كانوا جميعاً من الفرسان المدربين ، الذين خبرهم فى حرب فلسطين تحت رايته وقيادته.. وما أن بلغ « رفح » فى طريقه إلى « العريش » حتى رأى جنده فى حاجة إلى الراحة بعد اختراق الصحراء الحارة الواسعة . . فحط رحاله بعض الوقت - خضوعا لتعليمات الخليفة إليه بألا يرهق رجاله فى الأسفار . . وقبل أن يستأنف سيره ، أدركته رسل الفاروق تحمل إليه تعليمات جديدة ، فلم يرض القائد أن يتسلم الكتاب مخافة أن يكون فيه ما يضطره إلى الرجوع من حيث أتى ، وقد صار على قاب قوسين من الاقتحام على العدو ! ! . فسار بالجيش حتى اقترب من « العريش » وعبر واديها ، ثم تناول الكتاب ففضه ، فوجده كما كان يحس تماما . . لقد أمره عمر فى كتابه « بأن يعود إلى مقره ، ويعدل عن تنفيذ خطته إذا كان لا يزال فى أرض فلسطين ، أما إذا اجتازها ودخل مصر ، فليمض فى سبيله على بركة الله . . »

ودارت المعارك حامية الوطيس ، حيث استمات الروم فى الدفاع عن كل شبر ، ولكن مضاء المسلمين ضيق الخناق على جحافلهم ، فارتدوا وراء حصونهم المنيعة ، ووقفوا خلف أسوارها الضخمة العاتية . . ووقف عمرو لا يستطيع المضى بجيشه الصغير ، فطلب المدد من أمير المؤمنين : :

وأرسل له الفاروق أربعة آلاف مقاتل من قوات المسلمين بالشام ، وعلى رأسهم الزبير بن العوام فارس رسول الله ، كما بعث إليه بكتاب يقول فيه : « إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل رجل منهم مقام الألف ، الزبير بن العوام ، والمقداد ابن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد . . واعلم أن معك إثنا عشر ألفا ، ولن يغلب إثنا عشر ألفا من قلة » ! !

وطال بجيش عمرو المكث فى أرض مصر دون أن تصل أنباء الفتح إلى الفاروق ، فغضب لذلك أشد الغضب ، فكتب إلى عمرو يقول له : « أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف ، إلا أن يكون غيرهم ما غيرهم ، فإذا أتاك كتابى ، فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ، ورغبهم فى الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة فى صدور الناس ، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال

يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها ، ووقت للإجابة ، وليعج الناس إلى الله ، ويسألوه النصر على عدوهم . . »

واستمع المسلمون إلى خطبة عمرو ، وقد امتلأوا شجاعة فوق شجاعة ، وإقداماً فوق إقدام ، وإيمانا بنصر الله لا يعتوره شك ، فتجمعوا حول الحصن المنيع وقد احتمى خلفه أعداء الله سبعة أشهر كاملة . . وبرز الزبير بن العوام من بين الفرسان ، وقد وضع فوق رأسه عمامته الحمراء ، فتسلق جداره الشاهق وحده ، وقد وهب نفسه لله ، واستقر رأيه على إلقاء نفسه بين جحافل الروم داخل الحصن ليفتح بابه أو يموت ! !

ولم تكن إلا لحظات ، حتّى جلجل الفضاء فى سكون الليل بصوت فارس رسول الله من أعلى الأبراج وهو يصيح من أعماقه . . الله أكبر . . الله أكبر . . واستفاق الروم من سكرات الفزع على قفزة جريئة مروعة ، قفزها ابن العوام بسيفه بينهم ، فدارت معركة رهيبة ، أزاح فيها الزبير وحده كتل الأعداء المسلحة عن باب الحصن وفتحه للمسلمين . . فدخلوه ليطهروا الأرض الطيبة شبرا شبرا من رجس الطغاة ، وليحرروا وادى النيل السعيد من عسف العتاة . .

وهكذا تحققت فراسة الفاروق فى أقدار الرجال . . ومعايير الرجولة والإيمان . .

وهكذا طابت المدينة نفساً بالنصر الحاسم ، الذى سطره الزبير وحده ، وكان فيه أقوى من ألف رجل . . بل من آلاف الرجال . .

ومن يدرى . . لعل الزبير قد مهد السبيل بعمله الجرىء لابنه عبد الله ، ليصل إلى ذروة المجد فى سجل الخالدين بعد سنوات قلائل . .

فلولا فتح مصر ودخولها فى حوزة الإسلام ، لما تيسر للمسلمين أن يبسطوا سلطانهم على إفريقية كلها . . ولكن إرادة الله شاءت أن يبزغ فى سماء إفريقية نجم لامع ، يخطف الأبصار لفرط سنائه ولألائه . . هذا النجم هو نجم عبد الله بن الزبير . .

٢٩ — وقفة . . ! !

أذن المؤذن لصلاة الجمعة ، وقد تزاحم الناس بالمناكب لأداء الفريضة خلف أمير المؤمنين ، وليستمعوا إلى خطبته الجامعة التى كثيرا ما يشير فيها الفاروق إلى ظروف الدولة فى أيامها الحاضرة ، وإلى ما بلغته الجيوش الفاتحة من نتائج حاسمة فى أرض كسرى وقيصر ، وعلى الأخص ما يشغل الأذهان منها فى جنوب البحر الأبيض حيث انتهى عمرو بن العاص من دك حصون الروم ، فى مصر والسودان وبرقة وطرابلس ، وهو ما يزال يطلب الإذن تلو الإذن من الخليفة ليواصل طريقه فى الزحف على إفريقيه كلها ، حتى يبلغ بالاستيلاء عليها أقصى المغارب قرب ساحل المحيط . .

إن آمال المسلمين لتتسع آفاقها كل يوم على نغمات النصر وأصداء الفتح ، وأصبحوا ولاهم لهم إلا أن تعم كلمة التوحيد أقطار الدنيا كلها ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . وإنهم لينتظرون اليوم نبأ جديدا ، فهاهم أولاء قد رأوا أن مجلس الشورى كان منعقداً بالأمس ، وما كان لينعقد إلا لأمر جديد خطير . . وإنهم ليذكرون أن أمير المؤمنين قد خالف رأى قائده عمرو بن العاص فى مواصلة الزحف على إفريقيه ، حين كتب إليه يقول « إنها ليست إفريقية ،

ولـكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت » !!
وإنهم ليأملون أن يعلن الفاروق اليوم أمراً آخر ، تقربه القلوب المتوثبة
إلى المجـــد والعلياء . .

وصعد الفاروق منبر الرسول ، وقد ساد الصمت جوانب المسجد ،
وعم السكون أرجاءه الفسيحة ، وأخذ يلقى خطابه فى نبرات خاشعة
هادئة ، لم يألفوها منه من قبل ، وراح يذكر الآخرة ونعيمها ،
وكأنه يودع الدنيا ويوصى أمته بآخر وصاياه ، ليقتفوا الأثر ويواصلوا
الطريق . .

وبينما الناس فى خشوعهم الرهيب منصتين ، إذا بالفاروق يغير
مجرى حديثه ويفصح لهم عما يحسه فى أعماقه من اقتراب أجله فيقول :
« أيها الناس ، رأيت رؤيا لا أراها إلا بحضور أجـلى ، رأيت كأن
ديكا نقرنى نقرتين ، فقصصتها على أسماء بنت عميس امرأة أبى بكر ،
فقالت « يقتلك رجل من العجم » !! ثم أشار إلى ما كان من أمر
اجتماعه بمجلس شوراه بالأمس فقال : « وإن الناس يأمروننى أن
استخلف ، وإن الله عز وجل لم يكن ليضيع دينه وخلافته التى بعث
بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإن تعجل بى أمر ، فإن الشورى بين
هؤلاء الستة الذين مات نبى الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ،
فمن بايعتم منهم فاسمعوا له وأطيعوا . . » ثم ذكر عليا بن أبى طالب ،
وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد
ابن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . .

وانقضت الصلاة وتفرق الناس ، وما يظن أحدهم أن تأويل

الرؤيا يبلغ هذا الحد فى مصير أمير المؤمنين ، اللهم إلا أن يكون شهيداً فى ساحة الجهاد بأرض فارس ! !

ومرت أربعة أيام ، والناس مذهولون من أمر الرؤيا ، ومترقبون للجمعة التالية حتى تهدأ نفوسهم بالصلاة خلف الفاروق مرة أخرى ، فينقشع ظل القلق الذى يساور الأفئدة على حياته الغالية وعهده السعيد الميمون . .

وجاء اليوم الخامس ليبدأ ساعاته الأولى بأكبر الخطوب وأجل الأحداث ، فيتقدم أبو لؤلؤة – المجوسى – غلام المغيرة بن شعبة بخنجره المسموم ، فيطعن أمير المؤمنين فى الظلام طعناته القاتلة ، وهو قائم يصلى بالناس صلاة الفجر . .

وعلى هذا النحو الأليم تحققت الرؤيا الصادقة ، وانتهت حياة عمر بن الخطاب ، الذى أزال من الوجود ملك الأكاسرة والقياصرة ، وبسط سلطانه العظيم على المشارق والمغارب ، واستطاع أن يقبض بكلتا يديه على يراع الدهر نفسه ، ليسطر فى سجل الخلود صحيفة البقاء والنقاء . . وبهذه البساطة الساخرة استشهد أقوى الأقوياء بيد أضعف الضعفاء فى عاصمة الملك العريق ، بيد غلام حدث لم يحل طيشه وحقده الدفين فى أعماقه – وهو موتور على ضياع ملك فارس – دون أن يعيش بين المسلمين كأحدهم ، مادام يحتمى وراء كلمة الإسلام ويتمسح فى أثواب الموحدين ! !

لقد تجلى فى هذه المأساة الدامية عنوان الحقيقة التى كان يخافها الفاروق العظيم على أمته ، حين تهتم بامتلاك البلاد أكثر من اهتمامها

بتدعيم أركان الفتح بإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى أنوار الهداية والإيمان ، فأراد أن يوقف موجة الغزو بعد أن أضاف إلى دولة الإســلام بعد الصديق أربعة عشر ولاية كانت تكفر بأنعم الله قبل فتحهـا ، وكان فى إمكانه أن يضم الخامسة عشرة ، لولا ما يخشاه على مصير الفتوحات ما لم يعطها الفاتحون حقها من الرعاية والتقويم . . حتى لـكأنه رضى الله عنه كان يرى بعينى رأسه قرب منيته بصورتها المؤلمة ، فأرادها درساً صامتاً لمـا كان يحسه فى أعماقه يوم عارض قائده عمرو فى مواصلة الزحف على إفريقية وقال « لا يغزوها أحد ما بقيت » ! !

وهكذا شاء الله أن تصل رقعة الفتح الإسلامى إلى ما بلغته فى عهد الفاروق ؛ ليتولى توسعتها من بعده خليفة جديد ، يقفو أثره ، ويسير على سنته ، ويحس بأحاسيسه . . بل وهكذا شاء الله أن تتوزع مقاليد العظمة بين الخلفاء ، وأن تسير موجة الفتح فى طريقها المـكتوب على صحائف الغيب ، بأيد جديدة وأبطال آخرين . .

٣٠ – بطل افريقية . .

تسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه أعباء الخلافة ، فاطمأنت الأمصار على اجتماع الكلمة عليه ، واستقر ميزان الدولة بعد أن هزه وقع الصدمة بمصرع الفاروق . .

وراح الخليفة الجديد يدعم كيان دولته ، ويجرى ما يراه من تعديلات فى قيادة الجيوش وحكام الأمصار ، لمواجهة المستقبل

الغامض ، ولمواصلة سبيل صاحبيه أبى بكر وعمر من قبله، فى إعلاء كلمة الله ، ورفع ألوية الحق على ربوع العالمين . :

ومرت الأيام سراعا ، وقد استكمل عثمان أهبته لفتح إفريقية ، فانطلقت رسله فى المدينة وما حولها يعلنون النبأ ، ويدعون الناس إلى موافاة أميرهم بمسجد الرسول : :

وأقبل الناس من كل صوب يملأون الطرقات زمراً ووحدانا ، فى طريقهم إلى بيت الله ، ولم تكن إلا ساعة حتى ضاقت أرض المسجد بجحافل المؤمنين ، وامتلأت الطرقات بأحشاد الوفود المتلاحقة كالسيل ليس له انقطاع . .

وصعد أمير المؤمنين منبر الرسول فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، إنكم أصبحتم بدار لا يصلح فيها التوانى ، وقد رأيتم عمر بن الخطاب وما فتح الله على يديه من الشام وبلاد الأعجام وأرض مصر ، وكان أهل هذه البلاد أشد قوة وأكثر عددا ، وأحسن سلاحا ، وأغزر مالا . . وفتحها الله على عباده بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه ، وأنا أرجو الله أن يفتح عليكم ويظفركم بها ، ويعينكم عليها ، وقد كتبت إلى عامل مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وعهدت إليه أن يحسن صحبتكم ، وأن يرفق بكم ، وأن يكون عند عهدى وأمرى إن شاء الله . . ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . . فسيروا رحمكم الله . »

وخرجت أحشاد المؤمنين تشق طريقها عبر الصحراء صوب مصر ، وتجمع بين صفوفها كبراء الصحابة والمهاجرين الأول ،

وتضم بين حناياها صناديد الحرب ، الذين أبلوا فى مختلف الميادين أصدق البلاء . .

وبقى عثمان على منصته العالية ، يضرع إلى الله وهو يودع جيشه الكبير ، ويوزع نظراته الحانية على فرقه المنتشرة بين الوهاد المبعثرة ، حتى إذا ما كادت تغيب عن بصره الحاد عند الأفق البعيد . . أخذ يهتف من أعماقه وهو يقول :

— اللهم رب السماء وما أظلت ، ورب الأرض وما أقلت ، والريح وما ذرت ، والنجوم وما هوت ، والبحار وما جرت ، والشياطين وما أضلت . . بارك لنا فى جنود الحق . .

وعاد الخليفة الوقور إلى دار الخلافة ، وفى نفسه ما فيها من عوامل الخوف والإشفاق من المصير المجهول . . إنه ليعلم خطورة الميدان الجديد ، حيث تتجمع قوى الروم كلها ، للقضاء على جيوش الإسلام بأى ثمن . . وقد صارت الحرب حرب حياة أو فناء . .

ألا ما أعظم ما يخشاه الخليفة على جيوشه فى حرب ضروس ، مجهولة العواقب . . وفى أرض موحشة ، وعرة المسالك ، شديدة المخاطر . . ! !

لقد كان الخليفة بعيد النظر ، حين استبقى إلى جواره بالمدينة قوة أخرى ، لتكون ردءاً لقواته المحاربة فى الميدان الخطير ، وجعل عمادها شباب الجيل الجديد ، وفى مقدمتهم عبدالله بن الزبير ، الفارس المرموق ، الذى أخذ صيته بين الشجعان يدوى كعواصف الرعود فى كبد السماء ، منذرة أعداء الله بسيل منهمر من الإبادة والدمار . . وإن الخليفة ليدرك حاجة قائده فى مثل هذا الميدان الرهيب إلى النجدات

تلو النجدات ، لمواجهة جحافل الأعداء فى أقصى الأرض . . وإنه ليدرك فوق ذلك - وهو المحارب القديم - مقدار ما يتطلبه الميدان بين حين وآخر ، من نوابغ وصناديد ، تعيد إلى الجيوش فى ساعة العسرة حرارة الصدق والنضال ، وتجدد فى صفوفها عزائم الإقدام والاستبسال . .

وهكذا استبقى الخليفة الموفق ، عبد الله بن الزبير إلى جواره للفرصة القادمة ، رغم علمه بما يتحرق به البطل الشاب من نيران الشوق إلى لقاء الأعداء . . بل وهكذا صبر عبد الله على البقاء بالمدينة كارهاً راضياً ، وهو يأمل أن تكون الساعة قريبا . .

ومرت الأيام بطيئة وئيدة تجر أقدامها الثقيلة على صفحة الشهور . . وقد تلاقى من خلالها جيش عبد الله بن أبى سرح فى قلته الضئيلة ، مع جيوش الروم فى كثرتها الغاشمة ، فدارت الحرب الطاحنة بين قوتين متباينتين عدة وعددا ، وسالت على أرض الميدان الملتهب دماء المقاتلين من الفريقين أنهارا . . واشتد ثبات المسلمين رغم كثرة الخسائر وفداحة النوازل ، ورغم ما رأوه من علامات الثقة المنتشرة بين جنود الروم بالنصر المبين ، هذه الثقة ، التى صورها « جرجير » ملك إفريقيه الرومى ، فى رده على قائد المسلمين قبل النزال - عندما خيره ابن أبى السرح بين الإسلام أو الجزية أو القتال ، حيث قال الطاغية :

- القتال لا بأس . . لأرينكم من صنوف الحرب ، ما لم تروه عند غيرى . » ! !

وفى هذه اللحظات الخطيرة ، التى دفع المؤمنون من خلالها ثمن ثباتهم غاليا من الأرواح والدماء ، أبى « جرجير » إلا أن ينزل إلى ميدان المعركة بنفسه ليتولى قيادة جنده ، خوفاً من أن يتطور ثبات المسلمين إلى هجوم لا تؤمن عواقبه على مصير الروم فى أحلك الساعات وأدق الظروف . .

وأبطأت على عثمان أنباء الحرب ، فظن الهلاك قد أحاط بجيشه من كل جانب ، فأسرع إلى بعث المدد الذى انتهى من جهازه ، وجعل على رأسه حفيد الصديق ، وابن فارس رسول الله . .

وانطلق عبد الله بن الزبير بجيشه الصغير ، ينهب الأرض ، وكأنه الأسد الجائع قد فك عقاله من ذل الأسر . . فلقد مكنته الفرصة من بلوغ مراده وأكثر من مراده . . إنه اليوم ليس جنديا كما كان يتمنى فحسب ، ولكنه صار قائدا من القواد المبرزين ، الذين تعول عليهم الدولة أكبر آمالها فى أدق ظروفها . .

ووصل الفارس المرموق ساحة الميدان الرهيب ، فرأى الهول يبسط جناحيه على سماء المعركة الفاصلة ، وبرز له من خلال الوطيس الحامى رجحان كفة الأعداء وشدة بأسهم ، فطفق يجوس بفرسه من خلال صفوف المسلمين الأمامية ، عساه أن يلتقى فوراً بابن أبى سرح ، ليقدم له نفسه ، وليضع قوته بين يديه ، ولكنه لم يعثر له على أثر ، فسأل عنه رؤوس الأجناد ، فأعلموه بمكانه وراء مؤخرة الجيش !

واستفسر ابن الزبير عن سر الأمر الخطير ، فعلم أن « جرجير » قد أمر مناديه منذ ليال ، فنادى وسط الروم حيث قال :

— من قتل ابن أبى السرح ، فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى .

ومن ثم فهم ابن الزبير ، أن قواد المسلمين قد أشاروا على قائدهم الأكبر بالتأخر عن المقدمة ! !

هنالك ، صاح حفيد الصديق صيحة الغضب ، وقد استعظم أمر القائد المسئول حين يترك مكانه المعلوم – فى مقدمة الصفوف – فى وقت عظمت فيه المصيبة ، واشتد البلاء ، وامتلأت ساحة الميدان بجثث الشهداء وأشلائهم . . وراح يجرى كالمجنون إلى خيمة قائد المسلمين ، ليثنيه عن الرأى الضعيف السقيم . . ! !

وكان اللقاء عنيفاً حاراً ، تجلت فيه حماسة البطل الشاب ، فأثارت حمية القائد العام من جديد : :

لقد قال له ابن الزبير وهو يغلى كالمرجل :

– أمن أجل ما نادى به « جرجير » يصير هذا مكانك من صفوف جندك وأنت الرائد ؟؟ .

– هذا ما أشار به مجلس الحرب ، إبقاء على الروح .

– ليس ذلك بالرأى الصائب فى هذا الموطن . . ولقد علمنا أن استشهاد القواد فى ساحة الجهاد ، لا تزيد جند الله إلا شدة فى البأس ، واستباقا إلى الشهادة والجنة . .

– وماذا ترى يا ابن الزبير ؟؟

– أرى أن تنادى الليلة بما نادى به « جرجير » فتعلن على ملأ جندك أن من قتل « جرجير » نفلته أنت مائة ألف دينار وزوجته ابنته ! !

واشتدت عزيمة المسلمين بعودة القائد إلى مكانه ، واندفاع ابن الزبير كالسهم النافذ إلى صفوف العدو بشدة لم يسبق لها مثيل

فى الميدان مذ تقابل الجيشان . . واشتدت على الأثر هجمات الروم بلا راحة ولا انقطاع ، وقد تسرب إلى صفوفهم نداء القائد الإسلامى إلى جنود الإسلام لقتل « جرجير » .

وطال أمد الحرب فكانت سجالا . . واختلى ابن الزبير بقائد المسلمين ، وأسر إليه خطة رأى أن ينفذها بنفسه ، وطلب منه قوة بسيطة من رؤوس الأجناد ليحموا ظهره وهو يؤديها . . فلم يستطع ابن أبى السرح إلا أن يقره على ما أراد ، وهو يتعجب لأمره أشد العجب ، ويشفق من مصيره غاية الإشفاق . . ولم يسعه إلا أن يقول :

– حقاً . . إنك ابن أبيك . . ! !

وجاءت الساعة المعلومة . . وقد أخذ الجيشان فى الانصراف إلى معسكراتهم ذات يوم شديد الحر عظيم البأس . . وما يظن الروم أن أمرا ذا خطر سيقع بعد تفرق الجيشين المتلاحمين على عادة الميدان فى الظهيرة خلال أيامه الأخيرة . .

. . لقد بقى عبد الله بن الزبير على صهوة جواده ، وبيده سيفه اللامع ، ومن ورائه شرذمة قليلة من الفرسان . . وقد أخذوا يتركون لخيلهم الأعنة ، مسرعين إلى مؤخرة جيش الأعداء وهو ينسحب إلى معسكراته المنتشرة فى أقصى الميدان – وقد علت أصوات الروم بأناشيد النصر – والدائرة يومئذ له لا عليه . .

وفجأة نظر الأعداء إلى الخلف على وقع سنابك خيل ابن الزبير ورفقائه ، فأسرعوا إلى أخذ الأهبة لاستئصالهم . . ولكن ابن الزبير أشار إلى أعوانه من خلفه بالبطء . بينما أخذ هو يشق طريقه فى سرعة نحو جحافل الروم غير هياب ولا وجل .. ! !

وأفسح الأعداء للفارس العظيم هيبة وتوقيرا ، وقد جمدت أيديهم على أسلحتهم دون حركة ، فقد ظنوه رسولا من قائد المسلمين إلى قائد الروم ، يطلب الهدنة أو يرجو الصلح والأمان ! !

ونفذ عبد الله كالسهم وهو يشق جنود الروم الطغاة نحو ملكهم « جرجير » وسار من خلفه أعوانه فى قلتهم المتواضعة ، وما كاد يصل ابن الزبير إلى الطاغية الجبار — وهو يترنح عجبا على أصوات الأناشيد التى أخذت تعلو بحرارة النصر من أفواه جنده — حتى بادره حفيد الصديق بسيفه فأطاح برأسه عن جسده فهوت على الأرض . . وأخذ يهتف من أعماقه وبأعلى صوته . . الله أكبر . . الله أكبر ، وظل هو وأعوانه يضربون هامات الروم من حولهم ، حتى أبعدوهم عن ساحة الملك المذبوح .

وتحرك جيش المسلمين فى سرعة ، فأحاط بالروم من كل جانب ، وراحت سواعد الحق تحصد أعناق الباطل حصدا ، وتسطر بسيف العزة مصير القوم الذين كذبوا بآيات الله وما نزل من الحق .

وتقدم عبد الله بن الزبير إلى ساحة القتلى بعد النصر المبين فغرس سيفه فى رأس « جرجير » وحملها به . . وسار إلى خيمة ابن أبى السرح يستأذن فى السفر فوراً إلى عاصمة الإسلام ، لإبلاغ الخليفة أنباء الفتح تنفيذاً لأمره إليه يوم غادر المدينة .

وأخذ ابن أبى السرح يلح على ابن الزبير فى قبول ولاية إفريقية والقيام على أمرها ، ولكنه أبى إلا أن يترفع عن الولاية ، مؤثراً سبيل الجهاد الخالص لإعلاء كلمة الله .

وسار حفيد الصديق نحو المدينة يحمل من ورائه خمس الغنائم إلى عثمان فكانت مليونا من الدنانير .

وأذن مؤذن عثمان فى الآفاق ، يبشر بين الربوع أنباء الفتح ، وأقبلت على المدينة أحشاد الوفود من كل فج ، لتزف التهنئة إلى العاصمة .

وامتلأ المسجد الجامع على سعته ، وضاقت بالناس الطرقات المحيطة ببيت الله ، وعم السكون كل الأرجاء ، حين قام عثمان فنادى :

– أيها الناس . . إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها إن شاء الله .

وصعد البطل الفاتح إلى منبر الرسول لأول مرة فى حياته ، ليقص على الأسماع قصة البطولة والخلود . . وليشهد الدنيا بأسرها ، كيف يكون الطريق إلى المجد العريق .

٣١ – بطل الدار . .

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا »

تنزيل حكيم من لدن عليم خبير ، ليحذر المؤمنون خطر اليهود فى كل زمان ومكان ، فما أشد ما أضمره أولئك اللئام لدين الله مذ نبتت شجرة الإسلام على وجه الأرض ، وما أكثر ما انتهزوه من الفرص لاستئصال جذوره مذ دعا إليه خير داع وأكرم رسول .

ولئن قد صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ،

فإن ذلك لن يثنى اليهود عن عزمهم لانتهاج كل سبيلَ للفتنة والفساد فى الأرض التى أورثها الله عباده الصالحين .

أسلم عبد الله بن سبأ ، وكان رأسا كبيرا من رؤوس اليهود فى صنعاء ، وكان فى إمكانه أن يبقى على دينه آمنا مطمئنا ، كما بقى غيره راضياً مختاراً فى ظل العدالة المطلقة تحت سماء الإسلام، ولكنه أسلم إسلام الحاقد الضعيف ، لتسلم خطته فى إشعال نار الفتن فى الخفاء ، تحت ستار الدين وفى ظل العقيدة ! !

وأخذ الرجل يتسلل إلى كل واد وإلى كل ناد فى أرض المسلمين ، ولا يشك أحد فى اتجاهاته ونزعاته ، بل إن أهل الإسلام ليوقرونه أعظم توقير ، فهو أحد علماء اليهود الذين انقلبوا فصاروا من علماء الدين الحنيف ! ! وانطلق ابن سبأ — وقد أحاطته ثقة الناس — كالشيطان يلبس مسوح الرهبان ، ليوغر الصدور ويثير الشكوك ، ويبذر بذور الشقاق بين رؤوس المسلمين ! !

لقد جرأه الأمان المطلق فى أرض السلام على أن يبدأ حركته فى أرض الحجاز نفسها ، حيث يتربع عليها خليفة المسلمين ، فراح يوسوس فى صدور الناس ليوغرها على عثمان رضى الله عنه ، فلما عجز عن مراده ، ورأى التفاف المسلمين حول أميرهم الوقور ، انتقل إلى البصرة ونفث فيها بعض سمومه ، ثم إلى الكوفة ، ثم إلى الشام حيث فطن إلى خطره أميرها معاوية بن أبى سفيان ، فأخرجه منها ، فسار إلى مصر فألفى فيها تربة خصبة لآرائه وضلالاته .

وكان شيطان الإنس بعيد النظر — شأن صاحب الفكرة يريد لها الذيوع والانتشار — فهو يعلم أن الإسلام سر قوة المسلمين وسر

وحدتهم . . وإذن فليتخذ الإسلام نفسه سلماً لدعوته ، وليتخذ من الدعوة إليه طريقه إلى الهدم والتدمير . .

كان يجلس وسط الحلقة من الناس، فيعظموه ويجلوه ويضعوه موضع العلماء المخلصين فى نواديهم، ويقبلون عليه بنفوس متعطشة إلى العلم والمعرفة ، فيضع لهم السم فى الدسم . .

قال مرة لجلسائه : « لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد . . » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى » ! !

لقد تعجب الناس من تأويل الآية ، فمنهم من راعه حسن بيانه فظن أن الحق ما يقول ، ومنهم من خالفه وعلم أنه يدخل فى الدين ما ليس منه ، وما لم يقل به أحد قبله من المسلمين . .

وما أخطر ما يجره الخلاف حول هذه المسائل بين العامة حين يستكثر البعض من البعض أن يروا أن عيسى يرجع ، وأن محمداً لا يرجع وهو أحق بالرجوع منه ! ! ولو لم يكن فى دين الله ما يؤيد أهواءهم الضالة وآراءهم الطائشة . .

إن ابن سبأ يعلم أن حب المسلمين لرسولهم هو معيار الإيمان بالله ، وإذن فليضف إلى ساحة هذا الإيمان أضاليله باسم حب رسول الله ليستسيغ ضعفاء العقول هضمها وهضم غيرها على مر السنين ، وليصير هو بعد ذلك أحد « المجتهدين » ذوى النفوذ الروحى ، ولو فى أضيق الدوائر وأضعفها ، ليتسنى له الوصول إلى غايته الحاقدة الدنيئة . .

ورأى شيطان الإنس هيبة الخلافة الراشدة توحد بين صفوف

المسلمين حول ألوية العزة والسلطان ، على قلب رجل واحد لمواصلة طريق الجهاد ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . فعمل على ألا تفوته فرصة فى إذكاء نار العداوة والبغضاء بين جماعات المؤمنين ، وتأليب من استطاع تأليبه منهم على الخليفة ، لأن ذلك هو الطريق إلى تأليبهم على الدين نفسه ، وذلك بيت القصيد ! !

لقد التقى مرة بمحمد بن أبى بكر فى مصر وكان فى طريقه إلى إفريقية مع جند الخليفة لحرب قسطنطين ملك الروم فى موقعة ذات الصوارى البحرية ، فأراد أن يستغل وفاء الشاب وحبه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الحقد على عثمان رضى الله عنه والثورة عليه .. فهو يعلم أن ابن أبى بكر قد تربى فى كنف ابن أبى طالب منذ كان رضيعا فى حجر أمه من يوم أن بنى بها على بعد وفاة الصديق رضى الله عنه ، لقد قال له عدو الله فيما قال :

— إنه كان ألف نبى ، ولكل نبى وصى ، وكان على وصى محمد ، ومحمد خاتم الأنبياء . . وعلى خاتم الأوصياء .. ! !

ومرت الأعوام ، وما يدرى أحد أن الفتنة تشق طريقها ، لتؤلب غوغاء مصر وغيرها على الخليفة العظيم الذى ما زالت الدولة الإسلامية الكبرى ترفل فى أثواب المجد التى ما زال ينسجه لها بيديه الكريمتين سنة بعد أخرى . . بل ما يظن أحد أن مصر بالذات — وهى قلعة النصر التى ما زالت تتدفق عليها أفواج المجاهدين من شتى بلاد الإسلام فى طريقهم إلى ساحات الجهاد فى البر والبحر إعلاء لكلمة الله وانتصاراً لدينه ، والتفافاً حول راية عثمان — سيكون منها من يدين بتعاليم ابن سبأ فى القضاء على ثالث الخلفاء الراشدين . ! !

وأين عبد الله بن أبى السرح من هذه الفتنة وهو حاكم مصر ، وقائد جيوش المسلمين فى إفريقية كلها !؟ بل أين هو ، وهو أخو عثمان من الرضاعة ! ؟ إنه هو الآخر لا يعلم عن المؤامرة الدنيئة قليلا ولا كثيرا ، ولو كان قد علم لما أبقى على وجه الأرض من أعداء الله أحدا . . إنه مشغول بأعظم حرب فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، فهو يقف بأسطوله المتواضع على أمواج البحر الأبيض ليواجه ملك الروم نفسه على رأس جمع لم يجتمع للروم مثله من قبل ، لخوض حرب أخيرة ضد المسلمين فى البحر يمحو بها عار الهزيمة المنكرة التى سقى جيش عثمان كئوسها المرة لأكبر حشد رومى دب بقدمه على أرض إفريقية . .

لقد ظن « قسطنطين » ألا قدرة للمسلمين على ركوب أهوال البحر ، فضلا عن القتال فوق أمواجه الثائرة العاتية ، والصمود أمام أساطيل الروم القوية الغاشمة . . وفاته أن أنصار الله منذ قامت دعوتهم يقاتلون بسلاح الإيمان قبل كل سلاح ، فهو أقوى أسلحتهم وأمضاها ضد أعدائهم ، وقد وهبه الله لهم دون غيرهم . .

ودارت أشد المعارك فى تاريخ الحروب ، وصبر من خلالها جند محمد صلى الله عليه وسلم صبراً ما صبروه فى موطن آخر ، بالرغم من كثرة الضحايا ووفرة الخسائر . . وسيطرت روح عثمان على سماء الميدان فكان النصر حليفاً لجيشه ، فتضعضع أمامه جيش قسطنطين . . وهناك التفت حول أعداء الله كتائب الحق فى عرض البحر ، فقتلوا قوادهم وأجنادهم ، وحطموا سفنهم وعتادهم ، وغمروا صفحة الماء بدماء طغاتهم وقتلاهم . . وخلصوا إلى قسطنطين نفسه ، فأثخنوه ضرباً

وجراحاً ، ولم ينج من القتل إلا بأعجوبة الأعاجيب .. ففر بجراحاته القاتلة ، ليكون لمن خلفه فى العالمين عبرة واعتباراً . .

وعاد عبد الله بن أبى السرح إلى مصر بعد النصر العظيم ، ليرى ما لم يكن فى حسبانه ، لقد اشتد أمر الفتنة ، وبرزت أعناقها طويلة تحمل رؤوس شياطين مردة قد أظهروا تمردهم على الخليفة المنصور فقد خلا الجو لابن سبأ وأعوانه فترة عظيمة من الزمان انشغل من خلالها أنصار الله بأعباء الفتح وحلاوة الجهاد . . ورأى ابن أبى السرح أن يأخذ أعداء الدين بالحزم والشدة ، وأن يحملهم على الطريق حملا . . ولكن ضلالهم كان أعظم من أن يستقيم ، فلجأ إلى القبض على رؤوسهم ، وكم كان فزعه حين رأى مؤامرة قتل الخليفة نفسه تدبر داخل السجن !! فما كان منه إلا أن هوى بسيفه على رأس الجاهر بالإثم، ليكون عبرة لمن معه ولمن خلفه ممن تحدثهم النفس بالانتقاض على الخلافة الراشدة . . وهناك انتهز السبئيون فرصة قتل رأس من رؤوسهم ، فرفعوا راية العصيان فى أوسع نطاق . . ودب دبيب العصيان بين المفتونين فى سائر الأقطار ، فأشاعوا الفتن بين العامة ، وأحدثوا القلاقل فى البلاد ، وجهروا بالفساد والإفساد ، حتى رموا ولاة عثمان بالظلم ، ونعتوا ابن أبى السرح بالكفر والنفاق ، بل واستباحوا دمه بين أنصارهم وقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أباح دمه يوم فتح مكة قبل أن يبايعه ويعفو عنه .. !!

إن السبئيين لن يعدموا « سبباً » فى سبيل غايتهم الدنيئة . . وإذن

فليبدأوا طريقهم بالعمل على خلع عثمان أو طلب دمه لو هو أصر على إبقاء ابن أبى السرح والياً على مصر ! !

* * *

وفوجئت المدينة بحشد كبير ، قد تجمع باسم السعى إلى العمرة وزيارة قبر الرسول ، وهو يضمر السوء بالخليفة . . ولم يلبث أن انضمت إليه حشود أخرى من مختلف الأمصار ، وكأن الجميع كانوا على ميعاد ! !

وكانت محنة ، برزت للعالمين من خلالها أضواء التسامح فى أجلى معانيها . . فلقد كان فى إمكان عثمان أن يأمر قوة صغيرة من قواته لصد عدوانهم ، وقطع أعناق رءوسهم . . ولكن الخليفة قد خلق من الرحمة ، فأبى إلا أن يصدر عنها ولو كان الهلاك فيها ، إنه استعظم أن يسخر جنوده الذين ألفوا الجهاد فى سبيل الله ليقاتلوا فى سبيله هو . . فكانت روحه لديه أرخص من أن يسال فى سبيلها قطرة من دماء مسلم واحد ، عظم ذلك أو صغر ! !

واجتمع صحابة الرسول وكبار المجاهدين بعثمان يطلبون إذنه بضرب الخارجين على سلطان الخلافة ، ولكن عثمان أبى عليهم أشد الإباء ، وخرج معهم إلى الثائرين ، وقد كادت أن تقع بينهم وبين الناس المعارك ، فقال لهم فى حزم يكسوه اللين والوقار :

ــ أما أن أتبرأ من الإمارة ، فإن تصلبونى أحب إلى من أن أتبرأ من جنة الله عز وجل وخلافته ، بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لى : « يا عثمان إن الله سيقمصك قميصاً بعدى[1] ، فان أرادك

(١) قميصا : يعنى الخلافة .

المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه حتى تلقانى » وأما قولكم تقاتلون من قاتل دونى ، فإنى لا آمر أحداً بقتالكم فمن قاتل دونى ، فإنما قاتل بغير أمرى ، ولعمرى لو كنت أريد قتالكم لقد كنت كتبت إلى الأجناد فقادوا الجنود وبعثوا الرجال ، أو لحقت ببعض أطرافى بمصر أو عراق ، فالله الله فى أنفسكم ، فابقوا عليها إن لم تبقوا على ، فإنكم مجتلبون بهذا الأمر دما . .

وما كان أبلغ هذه الكلمات اللينة لتنذر قوماً ضلوا الطريق بجهالة ، فيتوبون من قريب ، ولكنها نزلت على قلوب قد ذابت فى بحار الفتنة ، فرأت المعروف منكراً والمنكر معروفاً . . وزين لها الشيطان سوء عملها فرأته حسنا . .

ولم يدر بخلد أهل الرأى من وجوه المسلمين أن أمر الثائرين سيطول ، أو أن خطرهم سيستفحل ويستشرى . . وإنما ظنوا أنه عارض لابد سيزول . . فاكتفوا ببعث بضع عشرات من أبنائهم الشباب لمراقبة دار الخلافة ! !

وتوجه بضعة نفر من وجوه الصحابة إلى عثمان ليثنوه عن عزمه ، أو ليختار خلفا له من بعده إذا نزل به القضاء ، ولما ذكروا له فيمن ذكروا لمواجهة الموقف الخطير الزبير بن العوام . . أجابهم رضى الله عنه قائلا :

— أما إنه لأخيرهم وأحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم صمت أمير المؤمنين . . فبدا لهم أن أمر الخلافة متروك لهم من بعده إذا قتل . . فتفرقوا إلى بيوتهم ينتظرون أمر الله . .

ووقف عبد الله بن الزبير ليذود عن عرين عثمان ، ووقف بجواره الحسن والحسين ابنا علي ، ومحمد بن طلحة وبضعة نفر من أقرانهم .

ونظر الثائرون بعضهم إلى بعض يتعجبون من أمر ابن الزبير ، وقد أحاطت به جماعته الصغيرة يدفعون به إلى داخل الدار فلا يستطيعون ، وأذهلهم أن يخترق الشاب حصار الشباب ويندفع إلى جموعهم الغفيرة وحده ، وكأنهم فى نظره قطيع من الأنعام ، وما كاد يهوى بسيفه على مقدمتهم حتى دب الهلع فى قلوبهم ، فتفرقوا أمامه سراعاً فى المسالك والدروب . . إنهم ليعلمون تاريخ الشاب وشدة بأسه وعظم بلائه فى حروب الخليفة ، وآخرها تلك الموقعة الدامية فى ذات الصوارى ، حيث كان البطل العظيم يقفز من مركب إلى مركب، وهو يحطم قوى الروم ويطيح بأعناقهم بين أمواج البحر العاتية . .

إن السبئيين ليحذرون أن يردوا عليه وعلى أقرانه بالمثل، فيصيبوا منهم دماً ، فتفسد خطتهم بوثوب قريش وبنى هاشم عليهم قبل بنى أمية وغيرهم . .

وسمع عثمان بالهرج خارج الدار ، فأسرع إلى ابن الزبير وأخذ يعنفه وينهاه عما يفعل ، فما أن رآه الثوار يقبل نحوهم ، حتى أخذوا — من فرط هيبته — يسرعون إلى الفرار فزعين خائفين . .

وعاد عبد الله خلف أمير المؤمنين إلى البيت ، فاطمأن الثوار وعادوا إلى أماكنهم من جديد ! !

وصرخ عثمان بأعلى صوته مرة أخرى فى زمرة الشباب الواقف ببابه ، فقال لهم :

— الله الله . . أنتم فى حل من نصرتى . .

وطال أمد الحصار بأمير المؤمنين ، وقد أغرى لينه الثوار به ، فأخذوا يمنعون المـاء عن داره ، مع أن المدينة كلها تشرب من بئر رومة التى اشتراها رضى الله عنه بخالص ماله ووهبها للمسلمين ، وكانوا قبل ذلك يشترون القربة منها بدرهمين ! ! فعظم الأمر على ابن الزبير ، فوهب نفسه لله ، واندفع إلى قتال أعداء الحق . واندفع من خلفه شباب الصحابة الذين لم يستطيعوا قبض زمام أنفسهم الملتهبة — كما استطاع آباؤهم أن يفعلوا نزولا على أمر الخليفة إليهم — فدارت المعركة الدامية أمام دار الخلافة ، وسالت الدماء غزيرة متدفقة . وأصيب ابن الزبير والحسن بن على ، فتضاعف الإقدام واشتد النضال ، وتفرق الثوار ولاذوا بالفرار مرة أخرى .

ودخل ابن الزبير على عثمان ليطمئن عليه ، فهو لم يسرع إلى المعركة كما فعل فى المرة الأولى ، فوجده مستغرقا فى الصلاة ، فظل ينتظر فراغه من الوقوف بين يدى الله ، ولـكن عثمان كان سابحا فى لذة العبادة ، خاشع القلب ، هادئ النفس ، ثابت الجنان ، وكأن أمراً من الأمور لم يقع ، مع أن الخطر كان وما زال منه على بعد خطوات .

واستمر الخليفة فى صلاته يقرأ القرآن بهدوء وسكينة ، كأنه يودع الدنيا وهو يتلو : « طه .. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى * الرحمن على العرش استوى * له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . . » .

وتمت السورة وانتهت الصلاة . . والتفت ذو النورين إلى ابن الزبير وهو مغضب مما وقع ، وأمره بشدة أن يصرف حراس الدار جميعاً . . فاضطر الشاب إلى تنفيذ أمر الخليفة ، ولكنه بقى وحده أمامها لا يفارقها . .

ومكث الثوار خارج المدينة ، بينما تسلل فى الظلام بضعة منهم خلف الدار ، وتسلقوا أسوارها خفية ، وانقضوا على عثمان وهو يقرأ كتاب الله ، انقضاض الوحش الكاسر على فريسة وادعة . . دون أن يراهم أحد . . فقتلوه شر قتلة على مرأى من أهله ومسمع . .

وما أن ذاع النبأ ، حتى كان الثوار يضربون فى البوادى بأرجل مسرعة نحو ديارهم وأمصارهم . . فقد نفذ قضاء الله وتمت مؤامرة السبئيين . .

هكذا انتهت حياة الخليفة الثالث ، لتدخل الدولة فى طور جديد من أطوار حياتها ، تكسوه المحن والإحن ، وتكتنفه الخلافات والهزات الداميات ، ويبرز من خلاله موقف ابن الزبير ، فى تلك الفتنة الهوجاء وما تلاها . .

٢٢ – الفتنة الهوجاء .. !!

قتل عثمان مظلوما ، فاهتزت الأمصار وتبلبلت الأفكار ، وذهلت عاصمة الخلافة نفسها عند المصاب الأليم عن كل شيء . . حتى عن دفن الخليفة رضى الله عنه فى يومه أو ليلته . . وكأن كبار الصحابة والمجاهدين قد أشفقوا من لقاء بعضهم بعضاً حول نعش الشهيد العظيم

ساعة الوداع ، وهم قد كانوا بالأمس قابعين فى البيوت اضطراراً ، لتنفيذ أمر أمير المؤمنين إليهم بعدم التدخل لرد عدوان الظالمين . . فتركوا أمر دفنه لأبنائهم ، كما سبق أن تركوا لهم أمر حراسته من قبل . .

وتولى عبد الله بن الزبير أمر الدفن فى جوف الليل ، فبعث أخاه المنذر إلى نفر من المهاجرين وأبناء المهاجرين ، ومنهم خاله عبد الرحمن ابن أبى بكر ، وجبير بن مطعم ، وأبو الجهم بن حذيفة ، والمسور بن مخرمة ، وبعض نفر من الشباب ، فاحتملوا الشهيد إلى مثواه الأخير خارج المدينة بعد غسله وتكفينه والصلاة عليه .

وعاد عبد الله يشق ظلام الليل وسكونه الرهيب على ضوء فتيل ضئيل إلى دار عثمان ، بين أبنية تشعر بالوحشة ذات اليمين وذات الشمال ، وكأنها – من فرط الحزن – قد خلت من أهلها فلا تسمع لهم ركزا . . وما أن استقر الشاب أمام دار الشهيد ، حتى سمع صياحا أليما ترسله ابنة عثمان أنينا موجعا ، على مصرع أبيها الشيخ . . هنالك ملأت الحمى رأسه وهد الغضب أوصاله ، فأسند ظهره إلى الحائط ليستريح . . وانفرجت عيناه لغزارة العبرات ، فلم يستطع لهما قبضا ، حتى إذا ما جف الدمع من مآقيه ، راح يسلط عينيه يمنة ويسرة ، وكأنه يرى فى الظلام صورا تروح وأخرى تجيء . . أجل ، إنها صور التأمل فى عجائب القدر وغرائب المقادير ! ! أمير المؤمنين الذى عاش حياته لدين الله ، يقتل فى دار الخلافة بالأمس على هذه الصورة الموحشة ، فلا يكون من صوت يطالب بدمه من خلال الفتنة السوداء ، غير صوت ابنته الضعيفة من وراء حجاب !؟ أمير المؤمنين الذى كان

يحدب على كل بيت ويحنو على كل فرد ، يقتل بالأمس ظلما وعدوانا ، فتخلو داره الحزينة إلا من أهله الثكالى ، وكأنهن يحملن وحدهن عبء مصابه وهول رزئه ، والمسلمون وكبارهم ما يزالون مقصورين فى البيوت بين حائر وفاتر ومصدوم ! !

واستيقظت كوامن عبد الله على نغمة الأسى إثر نوبة أليمة أصابت ابنة عثمان من فرط الحزن ، جعلتها تردد بصوت مسموع موجع ، منظوم : اسم أبيها الرحيم البار . . فاستوى الشاب من حلمه اليقظ فزعاً . وقد ألهبته نار الغيظ على مصاب الإسلام فى عثمان ، بل على مصابه هو فيه . وقد كان أحد قواده القلائل الذين جنوا على يديه الطاهرتين أنصع الصفحات فى سجل الخلود من خلال عشر سنوات خلت ، هى مدة حكمه رضى الله عنه . .

واتجه نحو الباب فطرقه بشدة وهو يطلب من أهل الدار الكف عن النواح ، فلما لم تبال ابنة عثمان بأمره وعلا صياحها ، خاطبها بشدة من وراء الحجاب وهو يقول : « والله لئن لم تسكتى لأضربن الذى فيه عيناك ! ! » .

أجل . . إن دم عثمان أكرم من أن يكون فى حاجة إلى صوت جاريته أو امرأته ، أو آل بيته أو عشيرته . . فإن فى السويداء رجالا يقدرون للخليفة قدره العظيم ، ويعرفون له فضله العميم ، وإنهم وفى مقدمتهم عبد الله بن الزبير . . ليتحرقون على لظى الغيظ يبتغون رقاب الظالمين . .

* * *

ومرت الليلة فى هدوئها العجيب ، وأقبل النهار . . وأخذ الناس يقدمون على المسجد زرافات وجماعات وأفراداً ، وجلس جمع كبير من الصحابة حول على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى حلقة كبيرة ، وتحدث أولو الرأى منهم فى أمر الخلافة بعد مصرع ذى النورين . . وكثر الكلام وطال الحديث . . وفجأة دخل الزبير بن العوام مع ابنه عبد الله ، فأفسح الجمع لهما الطريق إلى وسط الحلقة ، حيث أخذا مكانيهما فى صدر المجلس . . وكان الزبير غائبا عن المدينة يوم قتل عثمان . .

واستأنف المؤتمرون حديثهم . . وانتهى الرأى إلى اختيار ابن أبى طالب خليفة للمسلمين . . بينما اشترط الزبير وطلحة وغيرهما، أن يقتص للشهيد قبل أى شىء آخر . بل إنهم يعتقدون أن سلامة الخلافة رهينة باستئصال شأفة العصاة عن طريق القضاء . . ولم يكن الزبير ومن رأى من صحابة رسول الله وغيرهم من خير المجاهدين من من شباب الأمة – وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير – ليصدروا عن هوى فى مخالفة على كرم الله وجهه . بل إن الزبير وطلحة – وهما اللذان كانا من الستة من أهل الشورى – قد تنازلا عن حقهما فى الترشيح للخلافة عند اختيار الخليفة بعد مصرع الفاروق منذ عشر سنين لعلى نفسه دون عثمان . . ولكنهما اليوم يأبيان فى رفق يكسوه الألم المرير ، إلا أن يؤخذ المجرمون بجريرتهم العظمى قبل أن يبايعا الخليفة الجديد . .

وتحت الضغط الشديد فى هذا اليوم العصيب اضطر الزبير وطلحة إلى أن يبايعا عليا باللسان دون الجنان ، حتى يتحقق شرطهما عليه

بطلب دم عثمان من قتلته فى أقرب وقت . . ولكن هيهات هيهات أن يتحقق ذلك فى سهولة ويسر . فالجريمة غامضة ، ولا بينة ولا شهود ولا اعتراف ! !

وكانت محنة أخرى ، نبتت شجرتها ضعيفة هزيلة ، وما لبثت أن استوت على سوقها فى بضع سنوات . . فأتت ثمارها مراً وعلقما ليتجرعها المسلمون كؤوسا حنظلية من الاختلاف حول الحق المطمور فى أعماق الظلام . . وأمست الدولة الموحدة ، تعلو سماءها رايات ثلاث . . يرفع إحداها الخليفة الرابع على كرم الله وجهه ، ويرفع الثانية طلحة والزبير ومن خلفهما أم المؤمنين عائشة — وهى أخت زوجتيهما أسماء وأم كلثوم — وقد خرجت رضى الله عنها فى هودج من حديد لا ترى منه ولا ترى ، لتقوم بالإصلاح بين فئتين متقاتلتين من أبنائها ، ويرفع الثالثة معاوية بن أبى سفيان أمير الشام وولى دم عثمان بإذنه قبل مقتله .

ويشاء الله أن يكون الاختلاف عنوانا على سلامة القصد ، وإن شابه سوء الوسيلة فى ظلام الفتنة ، فالمختلفون هم رءوس المهاجرين وعيون الصحابة والمجاهدين . وحتى الذين انحازوا إلى معسكراتهم من المسلمين ، ما كانوا يبغون سوى الوصول إلى الحق عن طريق أحدهم بأى ثمن مستطاع .

وانتهز السبئيون فرصة الخلاف ، فتشاوروا فى الخفاء ، وانتهوا إلى الانضمام إلى أحد الصفوف ، إبعاداً للشبهة عنهم ، وتمويهاً على المؤمنين ، حتى لا يفطنوا إلى مؤامراتهم فى الظلام ، ثم رأوا أن يكونوا فى صف على كرم الله وجهه ؛ فهو القاضى الورع الذى

مهما بلغ به الغضب فلا يأخذهم إلا ببينة أو اعتراف . . فهم إن نصروه على مخالفيه فلربما كان عدله دون سواه ، يوقفه عند حد مؤاخذة المجرمين منهم دون غيرهم فى أضيق نطاق .. ! !

وكانت البصرة ميدانا لأول حرب بين أهل التوحيد . . فقد تجمع فيها جيش على وجيش طلحة والزبير ، فى انتظار ما يقرره القدر بينهما على لسان المختلفين العظام . . وكأنما كان خروج عائشة استعجالا للقضاء المحتوم وإظهارا لسنة من سنن الكون ، فى أن عمود الدين لا يصلح بالنساء إن مال . ولا يرأب بهن إن انصدع . . بل إنه يزيد بهن ميلا ويزداد تصدعا . ولو كن حتى أمهات المؤمنين . . ! ! لقد كان خروج عائشة أعظم على الناس من قتل عثمان ، فهى ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى تركت ميدانها الذي خصصه الله لها فى البيت كامرأة — لأول مرة — لتشارك الناس قضاياهم فى ميدان الحياة . . وفى ذلك ما فيه من هتك الحجاب الذى فرض الله عليها عهيداه . . بل إن فى ذلك ما فيه من فتح باب الانحلال للدولة التى ما قامت وسادت إلا بشريعة السماء بحدودها الواقية بين أهل التوحيد رجالا ونساء . .

واصطف الفريقان ، وتبادلا الرسل لحسم الأمور ، ولكن التوفيق أخطأهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا . ولترى الإنسانية على مر الأزمان كيف يكون الخلاف بين المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم حينما يعتقد كل منهم أن الحق فى جانبه . . لقد تقدم على كرم الله وجهه بعد أن انتهى من تنظيم قواته لخوض غمار المعركة التى لا مفر منها ، وقد أمر أجناده ألا يرمى أحدهم سهما ولا حجرا ولا

يطعن برمح حتى يعذر إلى مخالفيه ، ثم اعتلى ظهر ناقة رسول الله « الشهباء » وقد ألقى سلاحه وسار وحده ، ولم يأذن لأحد من أجناده بمتابعته إلى معسكر طلحة والزبير وهو يزخر بالصناديد من الشجعان والفرسان وأهل البلاء والحروب . .

ووقف على حدود المعسكر الهائل . دون أن يخشى منه أحدا ، لأنه يعلم أنهم ذوو إيمان ويقين وإن التبس أمامهم الحق بالباطل ، وهم كذلك يعلمون سابقته وفضله . وورعه وتقواه ، لا يختلف في قدره منهم اثنان ، وإلا فما كان أسنحها من فرصة للقضاء عليه في طرفة عين ، ففي القضاء عليه قضاء على جيشه كله ، فيخلو لهم الجو لو كانت الدنيا هي مصدر همهم وسبب خروجهم ، ولكن الدين كان هو مصدر الهم والغم معاً ، وكان هو القاسم المشترك بين المتنازعين الأحرار . .

وسلم أمير المؤمنين بتحية الإسلام ، فرد عليه التحية كل من سمع . . ثم نادى – كرم الله وجهه – الزبير وطلحة رضى الله عنهما فقال :

– يا زبير ، إنك لفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، وإنك يا طلحة لشيخ المهاجرين ، وإن دفاعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما بعد إقراركما به . . وهؤلاء بنو عثمان فليدخلوا في طاعتي ثم يخاصموا إلى قتلة أبيهم . . »

ثم ألقى على كرم الله وجهه بكتاب إلى أحد الجنود أمامه ليوصله إلى أم المؤمنين عائشة في آخر المعسكر ، وفيه يقول لها :

« إنك خرجت غاضبة لله ورسوله ، تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ، ما بال النساء والحرب والإصلاح بين الناس !؟ تطالبين بدم عثمان ، ولعمرى لمن عرضك للبلاء وحملك على المعصية . أعظم إليك ذنبا من قتلة عثمان !! » .

واغرورقت عين الزبير بالدموع وهو ينظر – فى صمت خاشع – إلى المعسكرين الكبيرين . وأخذ يشهق من شدة البكاء . وما كان البكاء من طبيعته قبل ذلك فى أى موطن إلا فى الصلاة بين يدى الله وذكر الموت فى ساعات التفكر والعبادة . بينما أغلظ طلحة لعلى فى القول وهو يذكر دم عثمان ، وما كان من طبيعته الغلظة قبل ذلك فى أى موطن إلا على أعداء الله ورسوله . . فأجاب أمير المؤمنين بقوله وهو ثائر يرتجف :

– لست راجعا فامض لأمرك ؟؟!

وفى تلك اللحظة الرهيبة برز للانسانية نوع فذ من الجرأة فى الحق ، والحرية فى سبيل العقيدة ، تعدى حدود المألوف سمواً وارتقاء . . لقد استدار محمد بن طلحة إلى أبيه وقد سمع لهجته القاسية فى مخاطبة على كرم الله وجهه ، فأخذ يعنفه وهو يبكى ويقول له مبالغاً :

– « ولم لم تكن أنت من قتلة عثمان !؟ » .

فبهت طلحة من جرأة ولده البار به طول حياته ، وظن أنه قد جن . . فقال له :

– أهكذا تشهد على أبيك ؟؟

وكان الشاب الصالح لا يزال منفعلا فلم يحر جوابا . . واستطرد طلحة يقول لابنه :

ــ كن كعبد الله بن الزبير ، فوالله ما أنت بخير منه ولا أبوك بدون أبيه . . كف عن قولك وإلا فارجع . فإنما نصرتك نصرة رجل واحد . وفسادك فساد عامة الناس . . ! !

وهناك امتزج بر الشاب بأبيه ببره بالواجب فيما يراه . فأجاب قائلا :

ــ ما قلت إلا حقاً . . ولن أعود . . ! !

واستمع عبد الله بن الزبير إلى كلام طلحة لولده ــ وكان يمشي بين الصفوف ــ فأسرع هو الآخر نحو على كرم الله وجهه وكان قريباً منه . فنزل له ابن أبي طالب فتعانقا كالحبيبين التقيا بعد طول غياب . . وابتسم له أمير المؤمنين وهو يقول :

ــ يا عبد الله ، ما جاء بك ها هنا ؟؟

فأجابه الشاب القوى فى ثبات وإيمان :

ــ جئت أطلب دم عثمان .

فقال على :

ــ قتل الله من قتل عثمان . .

فقال عبد الله :

ــ آمين . . آمين .

ثم نادى كرم الله وجهه على الزبير مرة أخرى فقال :

ــ أنشدك الله يا زبير . هل تعلم أنك مررت بى وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكىء على يدك . فسلم على رسول الله وضحك ، ثم التفت إليك فقال لك : « إنك تقاتل عليا وأنت له ظالم ؟»

ـ اللهم نعم . .

ـ فعلام تقاتلني ؟؟

ـ نسيتها والله . . ولو ذكرتها ما خرجت إليك ولا قاتلتك ، والله لا أقاتلك أبداً .

وانتهى الحديث . . وعاد على إلى معسكره . فقابله أصحابه بدهشة وعجب ، إذ قد عاد إليهم سالما . . وقال له بعضهم :

ـ يا أمير المؤمنين ، مررت على رجل في سلاحه وأنت حاسر ! ![1]

ـ أتدرون من الرجل ؟؟

ـ لا يا أمير المؤمنين . .

ـ ذلك الزبير بن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أما إنه قد أعطى الله عهداً ألا يقاتلكم . . إني ذكرت له حديثا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لو ذكرته ما أتيتك .

ـ الحمد لله يا أمير المؤمنين . ما كنا نخشى في هذه الحرب غيره ولا نتقي سواه ، إنه لفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، ومن عرفت شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب . فإذ قد كفاناه الله ، فلا نعد من سواه إلا صرعى حول الهودج ! !

* * *

وألقى الزبير سلاحه ـ وهو القائد العام ـ لابنه عبد الله قائد

---

(١) حاسر : مجرد من السلاح .

الرجالة ، واتجه إلى هودج عائشة فى أقصى المعسكر ، ليعلمها بانسحابه من الحرب ضد على وأصحابه . .

وطرق رضى الله عنه جدار الهودج ، فقالت عائشة :

– من ؟

– الزبير يا أماه .

– وما ذاك ؟؟

– يا أماه . . ما شهدت موطنا قط فى الشرك ولا فى الإسلام إلا ولى فيه رأى وبصيرة غير هذا الموطن ، فانه لا رأى لى فيه ولا بصيرة . . وإنى لعلى باطل . .

– يا أبا عبد الله ، خفت سيوف بنى عبد المطلب ؟؟

– أما والله إن سيوف بنى عبد المطلب طوال حداد ، يحملها فتية أنجاد ! !

وفى هذه اللحظات الدقيقة الرهيبة ، وصل عبد الله إلى الهودج ليستوضح أباه سر انسحابه الذى أحدث أعنف هزة فى أدق ساعة . . فبادره الزبير على الفور بقوله وهو يتأهب للرحيل :

– يا عبد الله ، عليك بحربك . . أما أنا فراجع إلى بيتى ! !

– آلآن حين التقت حلقتا البطان واجتمعت الفئتان ؟ ؟ والله لا نغسل رؤوسنا منها ! !

– لا تعد هذا منى جبنا ، فوالله ما فارقت أحداً فى جاهلية ولا إسلام . . أى بنى ، ما منى عضو إلا وقد جرح مع رسول الله ، حتى فرجى ! !

– فما ردك ؟؟

– ردني ما إن علمته كسرك ! !

حقاً . . إن عبد الله لا يعلم شيئاً سوى طلب دم الخليفة الشهيد . . وإذن فلن يثنيه عنه ما أثنى أباه . . ولو كان الهلاك فيه .

ونظر عبد الله إلى أبيه نظرة الوداع . .وقد ظن أن الأجل قد دنا . . بينما بادره الأب بما لم يكن فى حسبانه فقال :

– يا بنى ، إنى لا أرانى إلا سأقتل اليوم مظلوما . . وإن من أكبر همى لدينى . . أفترى ديننا يبقى من مالنا شيئا ؟؟

– الله أعلم .

– فبع مالنا واقض ديننا ، فإن عجزت عن شىء منه فاستعن بمولاى . .

– يا أبت من مولاك ؟؟

– مولاى . . الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

٣٣ – دماء

دوى نذير الحرب ، فبرقت السيوف ولمعت الرماح ، وارتفع صوت الجيشين بالتكبير لنصرة الحق الذى يرى كل منهما أنه فى جانبه .

ووقف على كرم الله وجهه على رأس جيشه إيذانا بالاستعداد للنزال والطعان ، وأمر ألا يبدأ أصحابه بالزحف إلا رداً على هجوم جيش طلحة رضى الله عنه ، وكان على رأسه عبد الله بن الزبير .

وفجأة . . طغت على سماء الميدان المضطرم موجة عاتية من الثورة في الجيشين العظيمين ، لقد جاء الخبر بقتل الزبير رضي الله عنه غدراً – وهو قائم يصلي في ظل شجرة ببعض الطريق وهو عائد إلى المدينة – واحتزاز رأسه والقدوم بها إلى معسكر علي ، فزاد التوتر شدة وعنفا ، وبكى ابن أبي طالب مر البكاء وهو يقول : قاتل ابن صفية في النار ، قاتل ابن صفية في النار . ! !

إنها مؤامرة سبئية أخرى ، أراد بها المجرمون أن يجروا الفريقين إلى الحرب ، لتضييع فرصة الائتلاف باتساع شقة الكيد والاختلاف .

وجد الناس في طلب ابن جرموز القاتل الأثيم ، فلم يقفوا له على أثر ، فلقد فر المجرم من الحد فرار اليائس وهو يقول :

أتيت عليا برأس الزبير	أرجو لديه به الزلفة
فبشر بالنار إذ جئته	فبئس البشارة والتحفة
وسيان عندي قتل الزبير	وضرطة عير بذي الجحفة ! !

ووقعت هذه الأبيات الفاجرة المستهترة وقوع الصاعقة على جيش طلحة ، فغلت الدماء في الشرايين ، وتحطمت الضوابط من حول الأعصاب الثائرة ، وتحررت النفوس من القيود في ساحة الثأر والانتقام . . وتحرك السبئيون فتقدموا الصفوف إلى الطعان رغم أمر علي بالسكون ، فكانت الواقعة ، وكان البلاء .

وما كان لبكاء علي وأصحابه على الزبير أن يطفئ ناراً قد تأججت ، وعلا لهيبها في صدر عبد الله بن الزبير ، وفي صدر آل عثمان ، وقد كانوا يتلظون على أتون مقتل أبيهم شهيد الأمس ، حتى زادهم قتل

الزبير شهيد اليوم ناراً وسعيراً . . فاندفع جيشهم الكثيف تحت راية طلحة[1] لخوض غمار المعركة . .

وأسرع على إلى مقدمة جيشه ، ووقف على ظهر دابته ، وأشار بيده إلى طلحة فى جيشه الزاحف وهو مشفق من المصير المجهول فى ساعة غاب فيها الصواب عن أولى الألباب . . فقال :

– يا أبا محمد ، ما جاء بك ؟؟

– أطلب دم عثمان .

– قتل الله من قتله .

– فخل بيننا وبين من قتل عثمان ، أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما يحل دم المؤمن فى أربع خصال : زان فيرجم ، أو محارب لله ، أو مرتد عن الإسلام ، أو مؤمن يقتل مؤمنا عمداً ، فهل تعلم أن عثمان أتى شيئا من ذلك ؟؟

– اللهم لا .

– فاعتزل هذا الأمر ونجعله شورى بين المسلمين ، فإن رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن رضوا غيرك كنت رجلا من المسلمين .

– ألم تبايعنى يا أبا محمد طائعا غير مكره ؟ فما كنت لأترك بيعتى !

– بايعتك والسيف على عنقى .

– ألم تعلم أنى ما أكرهت أحداً على البيعة ، ولو كنت مكرها أحداً لأكرهت سعداً ، وابن عمر ، ومحمد بن مسلمة . . أبوا البيعة واعتزلوا فتركتهم . ! ؟

(١) جاء فى أسد الغابة أن طلحة بن عبيد الله قد ندم على خروجه لحرب على بعد لقائه به ، فلما هم بترك الميدان غافله مروان بن الحكم بسهم فقتله ، فوقع الفريقان ..

ـ كنا فى الشورى ستة ، فمات أثنان ، وقد كرهناك ونحن ثلاثة .

ـ إنما كان لكم ألا ترضوا قبل الرضى وقبل البيعة ، وأما الآن فليس لكم غير ما رضيتم به ، إلا أن تخرجوا مما بويعت عليه بحدث ، فإن كنت أحدثت حدثا فسموه لى . . وأخرجتم أمكم عائشة وتركتم نساءكم ، فهذا أعظم الحدث منكم ، أرضى هذا لرسول الله أن تهتكوا سترا ضربه عليها ، وتخرجوها منه ؟؟

ـ إنما جاءت للاصلاح .

ـ هى لعمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج . . أيها الشيخ ، أقبل النصح وارض بالتوبة مع العار ، قبل أن يكون العار والنار (١)

ثم التفت على كرم الله وجهه إلى أصحابه وقال :

ـ قد والله أرانا أعذرنا إلى القوم .

ودارت رحى الحرب شديدة طاحنة ، تأكل فى طريقها كل شىء ، وبرز كعب بن سور من خلال الوطيس الملتهب على ظهر دابته ، وهو يبكى ، وقد حمل بين يديه كتاب الله وأخذ يصيح قائلا للفريقين المتقاتلين :

ـ أنشدكم الله والإسلام . .

فما كاد ينتهى من قوله حتى أصابته طعنة قاضية على يد أحد السبئيين ، فازدادت نيران القتال اشتعالا ، والتقت الرؤوس بالرؤوس ، واصطكت السيوف بالسيوف ، وانتهى القتال إلى القتل ، فكان طلحة أول قتيل ، فتضاعف الخطر وعظم البلاء . .

---

(١) النار : يقصد نار الحرب ، لأن طلحة رضى الله عنه من المبشرين بالجنة .

ومرت سبعة أيام ، استطاع عبد الله بن الزبير من خلالها أن يسيطر على الميدان ، فرجحت كفة جيشه فى القتال الشديد . . ولم يستطع جيش على له صداً ولا رداً ، فقد كان على كرم الله وجهه لا يشترك بنفسه فى القتال ، وكأنه قدصدم عند التقاء الجمعين بقتل الزبير وطلحة صاحبي رسول الله ، فصار ذاهلا عما يقع بجيشه من الخسائر فى المحنة الهوجاء .

وجاء اليوم الثامن ببأسه وبؤسه . وابن أبى طالب فى ذهوله المتواصل ، راح يخفق من الألم المرير نعاساً على ظهر ناقة رسول الله . . وأصحابه من حوله يتصايحون ويتراجعون ، وقد أخذ السيف من ألوفهم العديدة كل مأخذ . . فانتبه كرم الله وجهه على صوت الهزيمة المنكرة ، تعصف برؤوس أصحابه زمراً وجماعات . . فأسرع فى الحملة بنفسه على مخالفيه ، وتقدم الصفوف وحمل الراية ، وبدأ يحرك سيفه ذات اليمين وذات الشمال فما وقف فى سبيله أحد . . وحمل أصحابه من خلفه فغيروا وجه المعركة فى طرفة عين ! !

وقصد كرم الله وجهه هودج عائشة ، فاخترق الأجساد المتراكمة برماحها المشرعة . . واشتد القتال حول الجمل فى الساعة الأخيرة ، فاشتد بأس عبد الله بن الزبير وأعوانه فى الدفاع عن مصير أم المؤمنين ، حتى أطاحت السيوف من حولها مائة يد . . وتقدم الأشتر النخعى فارس على كرم الله وجهه ليضرب ضربته ، فوقعت على عبد الله وهو ممسك بخطام الجمل ، فسالت منه الدماء غزيرة متدفقة ، ولكنه لم يكترث بها ، وأسرع إلى الأشتر فاحتضنه وضغط عليه بين يديه حتى كادت روحه أن تزهق ،فلم يستطع منه فكاكا ولا خلاصا

ولا صياحا . . ثم حمله عبد الله بين يديه وجعل منه درعا يتقى به الضربات حول الجمل ، ونظر أصحاب على إلى البطل الشاب فى دهشة وعجب ، وهو يتحداهم بقوله : اقتلونى ومالكا[1] .

واشتد هجوم أمير المؤمنين ، فضعفت المقاومة . . وعقر الجمل ونزل الهودج ، واستسلم المحاربون وألقوا السلاح . .

* * *

وارتمت على أرض الميدان الرهيب كتل متراصة من القتلى والجرحى ، فأخذ على كرم الله وجهه يتخللها وهو يبكى ويقول :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . . قدر الله وماشاء فعل .

ثم تفقدها جثة جثة ، فلما وقف أمام طلحة رضى الله عنه وهو صريع ، أخذ يرتعش ويبكى بصوت مسموع . . فأشفق عليه أصحابه وساروا به بعيدا عنه ، فلما أفاق نظر أمامه فإذا هو بمحمد بن طلحة صريعاً أمامه ، يشع النور من جبينه من أثر السجود الكثير ، فأخذ يبكى من جديد وهو يقول : « هذا هو السجاد . . » ثم انحنى وقبله وقال : « رحمك الله يا محمد ، لقد كنت فى العبادة مجتهداً آناء الليل قواماً ، وفى الحرور صواماً » ثم التفت إلى أصحابه وقال : « هذا رجل قتله بر أبيه . . » .

ونظر كرم الله وجهه ، فاذا هو بموسى بن طلحة واقفاً بين الناس ، فأقبل عليه وضمه إلى صدره . . وقال : « يا ابن أخى . . إنى لأرجو

---

(١) مالك : هو الاسم الحقيقى للأشتر . . وإنما دعاه عبد الله باسمه للغض من شأنه وشهرته بين الصناديد بهذا الاسم (الأشتر) .

أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم : « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . . » .

هنالك عجب أصحاب على من أمره ، فقال له بعضهم :

ـ لقد شقينا يا أمير المؤمنين إن كان هذا هو ابن أخيك . . ! !

فرد عليه كرم الله وجهه وقال :

ـ ويحك . . إن الله قد أطلع على أهل بدر فقال : « اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم . . »

ثم قال :

ـ أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لن يلج النار أحد شهد بدرا والحديبية » أما إن طلحة والزبير قد شهداهما . .

واقترب أمير المؤمنين من الجمل المصروع خلف هودج عائشة وقد ابتعد عنه الناس . . فرأى ابن الزبير مضطجعا منهوكا إثر ثلاثة وثلاثين جراحة أصابته . . فأسرع إليه وهو يبتسم له مما كان من بلائه وقوته وصدقه . . فسلم عليه ، فرد عليه عبد الله السلام فى ثبات وهدوء ، وكأنه غير مجهد ولا متألم . . فقال له كرم الله وجهه :

« رحمك الله يا عبد الله . . وماذا حدا بك ! ! » فرد عليه الشاب القوى بقوله : « جئت أطلب دم عثمان . . وإن دمى فيه لقليل » فأجابه أمير المؤمنين وهو يربت على كتفيه ويواسيه ، فقال: « قتل الله من قتل عثمان . . وقتل الله من قتل أباك . . »

وانتقل أمير المؤمنين قريبا من الهودج ، فسمع محمداً بن أبى بكر يشتد مع أخته عائشة وهو يقول: « يا أم المؤمنين ، أما سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول : « على مع الحق ، والحق مع على ، ثم خرجت تقاتلينه ؟؟ » ، ولم ترد أم المؤمنين على أخيها لغضبها عليه ، فبادرها على كرم الله وجهه بالسلام من وراء جدار الهودج ، فردت السلام . . فقال :

– يا أم المؤمنين ، قد أمرك الله أن تقعدى فى بيتك ثم خرجت تقاتلين . . أترتحلين ؟؟

– وأين عبد الله بن الزبير ؟

– هو سليم معافى . .

– أرتحـــل . .

* * *

وعاد على إلى الجمع الكثيف ، فأمرهم بدفن القتلى بعد الصلاة عليهم ، ولما انتهوا خاطبه الناس فى أمر أنفال المنهزمين من المال والسلاح ، فأقرهم على أخذها ، وهنالك برزت له أصوات مختنقة ، قد برح بها الأذى فى الميدان . . تقول :

– كيف تحل لنا أموالهم ولا تحل لنا نساؤهم ! ؟

فأجابهم بقوله :

– لا يحل لكم ذلك . .

فلما أكثر عليه بعض الموتورين من ضعفاء الإيمان ، عالج كرم الله وجهه ثورتهم فى كلمتين اثنتين ، فقال :

– اقترعوا . . هاتوا سهامكم ، أيكم يأخذ أمكم عائشة فى سهمه !؟

فرد الجميع فى صوت واحد :

ـ نستغفر الله . . نستغفر الله .

فقال على :

ـ وأنا أستغفر الله . . .

ـ وارتد الصواب إلى العقول المبلبلة المشدوهة ، فكأنما قد خلقت من جديد ! !

وأمر كرم الله وجهه أن يصحب أم المؤمنين فى رجعتها إلى المدينة أربعون امرأة يلبسن العمائم ويتقلدن السيوف ، ليكون ذلك درساً هادئاً . .

وفى الطريق التبس الأمر على عائشة ، فهى لا تسمع صوتاً حولها ، فهابت المكان فنظرت ، فاذا الرفاق معممون مسلحون ، فظنتهم رجالا ، فجعلت تدعو على أمير المؤمنين ، وتستعدى عليه الله ! ! فلما وصلت إلى دارها ، دخل عليها الرفاق وقد نزعن العمائم ووضعن السيوف ، فما أن رأت الحقيقة ماثلة ، حتى أثر فيها الدرس الصامت حول حدودها كامرأة فى دين الله ، كائنة هى من كانت ، فاسترجعت واستعتبت ، ثم أخذت تقول : جزى الله ابن أبى طالب الجنة ! !

٣٤ ـ روعة خلاف

انجلت موقعة الجمل عن توطيد أركان الخلافة لعلى كرم الله وجهه فى الأمصار كلها ، إلا مصراً واحداً ، هو الشام ، حيث يتربع معاوية بن أبى سفيان على عرشه المكين ، وقد وطد العزم على

الوقوف فى وجه الخليفة الرابع . . إنه ولى دم عثمان بإذنه قبل مصرعه ، وإنه ليرى أن قتلته ما يزالون أحياء يمشون على الأرض مطمئنين ، وإنه ليعلم أن ابن سبأ الذى طرده منذ سنوات من أرض الشام : قد حمل هو وأعوانه لواء المؤامرة الكبرى . تحت ستار كثيف من الظلام . طوى فى لفائفه السود عناصر الجريمة الشنعاء .

ولئن كان معاوية يحس فى دخائل نفسه أن علياً لن يترك دم الشهيد العظيم هملا بين قاتليه. إلا أنه يرى ورع الخليفة لا يزال يحمله على طريق القصد والاعتدال . وهيهات هيهات أن تستجيب نفس معاوية لنداء الصبر فى محنة الإسلام فى شيخ بنى أمية . وهو لا يزال يذكر قول عثمان الشهيد له : « إن قتلت . فلا يطل[1] دمى . » ! !

بل لئن كان معاوية قد علم نتيجة الخلاف بين على وطلحة والزبير ومن ورائهما أم المؤمنين عائشة . وصناديد الأبطال والمحاربين — وفى مقدمتهم عبد الله بن الزبير — وما ترتب عليه من قتلهما ودحر جيوشهما . وانحياز فلولها المستسلمة إلى معسكر الخليفة . فإن ذلك كله لن يثنيه عن عزمه فى مواجهة الأمر . بأى ثمن . بل إن ذلك كله ليدفعه إلى البر بعهده لعثمان فى القصاص له من القوم الظالمين .

لقد بدا لابن أبى سفيان بوضوح أن هذه الدماء الطاهرة . التى روت أرض المعركة فى موقعة الجمل . لم يقترف إثمها إلا السبئيون أنفسهم . وعلى رأسهم رأس الفتنة عبد الله بن سبأ . فهم الذين أغروا الفريقين بعضهم ببعض . وأشعلوا نار القتال بين المؤمنين . وقد كاد

---

(١) يطل : يضيع .

رسل الإصلاح يرفعون رايات الصفاء والوئام والالتئام ، وهم الذين دبروا قتل الزبير بعد انسحابه من الميدان قبل بدء المعركة الفاصلة ، وهو يردد قوله : « إنى لعلى باطل ، وإنى لعلى لظالم » .! ؟ فاحتزوا رأسه غدراً وهو قائم يصلى ببعض الطريق فى عودته إلى المدينة ، وقدموا بها إلى معسكر على ، ليوقفوا طرفى الخلاف على هاوية الدماء ، وهم الذين خالفوا أمر الخليفة كرم الله وجهه بعدم مناجزة مخالفيه . وخافوا أن يتم الصلح بينه وبينهم . فاندفعوا بأسيافهم من أطراف جيشه ، فوقع الناس فى غمرة الفوضى حيث وقعوا .. وهم الذين رأوا كعب بن سور — رسول عائشة رضى الله عنها — يقف على دابته بين الفريقين . وقد التقى الجمعان ، يحمل بين يديه كتاب الله . وينشد الناس الله والإسلام . ويذكرهم بالقرآن والحساب — فبادروه برماحهم فقتلوه على الفور . ليقطعوا على السلام كل طريق ! ! بل إن معاوية قد أدرك فوق ذلك أن السبئيين لم ينحازوا إلى معسكر على . نصرة للخليفة الراشد ، ولا أداء لحق البيعة الواجب . وإنما للقضاء على آل عثمان وطلاب دمه . واستئصال شأفة المؤمنين الذين نفروا فى سبيل الشهيد المظلوم ، ومن ثم برزت له أعناق الخطر تطل عليه هو الآخر . برؤوس كأنها رؤوس الشياطين . عند ذلك قوى عزمه واشتد مضاؤه لمقارعة القوة بقوة مثلها ، وتألق فى خياله نجم النصر فى ميدان الانتصار للمظلوم . فأخذ يردد قول الله عز وجل : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا . . » وظل يكرر الآية حتى استولى عليه سلطانها . وكأنما

هى نزلت لتشد أزره هو فى مواجهة الأمر الخطير إلى النهاية . . بل إلى النصر المبين ! !

* * *

ووصل رسول على إلى الشام ، ليجس نبض معاوية وليعجم عوده ، وليرى رأيه على ضوء ما كان من انتصار الخليفة على مخالفيه ، فنزل على ابن عمه حابس بن سعد سيد طىء بالشام ، فأبلغه الأمر ، ورجاه أن يرافقه إلى ابن أبى سفيان فقبل الرجاء . .

واختلى الإثنان بمعاوية ، فقدم حابس الرسول إليه ، على أنه ابن عمه وقد جاء لزيارته ، وأن عنده من الأخبار الصادقة ما يحسن الاستماع إليها ، والنظر فيها . .

وبدأ معاوية يسأل الرسول والرسول يجيب :—

— كيف كانت البيعة لابن أبى طالب ؟

— لقد تهافت الناس على على بالبيعة تهافت الفراش ، حتى ضلت النعل وسقط الرداء ووطئ الشيخ ، ولم يذكر عثمان ولم يذكروه . .

— وكيف سار وكيف قاتل ؟؟

— لقد تهيأ للمسير ، فخف معه المهاجرون والأنصار ، وكره معه القتال ثلاثة نفر : عبد الله بن عمر ، وسعد بن أبى وقاص ، ومحمد ابن مسلمة ، فلم يستكره أحدا ، واستغنى بمن خف عمن ثقل . . ثم سار حتى انتهى إلى جبل طىء ، فأتاه منه جماعة عظيمة ، حتى إذا كان فى بعض الطريق ، أتاه مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرح رسله إلى الكوفة ، فأجابوا دعوته ، ثم قدمها ، فحملوا إليه

الصبي ، ودبت إليه العجوز ، وخرجت إليه العروس ، فرحا به وسرورا ، وشوقا إليه . . ثم سار إلى البصرة ، فبرز إليه القوم طلحة والزبير وأصحابهما ، فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى صرعهم الله وأبرزهم إلى مضاجعهم . . ثم صارت البصرة وما حولها فى كفه . .

– وكيف تركته ؟؟

– تركته ولا هم له إلا أنت والشام . .

وفجأة ، ظهر الغضب على وجه معاوية ، وسرت فى دمائه حرارة الغيظ ، وبرزت لمخيلته صورة السبئيين من جديد ، وهى تلوح فى الخفاء برايات الفتن وأعلام التفريق . . فلم يستطع صبراً على ما سمع ، فأمر أجناده أن يخرجوا الرجل من حضرته ، ومن الشام كلها ، وأخذ يصيح : أخرجوه ، لا يفسد علينا أهل الشام .. وما أظنه إلا عينا من العيون . ! !

وجاء وقت الصلاة، فخرج معاوية إلى المسجد ، وصلى بالناس ثم وقف إلى المنبر ، وقد نصب عليه قميص عثمان الذى قتل فيه ، وأخذ يمسح ظاهره ويقبل آثار الدماء فيه ، وهو يبكى ، ويبكى معه الناس حتى ابتلت لحاهم واحمرت عيونهم . . ثم رفع رأسه من بين يديه ، فحملقت فى وجهه عيون الناس ، فقال وقد خنقه البكاء :

– وكيف لا يضيع عثمان ويقتل ، وقد خذله أهل ثقاته وأجمعوا عليه . . أما والله لئن بقينا لهم ، لندرسنهم درس الجمال هشيم اليبيس ..

* * *

واستعرت نيران الحروب الدامية بين الرجلين العظيمين ، وتلاقت جيوشهما الحرارة وجهاً لوجه فى مختلف الميادين ، ومضت أربع

سنوات جمعت فى طياتها أجل الخطوب فى تاريخ الإسلام ، وسجلت براعها أخطر الأحداث فى حياة المسلمين ، وأبرزت من خلالها طهارة القصد فى ميادين الحروب ، وقصت على الورى روائع المعانى فى ساحة الاختلاف ، كما أعلنت عن أن الأيام دول بين العباد ، فلا تكون للحق هيبة إلا بقدر ما تحميه القوة على طول الطريق .
فكانت فيها المحن القاسية . وكانت فيها العبر الصارخة ، وكانت فيها الدروس وفيها العظات . .

لقد تلقنت الإنسانية من ثنايا تلك الإحن مثلا حية ، لا يجود الزمان بأمثالها فى غمرات الفتن فى غير أمة الإسلام ! !

ذاك رجل من ثقيف رأى كفة معاوية ترجح فى أحد الميادين فترك مكانه فى صفوف على كرم الله وجهه ، وانحاز إلى أهل الشام — شأن طلاب الدنيا على حساب الدين فى كل زمان — فاستدعاه معاوية على الفور وسأله عن أمره . فقال له الثقفى : « يا أمير المؤمنين ، أتيت إليك من عند الغبى الجبان البخيل ابن أبى طالب . . » فاحمر وجه معاوية واستبد به الغضب ، وهوى بيده إلى سيفه ليضرب هامة الرجل ، ولكنه عاد فقبض زمام نفسه الثائرة . ليلقنه الدرس القاسى بحد لسانه دون حد سيفه . ليكون عبرة لمن خلفه من عامة المسلمين ، فقال له رضى الله عنه والغيظ يحرك شفتيه :

— لله أنت ! ! أتدرى ما قلت يا رجل ؟؟ أما قولك الغبى ، فوالله لوأن ألسن الناس جمعت فجعلت لسانا واحداً لكفاها لسان على ، وأما قولك إنه جبان ، فثكلتك أمك ، هل رأيت أحداً قط

بارزه إلا قتله !؟ وأما قولك بخيل ، فوالله لو كان له بيتان ، أحدهما من تبر ، والآخر من تبن ، لأنفذ تبره قبل تبنه . .

ثم طرده معاوية ، فعاد أدراجه إلى صفوف على كرم الله وجهه من جديد ، وقد أنطق الدرس القاسي لسانه بحقيقة أمره فقال :

— لا دنيا أصبت ولا آخرة . . ! !

وأولئك هم أهل العراق . قد أجهدتهم الحروب . فثقلوا عن جهاد أهل الشام ، فخطبهم على فقال :

— يا أهل العراق . ما أظن هؤلاء القوم من أهل الشام إلا ظاهرين عليكم .

فلما ردوا عليه يستعظمون أمر ولاية معاوية عليهم قائلين :

— يا أمير المؤمنين . أترى معاوية يكون علينا أميرا ! ؟

أجابهم كرم الله وجهه فى روية واعتدال فقال :

— لا تكرهوا إمرة معاوية . فان إمرته سلم وعافية . فلو قد مات ، رأيتم الرؤوس تندر عن كهولها كأنها الحنظل . . وعداً كان مفعولا . . فأما إمرة معاوية فلست أخاف عليكم شرها . ما بعدها أدهى وأمر . .

وذاك قائد الروم يجمع فلول جيشه المتداعى أمام قوة المسلمين من قبل ، وقد أغراه الخلاف الدامى بين على ومعاوية رضى الله عنهما . فرأى فرصة للوثوب من جديد . . فبعث إلى معاوية يعرض عليه معاونته فى حرب على . . هنالك ثارت الدماء حارة فى عروق معاوية ،

ونسى أمام الخطر أنه فى خلاف مع على فأرسل إلى قائد الروم يتهدده ويتوعده فى كتاب يقول فيه رضى الله عنه :

ــ وما أنت من خلافنا يا عدو الله ، والله لو وطئت شبرا واحداً من أرض المسلمين ، لسرت تحت لواء على لقتالك ! !

وذاك رجل من رجال على أخذ يسب أهل الشام يوم صفين ــ ونار الحرب على أشدها تكوى أهل العراق أكثر مما تكوى أهل الشام ــ فينبرى له كرم الله وجهه مغضبا فيقول :

ــ لا تسب أهل الشام ، فإن فيها الأبدال ، فان فيها الأبدال ، فان فيها الأبدال[1] .

وذاك أبو مسلم الخولانى . يدخل على معاوية مع نفر من وجوه التابعين فيقول له باسمهم :

ــ يا معاوية ، أنت تنازع عليا ، أم أنت مثله ؟؟ فأجابهم رضى الله عنه على الفور فقال :

ــ والله إنى لأعلم أنه خير منى وأفضل ، وأحق بالأمر منى . . ولـكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما ، وأنا ابن عمه ، وأنا أطلب بدمه وأمره إلى . . فقولوا له فليسلم إلى قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره . .

* * *

ووقفت عجلة الزمان فجأة . . على صوت القضاء المروع فى

(١) الأبدال : عباد اصطفاهم الله من بين المؤمنين لحفظ دينه وكلما هلك أحدهم أبدله بغيره .

ساحة الحق . . فقتل على كرم الله وجهه فى دياجى السحر ، فى ليلة من ليالى رمضان ، وكان سائرا يوقظ الناس لصلاة الفجر فى طريقه إلى مسجد الكوفة ، وشاء الله أن تكون منيته بيد أعدائه وأعداء معاوية على السواء[1] . . بيد الخوارج الضالين ، الذين شاءوا التخلص من الصحابيين العظيمين فى غمرة الخلاف العظيم ، فأصابوا علياً وأخطأوا معاوية ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا . .

أجل . . وقفت عجلة الزمان فجأة ، لتودع مرحلة الخلافة الراشدة

---

(١) روى أن معاوية قال لضرار الصدائى : صف لى عليا ، فقال : أعفنى يا أمير المؤمنين . قال : لتصفنه ، قال : أما إذ لابد من وصفه ؛ فكان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس إلى الليل ووحشته ، وكان غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا ؛ يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ؛ ونحن والحمد لله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له ؛ يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، ولا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه . وقد أرخى الليل سدوله . وغارت نجومه ، قابضا على لحيته يتململ تململ السليم . ويبكى بكاء الحزين ويقول :

– يا دنيا غرى غيرى . ألى تعرضت أم إلى تشوقت ؟ هيهات هيهات . قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك قليل . آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق .

فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، فكان والله كذلك . . فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها .

ودخل معاوية إلى زوجته فاختة وهو يبكى عليا بن أبى طالب كرم الله وجهه، فقالت :

ـ يا معاوية ، تقاتله بالأمس وتبكى عليه اليوم !؟

فقال :

ـ إنما أبكى على ما فقد الناس من دينه وفضله وتقواه .

فى تاريخ المسلمين . ولتستقبل مرحلة جديدة ، يستقر فيها الكفاح فى سبيل الحق حيناً آخر من الدهر . . ويتلالأ فى سمائها نجم عبد الله ابن الزبير من جديد .

٣٥ — عودة البطل

ظل عبد الله بن الزبير عاكفاً على نفسه مذ عاد إلى المدينة بعد موقعة الجمل . ملتزما بيته خلال الفتنة الدامية بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، قابعاً فى محرابه ، وقد شغلته العبادة عن كل ما يدور حوله من أحداث جسام .

فلما استتب الأمر لمعاوية . واجتمع له عقد الأمصار كلها ، أخذ ابن الزبير يفكر مليا فيما انتهى إليه حال المسلمين ، وقد آل الأمر إلى ابن أبى سفيان بعد على ، وانتقلت الخلافة لأول مرة فى تاريخ الإسلام بعيداً عن المدينة ، واستقرت فى دمشق . . فساوره القلق من طغيان بنى أمية على أمر الناس ، وقد تولى الكثير من رجالهم حكم البلاد والعباد ، بعد أن خلع الحسن بن على عن نفسه ثوب الخلافة وبايع معاوية ، وأغمد عنه سيوف أربعين ألف مقاتل من العراق وأهل الأمصار التى كانت تدين بالولاء لبنى هاشم دون غيرهم[1].

---

(١) كاد الحسن أن يقتل من ثورة المخلصين من أنصاره حين عزم على البيعة لمعاوية ، وناداه بعضهم بقوله : « يا مذل المؤمنين » فكان جوابه عليه أن قال : لا تقل ذلك ؛ فإنى سمعت من أبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تذهب الأيام والليالى ، حتى يملك معاوية » فعلمت أن أمر الله واقع ؛ فكرهت أن تهرق بينى وبينهم دماء المسلمين . . ! ! » بل إن الحسن قد رأى أن شيعة أبيه قد ضعفت عن نصرته وانحازوا إلى جانب الدنيا=

وراح الفارس العابد يستميل نفسه إلى الخروج عن العزلة ، ويستلهمه الرضى بما نزل من قضاء الله فى ساحة المسلمين ، فأذهب فى أطواء محنتهم القاسية روح الخليفة الورع كرم الله وجهه ، وأذهب معها أرواح عشرة آلاف مسلم من المعسكرين العظيمين ، كانت تعبد الله ولا تشرك به شيئا .

وأقبلت على عبد الله نسائم الأمل فى حياة جديدة مشرقة ، يستقر من خلالها أمر المسلمين على يد أميرهم الجديد . . فأخذ يسترجع بخياله العذب فضل معاوية فى تاريخ المؤمنين ، ويستعرض كفاحه الصادق فى سبيل الله بسيفه تحت راية رسول الله وتحت رايات خلفائه من بعده ، حيث دون رضى الله عنه فى صحائف الخلود سطوراً بارزة من البذل والتضحية والفداء ، حوت العظيم من آثار الشرف ، وفى مقدمتها ، قتل مسيلمة الكذاب فى حرب اليمامة ، وبلاؤه الكريم يوم اليرموك . . فبدت له حقيقة الإيمان فى قلب معاوية ، كما أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صعوده إلى الرفيق الأعلى ، حيث قال :

« بينا أنا نائم ، رأيت الكتاب احتمل من تحت رأسى ، فظننت

=وانفض الكثير منهم عنه ..حتى إن المختار بن عبيد الثقفى قال لعمه سعد بن مسعود : هل لك فى الشرف والغنى ؟؟ قال : ماذا ؟؟ قال تأخذ الحسن بن على فتقيده وتبعثه إلى معاوية . فقال له عمه : قبحكم الله ، وقبح ماجئت به ، أغدر بابن بنت رسول الله !؟ ».. ولقد كان فى نزول الحسن عن الخلافة معجزتان من معجزات رسول الله. أولها قوله صلى الله عليه وسلم وهو يشير إلى الحسن : « إن ابنى هذا سيد ؛ ولعل الله أن يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين » وقوله صلى الله عليه وسلم : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ؛ ثم تكون ملكا » فكان يوم نزول الحسن عن الخلافة هو خاتمة الثلاثين » .

أنه مذهوب به ، فأتبعته بصرى فعمد به إلى الشام ، وإن الإيمان حين تقع الفتنة بالشام ! ! » .

وتذكر ابن الزبير من فوره ما كان من ذكر رسول الله لأمانة ابن أبى سفيان ، حتى إنه صلى الله عليه وسلم استشار جبريل فى استكتابه الوحى ، فقال له الروح الأمين : « استكتبه فانه أمين » كما تذكر حديث خالته عائشة أم المؤمنين ، حيث قالت : « لما كان يوم أم حبيبة [1] ، من النبى صلى الله عليه وسلم ، دق الباب داق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم — انظروا من هذا ؟؟ — فقالوا : معاوية ، قال : « ائذنوا له » فدخل وعلى أذنه قلم يخط به ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما هذا القلم على أذنك يا معاوية ؟ » قال : قلم أعددته لله ولرسوله . فقال له : « جزاك الله عن نبيك خيرا ، والله ما استكتبتك إلا بوحى من الله . ولا أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحى من الله . كيف بك لو قمصك الله قميصا ؟؟[2] » . فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه وقالت : يا رسول الله ، وإن الله مقمصه قميصاً ؟؟ قال : « نعم ! ولكن فيه هنات وهنات » فقالت : يارسول الله ، فادع له . فقال : « اللهم اهده بالهدى ، وجنبه الردى ، واغفر له فى الآخرة والأولى . »

وما كان عبد الله بن الزبير ليجهل قدر معاوية من قبل ، وهو يعلم أنه كاتب النبى منذ أسلم ، فكان من أفقه أصحاب رسول الله لكتاب الله وأعلمهم به ، ولا عجب فى ذلك ، فقد دعا له رسول

---

(١) أم حبيبة : هى أم المؤمنين ، حبيبة بنت أبى سفيان ، أخت معاوية .

(٢) قيصا : يعنى الخلافة .

الله فقال : « اللهم علم معاوية الكتاب » وقال : « اللهم أجعله هادياً مهدياً » .

ولا غرو أن يعتقد عبد الله أن إمارة معاوية ، هى معجزة من معجزات رسول الله ظهرت آثارها بعد صعوده صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . . وأن الخير فيما اختاره الله . . وإن كان هذا الخير فيه مرارة . فانه دواء للمؤمنين على كل حال ، وقد قال تعالى « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

بل ولئن كان خلاف معاوية لعلى يبدو عظيما . إلا أن فى حديث رسول الله الذى نبأ به ما يرفع الغم عن قلب ابن الزبير . فقد تحدث صلى الله عليه وسلم عن أمر الفتنة قبل وقوعها بنيف وثلاثين عاما ، حيث قال : « تمرق مارقة على خير فرقة من المسلمين فيقتلها أدنى الطائفتين إلى الحق » فكانت المارقة هى الخوارج الذين خرجوا على على ، فقاتلهم وقتلهم حتى قتلوه . . ثم تعقب فلولهم من بعده معاوية ، وإذن فان الخلاف بين الصحابيين العظيمين . كان يدور حول الحق الذى يراه كلاهما فى جانبه ، ولئن كان على كرم الله وجهه أدنى إلى هذا الحق من معاوية رضى الله عنه . فإن ساحة الحق هى التى جمعت بينهما فى ميدانه الكريم . . ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

ومن خلال ذلك الضوء . رأى الفارس العابد أن يبايع على الفور ، فبايع ، ودخل فيما دخل فيه الناس .

ووصل عبد الله بن الزبير كتاب من صديقه الحميم عبد الله بن عامر — وكان فى بطانة معاوية — يدعوه لزيارة دمشق العاصمة الجديدة

وكان لقاء حارا بين فارسين فى طليعة فرسان المسلمين . يعرفان قدر بعضهما ، ويلتقيان فى ميدان الخلود فى أعلا مكان . . فابن عامر هو الذى تفل النبي فى فمه وهو وليد . فجعل يبتلع ريق رسول الله بشراهة حتى تبسم صلى الله عليه وسلم لأمره حينذاك وقال : « إنه لمسقاء » ! ! ومن ثم تحقق فيه قوله صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يعالج أرضا إلا ظهر له الماء ! ! وهو الذى استنابه عثمان رضى الله عنه – وكان ابن خاله – على البصرة . وبعدها على بلاد فارس وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، ففتح خراسان كلها ، وأطراف فارس ، وسجستان وكرمان ، وبلاد غزنة . . وهو الشاب الذى قتل كسرى ملك الملوك فى أيامه « يزدجرد » . . ثم هو أحد الفرسان الذين ساروا تحت راية الزبير وطلحة رضى الله عنهما فى موقعة الجمل . . فلما قتل الزبير وطلحة ، كان فى عداد الفرسان تحت قيادة عبد الله بن الزبير . . ولا غرو أن كانت الرابطة عظيمة بين البطلين الكبيرين . .

وطابت نفس الفارسين باللقاء ، واتخذا مكانيهما بين الإكبار والتعظيم فى صرح دار الإمارة ، وأخذا يتجاذبان الحديث ، ويستعيدان صحائف المجد ، ويستجمعان العزم على تعويض البلاد ما فاتها من مواكب النصر فى سنى الخلاف .

وعلم معاوية بقدوم ابن الزبير ، فأسرع إلى لقائه واستقباله ، وما أن دخل رضى الله عنه على البطلين ، حتى أسرع ابن عامر بالقيام ، بينما ظل ابن الزبير فى مكانه كالطود الراسى وكأنه سابح فى خيال . . وحيا معاوية حفيد الصديق بقوله : « أهلا بابن عمة رسول الله . . » فرد عليه التحية وهو جالس . وسلم بحرارة وهو على حاله ! وكأنه

يقول لمعاوية وابن عامر « جئت للدين لا للدنيا . . وسعيت إلى الله لاإلى الناس . وإنما أنا وأمير المؤمنين عبدان من عباد الله ، نرجو العافية فى الدين والدنيا والآخرة . . فكان ذلك من ابن الزبير أعظم استهلال .

هنالك تبسم أمير المؤمنين وهو يربت على كتف ابن الزبير حباً وتعظيما وشوقاً . . ووجه الكلام إلى ابن عامر فقال :

ـ أجلس ! فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أحب أن يتمثل له العباد قياما . . فليتبوأ مقعده من النار » .

ألا ما أعظم الإيمان . حين يملأ النفس ، فتصدر عن عزتها وشجاعتها . . وما أعظم المؤمنين حين يخشعون لصوت الإيمان ، فلا علو من أمير ، ولا ضعف من مأمور . . ولكن كلهم فناء وتسليم .

وهكذا ، لن تموت أمة تتجاوب خلالها تلك الروح بين قلب الحاكم وقلب المحكوم . وإن دب فيها الخلاف حينا ، بل أحايين .

وإذن . . فما أسعد معاوية بلقاء ابن الزبير ، وما أعظم إيمانه بشجاعته وتقواه . . بل وما أحسه بما يخبئه له القدر من رفعة شأن وعلو مكان . .

* * *

ولما ارتفعت رايات الكفاح عالية خفاقة . . . واجتمعت الأمة على قلب رجل واحد ، لاستئناف سبيل الفتح من جديد . . وسارت جيوش الإسلام شطر الروم مبتدئة من تخوم الشام نحو الشمال لإنزال

رايات أعداء الله ، وقد قويت شوكتهم وعظم أمرهم ، نتيجة الخلاف الدامى بين المسلمين . واشتغالهم خمس سنوات بأمر كيانهم فى الداخل ، أكثر من اشتغالهم بأمر عدوهم فى الخارج .

وفتح معاوية رضى الله عنه أبواب الجهاد على مصاريعها ، لجيوشه الفاتحة ، فأخرج فى كل سنة جيشين ، جيشاً فى الصيف ، وجيشاً فى الشتاء . . ليرهب الأعداء سلطان الإسلام ، وليرى الكفار سطوة المسلمين ، وليشهد الدنيا بأسرها على أن خلاف المؤمنين حول دينهم ، لم يلد غير القوة فى جهاد أعداء الله على وجه الأرض ! !

وأخذ عبد الله بن الزبير يسطر من صفحات الكفاح الصادق فى ميادين القتال ، ما جعله علما من أعلام الدولة ليس له نظير ، حتى طارت بشجاعته أجنحة المجد فى الآفاق ، تنشر فى سماء المسلمين ظلال البطولة الفذة ، وتعيد إليهم صور الفناء الخالص فى سبيل الله . . حتى إذا ما دخلت السنة التاسعة والأربعون من الهجرة ، وأنشا معاوية أكبر جيش لضرب القسطنطينية عاصمة الروم ، تحت قيادة ابنه يزيد . . كان عبد الله بن الزبير فى طليعة الجيش الهائل ، بين سادات الصحابة وأبنائهم ، وفى جملتهم أبو أيوب الأنصارى ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن عباس ، والحسين بن على وغيرهم . .

وما كان معاوية ليجهل خطورة هذا الميدان ، وقد حارب هو فيه قبل ذلك فى جيوش عثمان ، فلم يستطيعوا الوصول إلى ما يريدون وإن كان معاوية ومن معه احتلوا جزيرة قبرص استعداداً لفتح القسطنطينية مدينة قيصر ، غير أن إرادة الله شاءت أن يتأخر الفتح حينذاك ليكون على أيد أخرى .

ولـكن أمله اليوم لا يحده حد . . فهو يرى الإيمان فى قلوب قواده وأجناده يكاد ينطق بنصر الله ، وهو فوق ذلك يدعو الله أن تقر عينه بولده الحبيب يزيد ، حين يراه على رأس الجيش المنصور الذى حوى أمثال المجاهدين القويين الحسين بن على وعبد الله بن الزبير .

وسار ابن الزبير فى طليعة الجيش الباسل ، يضرب للمجاهدين المثل الرائعة من البلاء الـكريم . . والصبر العظيم . . ولقى المسلمون الأهوال فى طريقهم ، واتسعت عليهم دائرة القتال البئيس ، فبدوا فى الميدان المتشعب قلة قليلة رغم كثرتهم الهـائلة . . وقطع الأعداء الأشداء عليهم كل سبيل فى الأرض الموحشة . . ولـكن أنصار الله لم يهنوا ولم يحزنوا ، ولم يبالوا بالموت المحقق ، وقد صار أقرب إليهم من النجاة بل من الحياة ، ولم يرضوا بغير النصر أو القتل دونه . . هنالك نفخ الله فيهم من روحه ، فامتلأوا ثقة بنصره ، فرددوا فى الميدان الرهيب قوله الـكريم « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب ، فسنؤتيه أجراً عظيما » ومن ثم تمكنت إرادة الله من أعماق أهل اليقين . . فكان الإعجاز مع النصر المبين .

وحلق فى سماء القسطنطينية نجم عبد الله بن الزبير ، متلألئاً بأضواء الإيمان ، ومرسلا بأنواره الباهرة إلى سماء دمشق ، ليملأ بسنائه البراق عين معاوية أمير المؤمنين .

وعاد عبد الله مع من عاد من الجيش الفاتح ، يحملون أشرف وسام تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم وديعة لمن يستحقونه من أهل الرضوان من بعده ، حيث قال : « أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم . »

ولا عجب أن كان ابن الزبير ركنا شديدا من أركان ذلك الجيش .

٣٦ — يزيد . . فى الطريق

مضت السنوات بمعاوية رضى الله عنه سراعاً ، وهى تطوى فى ردائها الطويل كتاب خلافته صفحة إثر صفحة . . حتى إذا ما كانت به على غير بعيد من الخاتمة ، ألفته شيخاً كبيراً قد قرعه المشيب . فأضعف فيه القوى ، وأوهن منه العظام .

وأرهفت أذن الزمان على أصوات باهتة مكتومة . أخذت تتخلل مسرح الحياة فى رفق وحذر . فهى تعلو حينا وتنخفض حيناً آخر . . إنها أصوات الخوف من المستقبل الغامض ، وقد بدأ يلوح فى سماء الأمة بأطياف الفتن . استعداداً لمعركة جديدة من معارك الخلافة ، حيث الآراء تتباين . والأفكار تتطاحن ، وحيث تنصهر فى أتون الخلاف وحدة المسلمين مرة أخرى . : وأنى للناس حينذاك بخليفة كابن أبى سفيان ، يجمع للدولة شملها . ويعيد إليها الوحدة والاستقرار .

إن فى العراق أقواما أولى بأس شديد ، ما كانوا ليخضعوا لغير سلطان بنى هاشم . لولا أن تنازل الحسن بن على لمعاوية ، حقناً للدماء وجمعاً للكلمة . . وهم حين رضوا بمعاوية رضى الله عنه خليفة للمسلمين ، كادوا أن يقتلوا الحسن ، وقال له قائلهم « يا مذل المؤمنين ! ! » ولكنهم تابعوه فى النهاية بعد مبايعة بنى هاشم دون استثناء على أن تعود الخلافة لآل البيت ، حين يبلغ الكتاب أجله[1].

---

(١) حين تبادلت الرسل بين معاوية والحسن كان المعلوم أن يخلف الحسن معاوية بعد موته .

وإن فى الحجاز أقواما ينتظرون عودة الخلافة لآل البيت ، وهم يحملون بأيديهم سيف التقوى ، ويتمتعون بسلطان الدين وقوة النفوذ . . بل إن القلوب هناك لتكاد تنطق باسم الخليفة المرتقب من بينهم ، لولا أن الأوان لم يأت بعد .

وإن معاوية رضى الله عنه لمشغول بأمر أمته لو قضى نحبه ، خائف على ما شادته يد الوحدة بعد طول خلاف ، وإنه ليرى أن اختيار خليفته من بعده يبدو اليوم أمراً صعبا ؛ وليس من السهولة كأى عهد مضى ، بل إنه يرى أن أهل الشام الذين عزروه ونصروه ، وحاربوا من أجله الخليفة الرابع كرم الله وجهه ، ووطدوا له قواعد الملك بجهودهم . ونقلوا إليه عاصمة الإسلام من المدينة وثبتوها فى ديارهم . . هؤلاء لهم المقام الأول ، كما أن لهم الخطر الأكبر ، وإذن فلابد لمعاوية أن يرعى جانبهم قبل غيرهم ، لا خوفاً منهم ، وإنما خوفاً من العاقبة . . وإلا فماذا لو انتقلت الخلافة إلى بنى هاشم ، وانتقلت العاصمة تبعاً لها إلى الحجاز أو العراق ، وتولى على الأمصار ولاة آخرون من غير بنى أمية الذين مارسوا سياسة الدولة زهاء عشرين عاما أو يزيد . حتى أفرغوا طبائعهم فى الناس بعد أن تغلغلوا فى أعماق الحياة العامة والخاصة . . إذن لجر ذلك أعظم الخلاف فى الداخل ، ولكانت فتنة ما أعظمها وما أخطرها على كيان الإسلام والمسلمين .

ودارت بخلد أمير المؤمنين تلكم الأوهام المضنية وكثير غيرها ، وصار يتلمس لها المخرج ، ويتنكب لها مسالك الرأى ، وكلما هم بأمر خاف من آخر . . ألا إن أمر الأمة كلها قد صار معلقا فى عنقه وحده ، وقد صار هو من لقاء الله على بعد خطوات ! !

وبينما هو يفكر فى الأمر مليا ذات ليلة ، إذ طرق بابه المغيرة ابن شعبة — وكان من أهل شوراه بعد اعتزاله ولاية الكوفة لكبر سنه — فأذن له فى الدخول ، فقال :

— يا أمير المؤمنين ، قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف . وفى عنقك الموت . وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان . فاجعل للناس بعدك علما يفزعون إليه . . واجعل ذلك لابنك يزيد .

وانتبه أمير المؤمنين من إطراقه فجأة ؛ ونظر إلى المغيرة طويلا ؛ ولكنه عاد إلى إطراقه وهو صامت ! ! ولم يرد بكلمة واحدة ! !

ترى ، هل كان هذا الرأى جديداً على معاوية ، حين انتبه من إطراقه فجأة ؟؟ أم أنه كان يراوده أحيانا فلا يستطيع إعلانه ، حتى صادف صداه فى خاصته الذين يزنون أقوالهم بميزان السياسة وسط الأفكار المتباينة حول الخلافة فى أرض الإسلام العريضة ؟

ولكن معاوية على كل حال ما يزال يرى أن مثل هذا الرأى قد يبدو عظيما ، وفى الأمة من هم للخلافة أولى وأخلق . . وإنه ليذكر أن قبيصة بن جابر سأله منذ سنوات عما يراه أهلا للخلافة من بعده ، فأجابه قائلا : تكون بين جماعة ، إما كريم قريش سعيد بن العاص ، وإما فتى قريش حياء وأدبا وسخاء عبد الله بن عامر ، وإما الحسن بن على رجل كريم . . وإما القارئ لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله مروان ابن الحكم ، وإما رجل فقيه عبد الله بن عمر ، وإما رجل يتردد الشريعة مع دواهى السباع ويروغ روغان الثعلب عبد الله بن الزبير ! !

فهل تبدل الحال حتى يكون يزيد هو الآخر علماً بجانب هذه

الأعلام ؟؟ إن معاوية قد يحس ذلك ، فابنه لا يزال يتمتع بنعمة الذكاء والدهاء والنجابة ، فضلا عما أحرزه فى النهاية من مجد عريق أعقب قيادته لجيش القسطنطينية ، على رأس كبار الصحابة وكبار المجاهدين ، وفى مقدمتهم عبد الله بن عمر . وعبد الله بن عباس ، وأبو أيوب الأنصارى ، والحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وغيرهم وغيرهم . . فحقق جيشه المعجزة النبوية . التى طوتها السنين حيناً من الدهر ، والتى نبأ بها سيد المرسلين قبل صعوده إلى الرفيق الأعلى ، حيث قال صلى الله عليه وسلم : « أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم » وقد كان يزيد بن معاوية قائد ذلك الجيش .

وماذا يخشاه معاوية لو أن أهل الشام رضوا خلافة يزيد ، فيكون ذلك حلا من الحلول فى هذا المأزق العظيم . بل ماذا لو جهر بهذا الرأى فى عامة الأمصار وقد رضى أولى الناس بالخلافة — حتى من بنى هاشم — أن يكونوا تحت إمرة يزيد فى ذلك الميدان الرهيب من أرض قيصر . ليعلوا تحت رايته كلمة الله ولينصروا دينه ؟؟

واعتلى معاوية منبر دمشق . يلقى إحدى مواعظه الكريمة التى تأخذ بالألباب . وتعقد أطراف الألسنة ، وتنزل من القلوب منزل السكينة والخشوع . كأنها صوت المودع فى آخر عهده بالدنيا بين أحبابه وخلصائه . . وما كاد ينتهى حتى قام رجال ، فجعلوا يرجون عهده بالخلافة لمن يراه أهلا لها من بعده . . وراحوا يعددون فضائل ابنه الحبيب . ولا يذكرون أحداً دونه ، ويستعجلون قضاءه باستخلافه . . وكلما ازداد صمت معاوية ، كلما علت الأصوات بنغمة يزيد . ! !

ونظر أمير المؤمنين إلى الناس ، فساد الصمت جوانب المسجد ، ثم أدار رضى الله عنه وجهه قليلا ، فتحولت أنظار الناس إلى محط بصره ، فوقعت أبصارهم على رجل نحيل مهيب ، أبى إلا أن يؤثر الصمت ، وكأنه غير مكترث بما يدور حوله . . إنه رجل العراق وسيده وصاحب الرأى فيه . . إنه الأحنف بن قيس ، رجل الإيمان والدهاء . .

وتهامس الناس . بينما قال معاوية : أين الأحنف بن قيس ؟ ؟

وبادره الداهية المحنك بنظرة هادئة فاحصة . . فقال له معاوية :

— ألا تتكلم ! ؟

فقام الأحنف يشق السكون الرهيب بصوته الهادئ الرزين الواضح ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال :

— أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا فى منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتنف ، ويزيد بن أمير المؤمنين نعم الخلف ، وقد حلبت الدهر أشطره يا أمير المؤمنين ؛ فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك ، ثم أعص أمر من يأمرك ، لا يغررك من يشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت أنظر للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حيا .

وأطرق معاوية لحظة وجيزة ، ثم نزل من على المنبر ، وهو يقول :

— ننظر فى الأمر إن شاء الله . .

وعلم أهل الرأى فى الشام أن رجاءهم فى استخلاف يزيد ، يأخذ ركنا عظيما من رأس معاوية ، فراحوا ينتظرون مسعاه وهم مطمئنون ، بل هاهم أولاء قد رأوا عزمة أمير المؤمنين على أن يختبر بنفسه هذا الرأى فى ميدان الحجاز ، حيث العقبة الكئود التى لو لانت ، للان معها كل صعب فى الطريق .

٣٧ — هرقلية وكسروية ! !

بينما كان الحسن بن على يجلس فى ندوة من المؤمنين فى طريقهم إلى المدينة بعد الحج الأكبر ، والناس حوله لا يخطر ببالهم شىء عن أمر الخلافة المرتقبة . ولا يتحدثون عنها قليلا أو كثيراً . وإن كانوا ينظرون إلى الحسن نظرتهم إلى الخليفة المرتقب ، الذى لا يطاوله أحد سلطانا . . ويشيدون فى سرهم وإعلانهم بعلمه وفضله وورعه وكرمه . . وحسبهم من تقواه . أنه أتم اليوم خمساً وعشرين حجة سائرا على قدميه ، وإن النجائب العديدة لتسير من حوله فيأبى ركوبها ، حياء من الله أن يسعى إلى بيته العتيق على ظهر دابة ! !

وحسبهم فيه كذلك . أنه قاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات ، فكان يتصدق بنصفه حتى كان يتصدق بنعل ويمسك نعلا . . وأنه خرج من ماله كله مرتين فى سبيل الله لا يبقى لنفسه شيئا ! !

بل وحسبهم فيه أنهم لا يفتأون يذكرون وجه النبى بالنظر إليه ، فلقد كان وجه الحسن أقرب الوجوه شبهاً بوجه رسول الله ! !

وبينما كان الناس فى ساعتهم الطاهرة يتمتعون بأحاديثه الخاشعة كان عبد الله بن الزبير فى صدر المكان بجواره كأنهما زهرتان على

فنن ، تفوحان بأريج العطر الشذى فى روضة يانعة . . فى قلب الصحراء . .

وكان الحديث الساحر مقصورا على الحسن وعبد الله ، بينما كان الجميع صمتا يستمتعون بفيض الحكمة من معين العابدين الكريمين . . وفجأة ، انقلب الحديث بينهما إلى التندر اللطيف للترويح عن الجلوس ببعض ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما فى صغرهما . . قال الحسن :

— يا عبد الله ، أتذكر يوم كنا نتقاذف الهدف أمام مصلى العيد ، فمر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على حماره يعفور ، مردفا خلفه ابن عباس ، فأخذنى ووضعنى أمامه وتركك !؟

فابتسم عبد الله ، وقد أشرق وجهه الوقور بالسرور وقال :

— أنت واهم يا ابن على ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من أجلى ، ولما لم يجد لى مكانا أمامه أو خلفه ، وضعنى على منكبيه ، وجعل رجلى إلى الأمام ، فكانت فوق رأسك ! ! وكان يداعبنى ويقول ، إياك ورأس أخيك . . ولما أخرج من جيبه تمراً أعطانى قبلك ، وكان يقبض على بيديه ويتركك ! !

وابتسم الإثنان وتعانقا . . وقد غمرت البهجة وجوه الحاضرين . .

وأذن مؤذن الرحيل ، فسار الناس فى طريقهم إلى المدينة ، حتى إذا ما وصلوها شاع الخبر فيهم باقتراب وصول أمير المؤمنين .

ومرت أيام ، ووصل معاوية ، فخرج الناس جميعاً لاستقباله خلف بنى هاشم ، وطابت نفس ابن أبى سفيان بحرارة اللقاء ! !

ترى ، هل قوى أمله اليوم فى قيامه بالمهمة العظيمة ؟؟ أم أن استقباله بالذات هو شيء ، واستقبال خلافة ابنه يزيد شيء آخر ! ؟

إنه يطمع كثيراً فى نجاحه ، وها هو ذا يرى الحسن يعانقه ويبش له ، ويرى الحسين كذلك ، بل ويرى عبد الله بن الزبير يبادله عناقاً بعناق ، وحنانا بحنان . . عندما بادره بقوله : أهلا وسهلا بابن عمة رسول الله . . ليس ذلك فحسب ، بل إن الحسن ليقابله اليوم بقلب ملؤه الصفاء والنقاء ، بل ويتندر معه بلا كلفة ولا هيبة ، حتى لقد قال لمعاوية فى غمرة المرح التى شملتهما ، وهو ينظر إلى وجوه الناس من خلفهما ويشير إلى ابن أبى سفيان ويقول :

— ما أشبه أليتيه بأليتى هند ! !

فيضحك معاوية طويلا للحسن ويقول :

— أما إن ذلك كان يعجب أبا سفيان ! !

* * *

واستقر أمير المؤمنين فى داره ليستريح من متاعب الطريق ، ووعثاء السفر . وليبدأ المهمة الكبرى . . ثم بعث فى طلب أولئك النفر الذين يراهم قوة الحسن الكامنة من ورائه ، فإن هم لانوا لان معهم ، ولان من ورائهم أهل الحجاز كله ، بل وأهل العراق . .

واكتمل عقد الأربعة العظام ، فأجلسهم معاوية فى صدر المكان الرحيب الرهيب ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرجوا . .

ثم بدأ حديثه بقوله :

— الحمد لله الذى أمرنا بحمده . ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده

كثيراً ، كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد ألا إله إلا الله لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإنى قد كبر سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى ، وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيته لكم رضا ، وأنتم عبادلة قريش[1] وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعنى أن أحضر حسنا وحسينا إلا أنهما أولاد أبيهما على حسن رأيى فيهما وشديد محبتى لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيراً يرحمكم الله . .

وأطرق الأربعة العظام فى وجل وإشفاق . . ومعاوية ينتظر الجواب . .

وقام عبد الله بن عباس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ أما بعد : فانك قد تكلمت فأنصتنا ، وقلت فسمعنا ، وإن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرفه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أخصهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذ اختاره الله لها ، فانه إنما اختار محمداً بعلمه ، وهو العليم الخبير ، وأستغفر الله لى ولكم . .

ثم قام على أثره عبد الله بن جعفر ، فحمد الله وصلى على نبيه ثم قال :

---

(١) عبادلة قريش : هم أعظم من تسموا باسم « عبد الله » فى تاريخ المسلمين ؛ وكانوا إذا إتفقوا على رأى . قال الناس إنه رأى العبادلة الأربعة وأخذوا به على الفور . . ومعلوم أن عبد الله بن جعفر ليس رابع العبادلة . وإنما رابعهم هو عبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهم جميعاً .

ــ أما بعد : فان الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن ، فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبى بكر وعمر ، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟ ؟ وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه ، ولأطيع الله وعصى الشيطان ، وما اختلف فى الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية ، فانك قد صرت راعياً ونحن رعية . فانظر لرعيتك ، إنك مسئول عنها غداً . . وأما ماذكرت من ابنى عمى وتركك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم . فقل أو دع . وأستغفر الله لى ولكم . .

وأعقبه عبد الله بن الزبير ، فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله الكريم وقال :

ــ أما بعد : فان هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بمآثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذى الجناحين ، ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خلف حسناً وحسيناً ، وأنت تعلم من هما وما هما . . فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك وأستغفر الله لى ولكم . .

وتبعه عبد الله بن عمر ، فحمد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

— أما بعد : فان هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا كسروية ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك ، كنت القائم بها بعد أبى . . فوالله ما أدخلنى مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطا مشروطا[1] . . وإنما هى فى قريش خاصة لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، من كان أتقى وأرضى ، فان كنت تريد الفتيان من قريش ، فلعمرى إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يغنى عنك من الله شيئا . . وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

وهز معاوية رأسه ، وكأنه قد صدم ، ثم بدأ حديثه ليعقب على ما سمع ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه الكريم وقال :

— أما بعد . . فقد قلت وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابنى أحب إلى من أبنائهم ، مع أن ابنى لو قاولتموه وجد مقالا ، وإنما كان الأمر لبنى عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة . . وقد أخرجك الله يا بن الزبير ، وأنت يا بن عمر منها ، فأما ابنا عمى — وأشار بيده إلى ابن عباس وابن جعفر — فليسا بخارجين من الرأى إن شاء الله .

---

(١) لما قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وخاف الناس على أمر الخلافة من بعده طالبوه باستخلاف من يراه أهلا . . فدعى الستة الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض : عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ؛ وسعد بن أبى وقاص .

ثم دعا ابنه عبد الله ليشترك معهم فى انتخاب الخليفة من بينهم وأمر : إن شذ واحد على إجماع الآراء أن يقتلوه ، وإن شذ اثنان أن يقتلوهما ، وإن تعادل ثلاثة مع ثلاثة كان الخليفة من الثلاثة الذين يؤيدهم عبد الله .

ومكث معاوية ما شاء الله له أن يمكث ، وهو يختبر فى رفق ولين أهل الرأى بالمدينة ، ولكن حب الناس للحسن وخضوعهم لسلطان العبادلة ، كانا أعظم من أن يتغلب عليهما سلطان آخر . ! !

ويشاء الله أن يصل معاوية إلى دمشق وهو ممتلئ الجوانح خوفاً ، فلا يمر كثير وقت ، حتى يصل من خلفه النبأ العظيم . . نبأ وفاة الحسن ! !

٣٨ — مرحلة فاترة . .

مات الحسن بن على ، وقوى أمر يزيد عند معاوية ، فدعا الأمصار فى عزم إلى البيعة له ، وبقى أولئك النفر الذين ناصبوه الخلاف فى الرأى . . وكان الحسين بن على أعظم المخالفين خطراً ، وإن لم يكن هو فى ذاته أعظمهم شكيمة . . إن معه أهل العراق من شيعة أبيه ، وهؤلاء يذيعون فى الآفاق أنهم يحملون فى سبيله مائة ألف سيف ، وأنهم ينتظرون من بنانه إشارة واحدة ، ليخرجوا هذه الأسياف من أغمادها نصرة لخلافته بعد معاوية . . وذلك بالرغم مما كان ولا يزال من قهر الكثير منهم على إعطاء البيعة ليزيد ، عن طريق الولاة .

وإن معه أهل الحجاز كذلك . . وإن كان شعورهم يختلف بعض الشيء عن شعور أهل العراق ، وإن اتفقوا معهم على أن الحسين أولى من يزيد بالخلافة على أقل تقدير . . ولكنهم لا يستطيعون الجهر بالخلاف فى حياة ابن أبى سفيان ، خوفا من بطشه ، خاصة وأن بينهم شيعته من بنى أمية ، وعلى رأسهم ولاته المختارون منهم أيما اختيار . . بل إن أهل المدينة بالذات — وهم القوة النابضة فى أوصال الحجاز — لتتجدد خشيتهم ، كلما هموا بنصرة الحسين . . فهم يذكرون خطبة

معاوية الجامعة ، التى ألقاها منذ سنوات قلائل فى مسجد الرسول بعد مقدمه من الحج ذات مرة ، يتهدد فيها كل من تسول له نفسه بخلافه كائنا هو من كان ! !

وإذا كان أهل الحجاز قد رأوا موقف معاوية من على كرم الله وجهه .. ذلك الموقف الجرىء الذى آلت من بعده مصائر الدولة كلها إليه تحت حد السيف منذ عشرين عاما ، فكيف يكون أملهم فى خلافة الحسين لو أصر معاوية لآخر لحظة فى حياته على استخلاف يزيد ؟

نعم .. إن قلوبهم تنبض بحب الحسين ، لقرابته من رسول الله ، واشتماله على دواعى الخلافة قبل غيره .. فضلا عن أنه كان أحب أهل بيت النبى إليه[1] .. ولكن قلوبهم مع ذلك تنبض بالخوف من معاوية .. وقد صار الناس غير الناس ، والزمان غير الزمان ! !

ولقد كانت الأيام نفسها تجرى بمعاوية فى طريق اليمن نحو غايته ، فما كاد يمر على وفاة الحسن كثير وقت ، حتى مات عبد الرحمن بن أبى بكر ، وقد كان هو الآخر كالصخرة العظيمة فى طريق البيعة ليزيد .. بل إن عبد الرحمن كان فوق ذلك أعنف المخالفين جرأة فى غير روية ، فهو الذى كان يبغض معاوية أشد البغض ، ويعرض به فى ملأ الناس أشنع التعريض ، ويتهمه بالإيعاز بقتل أخيه محمد ابن أبى بكر ، وحرقه بالنار فى جيفة حمار بأرض مصر ، لاتهام أنصار معاوية له بالاشتراك فى قتل عثمان رضى الله عنه .. وكان معاوية الصبور — حيال ذلك التهور — يأبى أن يشتد فى النكير على عبد الرحمن ،

---

(١) سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب أهل بيته إليه فقال : « الحسن والحسين » .

مراعياً جانب الرضى من أم المؤمنين عائشة . . التى ما زال قتل أخيها يحز فى قلبها هى الأخرى رغم ما كان من أمره معها . . والتى لو غضبت من أجل أخيها عبد الرحمن وهو يجهر برأيه الحر فى ميدان الرأى حول الخلافة ، لكان فى ذلك أشد الضرر على آمال شيخ الأمويين فى استخلاف ولده الحبيب .

لقد كان يدعو عبد الرحمن المرة تلو المرة ، ليثنيه عن المخالفة برفق ولين ، فلم يكن ذلك ليجدى فتيلا . . بل إن آخر كلمة وجهها عبد الرحمن لمعاوية فى آخر عهده به أن قال :

— يا معاوية . . والذى نفسى بيده ، لتجعلنها شورى ، أو لأعيدنها جذعة[1] ! !

وإذن . . لم يبق فى طريق استخلاف يزيد اليوم من رؤوس الأمة وقادة الرأى فيها ، غير أربعة نفر ، ما يزالون يملكون قلوب الناس ، ويحركون أهواءهم فى رفض البيعة . . وخاصة فى أرض الحجاز وأرض العراق .. بيد أن معاوية لا يخشى منهم غير رجلين اثنين ، الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير . . بل إن معاوية ليعتقد فى قرارة نفسه أن الخطر الكامن له فى أرض الحجاز ، إنما هو عبد الله ابن الزبير بالذات . . وها هو ذا قد رأى أن سلطان ذلك الرجل لا يزال يغزو القلوب بلا جلبة ولا ضوضاء ، فهو يطغى على النفوس طغيان السحر ، لما تعتقده كل الأمصار فيه — حتى الشام نفسه ، وعلى رأسه معاوية — من الورع فى التقوى ، والصلابة فى الحق ، والجمع بين قوة الدين وقوة البأس . . وحسب ابن الزبير دينا ، أنه قسم الدهر ثلاث ليال ، ليلة يصلى قائماً حتى الصباح ، وليله راكعاً حتى الصباح

(١) جذعة : فتنة جاهلية هوجاء .

وليلة ساجداً حتى الصباح . . وحسبه توفيقا أن أطلق الله لسانه فى سبيله ، ومنحه الحكمة وبلاغة الحجة وحسن الخطاب ، فكان خامس خمسة هم أخطب من عرفهم الناس فى الإسلام . . بل إن معاوية فوق ذلك كله ، ليعتقد أن ابن الزبير لو نادى بالبيعة لنفسه بجانب نداء البيعة ليزيد ، لأحدث انقلابا دامياً دونه أى انقلاب ، ولكن معاوية مع ذلك كله ، يرى أن ابن الزبير ما يزال أكثر الناس خشية من الفتن ، وخوفاً من مسئولياتها أمام الله ، وإن رأى عزمه الكبير قد انعقد على معارضة البيعة ليزيد ، بغية الوصول إلى حل وسط يرى فيه الخير والسلامة ، لو استقر الأمر للحسين بعد موت أخيه . . وفوق ذلك وذلك ، فان معاوية لا يزال يرى حفيد الصديق مبقياً على الإخلاص له طول حياته ، وإن كان قد شاب هذا الإخلاص بعض الشوائب منذ علت نغمة البيعة ليزيد .

ولقد وضح ذلك جليا يوم وقف معاوية فى مسجد الرسول ينشد الناس البيعة لابنه ذات يوم ، فانبرى له ابن الزبير على الفور وقال له جملة واحدة ، قلبت منطقة رأساً على عقب وأذهلت عنه جموع الناس . . لقد قال له حينذاك :

ــ يا معاوية أتريد أن نبايع ليزيد ؟؟ أرأيت إن بايعناه ، أيكما نطيع ؟ أنطيعك أم نطيعه ! ؟

فلما لم يجد معاوية رداً يهدئ به وقع الكلمة فى قلوب الناس كان جوابه على السؤال الدقيق ، ثورة وعنفا . . فقال لابن الزبير :

ــ والله ما أراك إلا قاتلا نفسك، ولكأنى بك قد تخبطت فى الحبالة ! ؟

ثم نزل الداهية من على المنبر وقد أعياه الجواب المقنع فلبث فى داره ثلاثة أيام . لا يخرج فيها إلى الناس ، استعداداً لمحاولة أخرى ! !

ولم يكن عبد الله بن الزبير بالرغم من طغيان سحره ، ليكثر اجتماعه بالناس ، أو دعوتهم إلى رأيه ، فلقد كان يكفيهم منه ، — مؤونة لمعارضة بيعة يزيد — مجرد إشارة عابرة تتخلل أحاديثه بين حين وآخر ، فيكون لهذه الإشارة أشد الوقع فى توجيه موجة الرأى إلى حيث يريد .

لقد ذكر بعض الناس الحسن بن على — قبل موته — فى مجلس ابن الزبير ذات يوم ، كما ذكر غيرهم يزيد بن معاوية ، وكان الجلوس فى شغل شاغل حول الخلافة . . ولم يكن الجمع قاصراً على خاصته وإنما كان جامعاً لمختلف المشارب ، فضلا عن وجود بعض بنى أمية وأمرائهم . . فأعلن ابن الزبير رأيه وسط الحلقة المتباينة دون المساس برأى غيره ، فقال فى منطق الزعيم الداهية المؤمن :

— والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن على .

فكانت هذه الجملة القصيرة ، كالمثاقيل الهائلة فى كفة الحسن الراجحة حينذاك ، فزادتها رجحانا على رجحان .

ولما مات الحسن ، ورأى الناس رضاء ابن الزبير عن خلافة الحسين بعد معاوية دون يزيد ، كان لذلك أعظم القوة لآمال أهل الحجاز فى بيعة الحسين . . حتى إن بنى أمية أنفسهم ، ما كانوا ليستطيعوا معارضة الرأى السائد رغم سلطانهم ، فسارعوا هم الآخرون فى ركاب أهل الحجاز انتظاراً لما تسفر عنه النتائج ، وحتى الذين كانوا يجرون خلف العواطف من بنى أمية ، ويجهرون بالدعوة

لخلافة يزيد دون الحسين . كان إخوانهم من آل بيت معاوية يطلبون منهم العدول عن التشيع لأحد . حقناً للدماء . وإبقاء على الوحدة. واتقاء لغضب قريش . ويذكرونهم بنداء معاوية فيهم منذ قليل . حيث قال :

— يا بنى أمية . فارقوا قريشا بالحلم . فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية : فيوسعنى شتما وأوسعه حلماً . فأرجع وهو لى صديق ، إن استنجدته أنجدنى ، وأثور به فيثور معى . وما وضع الحلم عن شريف شرفه ، ولا زاده إلا كرما ! !

ولـكن معاوية الخالد الحليم ، الذى انفطر على سعة الصدر فى كل المواطن ، قد ضاق ذرعاً بحفيد الصديق . وقد رأى فيه من بلاغة الحجة ، وقوة الإقدام ، ما يعينه على الثبات فى وجهه ، ولو كان وحيداً ! ! بل إن معاوية لو نسى فلن ينسى موقفه منه على ملأ من وجوه قريش . . هذا الموقف الذى أخذ الناس يتحدثون به فى مجامعهم حديث الإعجاب بجرأة ابن الزبير وإيمانه وشجاعته . .

فبينما كان ذلك الملأ فى حضرة معاوية وكان الحديث عن خلافة يزيد يدور بعنف بينه وبين ابن الزبير . . إذ أقبل الحسين بن على ، تلبية لدعوة ابن أبى سفيان . ليعتذر إليه عن كتاب شديد كان قد بعثه ابنه يزيد إلى الحسين على أثر معارضة الحسين لخلافته . . فلما دخل حفيد رسول الله . ساد الصمت وخيم السكون . وقام معاوية مرحباً به ومهللا ، ثم أجلسه على سريره .

وكأن معاوية فى تلك الساعة كان مغضبا من شدة ابن الزبير معه . فأراد أن يأخذ مما كان يدور من الحديث معنى يستأنف به الكلام .

ويتفق وحضرة الحسين فى تلك الآونة ، ويستقيم ومصلحة الخلافة ليزيد . . فما كاد يستقر الحسين فى مجلسه حتى نظر إليه معاوية وهو يستأنف الحديث ، ويشير إلى ابن الزبير بإصبعه ، وقال :

– ترى هذا القاعد . . فإنه يدركه الحسد لبنى عبد مناف ![1]

فأطرق الحسين حياء ، وهو يبتسم لحفيد الصديق ، وكأنه ظن معاوية يداعب بكلامه ابن الزبير . . بينما نظر ابن الزبير إلى معاوية نظرة استخفاف لما صدر منه ، وقال له :

– قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبى سفيان فعلت ! ؟

وهناك ارتعشت يد معاوية ، وبان الغضب فى وجهه وقال :

– قاتلك الله يا ابن الزبير ، ما أعياك وأبغاك ، أتفخر بين يدى أمير المؤمنين وأبى عبد الله – وأشار إلى الحسين – إنك أنت المعتدى لطورك ، الذى لا تعرف قدرك ، فقس شبرك بفترك ، ثم تعرف كيف تقع بين عرانين بنى عبد مناف ، أما والله لئن دفعت فى بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لتقطعنك بأمواجها ، ثم لتوهين بك فى أجاجها ، فما بقاؤك فى البحور إذا غمرتك ، وفى الأمواج إذا بهرتك ؟؟ هنالك تعرف نفسك وتندم على ما كان من جرأتك ، وتمنى ما أصبحت فيه من أمان ، وقد حيل بين العير والنزوان . .

فأطرق ابن الزبير إطراقة عميقة ، هابها الحاضرون لفرط جلاله ووقاره ، ولم يلبث أن رفع رأسه ، والتفت إلى الملأ من حوله وقال :

---

(١) عبد مناف : هو الجد الأكبر الذى يلتقى به معاوية والحسين ، رضى الله عنهما

– أسألكم بالله ، أتعلمون أن أبي حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وأمه هند آكلة الأكباد[1] ؟؟ وجدى الصديق ، وجده المشدوخ ببدر ورأس الكفر[2] ؟؟ وعمتى خديجة ذات الخطر والحسب والنسب ، وعمته أم جميل حمالة الحطب؟ وزوج عمتى خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب « سيصلى ناراً ذات لهب » ؟؟ وخالتى عائشة أم المؤمنين ، وخالته أشقى الأشقين ؟؟ وأنا عبد الله وهو معاوية !؟

أجل . . ما كان معاوية – لو نسى – لينسى مثل ذلك الموقف المحرج ، بل إنه ليذكر معه كيف أنه خرج عن صوابه أمام ملأ قريش وهو يرد على ابن الزبير ، فلم يستسغ الحاضرون رده ، فقد كان الرد غير مقنع ولا كريم . . فيه الدليل كل الدليل على العجز كل العجز . .

وإذا كان ذلك الموقف يعد نادراً ، إذا ذكرت الشجاعة وذكر الإيمان ، إلا أنه كان صورة واحدة من صور شتى لشجاعة عبد الله فى غمرة الخلاف حول الخلافة .

على أن معاوية يدرك – فوق ذلك – أثر عبد الله فى توجيه الرأى ، حتى بين كبار المخالفين ، وعلى الأخص خاله عبد الرحمن بن أبي بكر . .

---

(١) هند : هى التى بقرت بطن حمزة - سيد الشهداء - وهى فى جاهليتها على أثر استشهاده رضى الله عنه فى غزوة أحد ، ولاكت كبده بين أسنانها تشفياً لما أصاب قومها فى غزوة بدر .

(٢) هو جد معاوية لأمه عتبة بن الوليد .

فقد دعاه معاوية يوماً ودعا معه ابن الزبير وابن عمر ، وحادث كل واحد منهم على انفراد .. وكان آخر من اجتمع به معاوية منهم عبد الله ابن الزبير . . فما كاد يراه – بعد أن رأى الإخفاق لازمه مع عبد الرحمن وابن عمر – حتى قال له :

– أنت ثعلب رواغ . كلما خرجت من جحر ، انجحرت فى آخر . . أنت ألبت هذين الرجلين ، وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه ! !

حينذاك تبسم حفيد الصديق ، فقد رأى أن معاوية كان أضعف من أن يرد هو على كلماته بكلمة واحدة ، فتركه وانصرف ! !

بل إن أثر غضب معاوية قد رآه الناس يبدو فى كل مناسبة يذكرون له فيها عبد الله بن الزبير ، ولو على سبيل الصدفة والاضطرار .. لقد بعث ملك الروم ذات مرة برجلين من جيشه يزعم أن أحدهما أقوى الروم ، والآخر أطول الروم ، وبعث معهما كتابا يقول فيه لمعاوية :

– انظر هل فى قومك من يفوقهما فى قوة هذا وطول هذا . . فإن كان فى قومك من يفوقهما ، بعثت إليك من الأسارى كذا وكذا . . وإن لم يكن فى جيشك من هو أقوى وأطول منهما ، فهادنى ثلاث سنين ! !

فلما اجتمع معاوية بأهل شوراه لينظروا ذلك الأمر ، قال معاوية وهو ينظر لأقوى الروم :

– من ترونه لهذا القوى ؟؟

فأجابوه على الفور :

– ماله إلا أحد رجلين . إما محمد بن الحنفية . وإما عبد الله ابن الزبير . .

فما كاد يسمع اسم عبد الله حتى قال :

– بل ائتونى بابن الحنفية[1] ! !

ثم قال معاوية :

– من لهذا الطويل ؟؟

فأجابه أهل الشورى :

– له قيس بن سعد .

وجاء ابن الحنفية وابن سعد . . أما ابن الحنفية فقال لأقوى الروم :

– إما أن تجلس لى أو أجلس لك ، وتناولنى يدك أو أناولك يدى ، فأينا قدر على أن يقيم الآخر من مكانه غلبه ، وإلا فقد غلب .

فقال الرومى :

– أجلس أنت أولا ! !

فجلس ابن الحنفية وأعطى الرومى يده . فاجتهد الرومى بكل ما قدر عليه من القوة والبأس . فما استطاع أن يزيله من مكانه أو يحركه ليقيمه ! !

وترك الرومى يد ابن الحنفية ، وجلس مهزوما ! ! فقال ابن الحنفية :

– الآن تجلس لى . .

---

(١) محمد ابن الحنفية : هو محمد بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأمه من بنى حنيفة .

فقام الرومى بخطى بطيئة يقيدها الخزى ، فجلس ومد يده لابن الحنفية . فجذبه ابن الحنفية فأقامه على الفور ، ورفعه فى الهواء ثم ألقـــاه على وجه الأرض بين وفد الروم ووفد المسلمين فى حضرة معاوية .

وضحك معاوية ، ثم التفت فنادى على قيس بن سعد ، فأقبل وفى يده بعض متاع ! !

فقال له معاوية :

— ما هذا فى يدك ؟؟

فقال قيس :

— بعض سراويلى ! !

وضحك معاوية طويلا ، ثم نادى على أطول الروم وقال :

— البس هذه السراويل ! !

فلبسها الرومى فبلغ أعلاها أنفه، وما تزال أطرافها تخط بالأرض!

واحمرت وجوه وفد الروم . وقد قاموا يحملون هزيمة ملكهم إليه!

ترى . . ماذا كان ، لو أن عبد الله بن الزبير وقف أمام أقوى الروم فى حضرة معاوية .. فصنع به أضعاف ما قد صنع به ابن الحنفية ! ولـكن معاوية لا يسره أن يذهب صيت ابن الزبير أكثر مما ذهب إليه . . وإن قد علم أن حفيد الصديق لفى غنى عن ذلك كله ! ! فحسبه قوة . أن أوصاله مازال يسرح فيها دم رسول الله مذ شربه وهو غلام . وأنه ما رأى شبح الهزيمة فى يوم من الأيام ! !

* * *

واستبد بمعاوية الضيق – وقد رأى صور الخطر تحيط بخلافة يزيد – فاشتد عزمه على المضى فى أخذ البيعة . . وشاء أن يضرب ضربته الأخيرة فى أقوى حصن يهدد البيعة لابنه الحبيب . . فأقبل إلى المدينة مرة أخرى فى وفد عظيم من وجوه أهل الشام وخيرة أجنادهم . . وأوى إلى بيته ثلاث ليال سويا ، يدبر أمره لمواجهة الموقف فى دهاء وقوة ، وقد أعيته الحيل مع أولئك النفر الذين صاروا يهددون سلطانه . . ثم خرج إلى المسجد وقد اجتمع الناس له فيه .

ووقف أجناد معاوية من أهل الشام بسيوفهم حول المنبر حيث يجلس الحسين وابن الزبير وابن عباس وابن عمر ، وأحاط آخرون بالمسجد كله . . وصعد ابن أبى سفيان إلى المنبر ، فحمد الله وصلى على رسوله ثم قال : « يا أهل المدينة . . لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركت قرية ولا مدرة إلا بعثت إليها ببيعته ، فبايع الناس جميعاً وسلموا . . وأخرت المدينة ، وقلت بيته وأصله ، ومن لا أخاف عليه ، وكان الذين أبوا البيعة منهم – وأشار إلى الأربعة – من كان أجدر أن يصله ، ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له » .

وفى هذه اللحظة الرهيبة التى خشع فيها الناس ، وقف الحسين فقاطع معاوية ، وقال :

– والله لقد تركت من هو خير منه أباً وأماً ونفساً .

فقال معاوية :

– كأنك تريد نفسك !

فأجابه الحسين فى صراحة وحزم ، وقال :

– نعم . . أصلحك الله !

فرد عليه الداهية المحنك ، فقال :

– إذن أخبرك . . أما قولك « خير منه أماً » فلعمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها من قريش ، لكان لنساء قريش فضلهن ، فكيف وهى ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم فاطمة فى دينها وسابقتها ، فأمك لعمر الله خير من أمه . . أما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، فقضى لأبيه على أبيك ! !

حينذاك غضب الحسين ، فقاطعه مرة أخرى ، وقال :

– حسبك جهلك ، آثرت العاجل على الآجل .

ولكن معاوية استانف حديثه فى هدوء ، وقال :

– وأما ما ذكرت من أنك « خير من يزيد نفساً » فيزيد والله خير لأمة محمد منك ! !

فازداد غضب الحسين ، فصاح قائلا :

– هذا هو الإفك والزور ! ! يزيد شارب الخمر ، ومشترى اللهو ، خير منى ! ؟

وتبسم معاوية لثورة الحسين ، ولم يشأ أن يشتد فى الرد على أتهامه البالغ ، فقال :

– مهلا عن شتم ابن عمك ، فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك ! !

والتفت معاوية إلى الناس وهو يغالب غضبه – وكأنه يرى فى

كلامُ الحسين شططا لا يعتمد على بينة . ولأنه يثق كذلك أن ابنه لا يزال لهذا اليوم طاهراً من دنس الجاهلية ، غير جاهر بســوء ولا معصية . . بل إن شهوداً لو رأوه فأبلغوا عنه أباه ، فإن الناس لا يعتقدون أن معاوية صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهاون فى حد من حدود الله . . وإذا كان معاوية يعلم فضل الحسين على ابنه فلا يرضاه دونه ، فلأنه ينظر إلى اجتماع الكلمة من بعده ، وحصر الخلاف فى أضيق نطاق مستطاع . وهكذا كان همه إظهار ذلك المعنى لملأ المسلمين – حيث استأنف الحديث فقال :

– أيها الناس ، قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعة هدى ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة . رأى أن يستخلف عمر ، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين . . فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله . وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر . كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين . فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد . لما وقع الناس فيه من اختلاف . ونظراً لهم بعين الإنصاف .

ولم يكد ينتهى معاوية من كلماته بين الخشوع السائد فى المسجد . حتى قام عبد الله بن الزبير على الفور . فى حركة وقورة رهيبة . فاشرأبت إليه الأعناق . وتسلطت عليه الأبصار . واستقر معاوية على المنبر . وقد أرهف حسه ليستوعب كلمات الرجل العظيم . عساه أن يأخذ عليه كلمة تضعف من حجته فى هذا الميدان المضطرم

بالآراء الدقيقة حول الموقف الدقيق . . وبدأ عبد الله خطابه الرزين بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ، ثم قال :

— إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ، فترك الناس على كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر . . ثم رأى أبو بكر أن يستخلف عمر وهو أقصر قريش نسباً ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر أختارهم من المسلمين ، وفى المسلمين ابنه عبد الله وهو خير من ابنك ! ! فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله ، فيختارون لأنفسهم . . وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم . . وإن شئت أن تصنع ما صنع عمر ، تختار رهطاً من المسلمين ، وتزويها عن ابنك فافعل ! !

وانتهى ابن الزبير من حديثه ، ولم يشأ أن يبقى فى المسجد ، وقد رأى معاوية نفسه قد سكت . . بينما أخذ الناس يتهامسون فى إعجاب وانتعاش ! !

واضطر معاوية أن يترك المنبر على الأثر ، فنزل والغضب باد فى وجهه . . فقد خسر الموقف اليوم ، كما خسر غيره من قبل ، وما كاد يصل بيته حتى أحس بضيق لم يره فى حياته من قبل . . اضطر معه الداهية أن يبقى فى البيت ثلاثة أيام أخر ! !

ورأى معاوية فى النهاية ، أن يستعين بدهائه المطلق فى انتزاع البيعة بأى ثمن . . إبقاء على هيبته التى أخذ ينال منها المخالفون الكبار ، وعلى رأسهم ابن الزبير ، فرأى رأيا ، وأقره عليه وفد الشام ورؤوس أجناده . . وبدأت الرواية فصولها بإحضار أولئك الأربعة فى رفق ، فأدخلوا على معاوية فى خلوته ، فقابلهم بما لم يكن فى حسبانهم جميعاً ، لقد أخذ يتودد إليهم بالبشر والترحاب ، ويحادثهم حديث

الود والرجاء . . حتى لقد بدا يخيل إليهم أن حديثه معهم يحمل معنى يتفق وإخلاصهم فيما رأوا ،وفيما أشاروا ، وفيما عارضوا . بل يحمل معنى التراجع المنتظم من شيخ وقور ! !

ودخل بعض الأجناد بعد قليل يحمل أربعة أثواب تلبية لأمر معاوية ، فقام من قعدته وهو يأخذها ، ثم أخذ يمر على الأربعة الكبار فوزعها عليهم . . ثم رجاهم بعد ذلك فى لبسها ، وأخذ يعاونهم وهو باسم الثغر منفرج الأسارير . . فألبس ابن عمر حلة حمراء ، وألبس الحسين حلة صفراء ، وألبس ابن عباس حلة خضراء .. وألبس ابن الزبير حلة يمانية .

وحل وقت العشاء ، وجاء بعض الأجناد ينبه للصلاة ، فقام معاوية وقاموا معه إلى مسجد الرسول ، وكان قد سبقهم الحرس إليه من قبل يعلنون فى جنباته بصوت أهل الشام أن الأربعة قد بايعوا ليزيد . . ونجحت الفكرة الماكرة ، فقد تسابق الناس من قبل العشاء تلبية لنداء أمير المؤمنين ، حتى ملأوا المسجد وما حوله، ووقف جند معاوية بسيوفهم يحيطون الناس . كما وقف بعضهم حول المنبر ، فى انتظار الأربعة العظام ! !

وأقبل معاوية وسط الأربعة يضاحكهم ويلاطفهم . وهم لا يظنون أن أمراً جديداً ينتظر قدومهم . . وأفسح الناس الطريق فدخل ابن أبى سفيان ودخلوا من خلفه . وأخذوا أماكنهم بجانب المنبر . . وقضيت الصلاة ، فبادر الجند بالوقوف ، بينما أعلن كبيرهم فى صوت جهورى رهيب عن رضى الأربعة عن استخلاف يزيد ! !

ونظر الأربعة بعضهم إلى بعض ، نظرة الغيظ والاضطراب

ولكن السيوف كانت قد خرجت من أغمادها من خلفهم ، تهدد حياتهم لو فاه أحدهم بكلمة واحدة ، يؤيد فيها أو يعارض ! !

وامتد بساط البيعة . . بينما استمر الأربعة قعوداً سكوتاً لا تتحرك شفاههم ، خوف الموت الذى تتأرجح أسيافه فوق رءوسهم ، بين أيد جبارة دأبت على الإخلاص لمعاوية .

ولمح الناس أشباح الخطر تتراءى لهم ، غادية بينهم ورائحة ، ورأى معاوية سمات الفزع والاضطراب تعلو الوجوه . . فخاف أن تنقلب الحال فتضيع الآمال ، فنادى بأخذ البيعة والناس قعود فأعطوها بين راض وراغم وموتور . . ولم يظهر من أحدهم خلاف ! !

وبدأ الناس يتفرقون ، حتى لم يبق بالمسجد بعد البيعة سوى بعض وجوه أهل الشام ، ورؤوس جنده . . وهنالك وثب أناس منهم نحو الأربعة ، وهم يقولون لمعاوية :

– يا أمير المؤمنين ، إن كان رابك منهم ريب ، فخل بيننا وبينهم ، حتى نضرب أعناقهم . .

ولكن معاوية لم ير ما يوجب هذا الضرب ، بعد أن بلغ هو مناه بأخذ البيعة من أهل المدينة ، وإن لم يبايع الأربعة اليوم ، فإنهم سوف يبايعون غداً . . حين تهدأ نفوسهم من وقع الصدمة ! ! بل إن معاوية الداهية اللبق أراد أن يبالغ فى كيد الذين طالما كادوا له بمواقفهم القوية الجريئة على ملأ الناس ، وأن يهتبل هذه الفرصة التى ملك فيها أعناقهم ليهبهم عفو القادر ، هو ينتزع منهم البيعة انتزاعاً ، دون أن يعطوها بلسان أو جنان ! ! فما كان جوابه على من طلب أعناقهم من أهل الشام إلا جواب الساخر المتهدد . . فقال :

– سبحان الله ، ما أحل دماء قريش عندكم يا أهل الشام ! !
لا أسمع لهم بسوء ، فإنهم قد بايعوا وسلموا . . وارتضونى فرضيت عنهم !

* * *

وعاد معاوية إلى عاصمة ملكه ، يحمل بين يديه بيعة أهل المدينة لابنه يزيد . . ولكن أمراً واحداً ما يزال يقض مضجعه بالرغم مما كان . . إنه يعتقد فى قرارة نفسه أن خطر ابن الزبير لن يحد منه اغتصاب البيعة من الناس . . وأن خلافة يزيد ، وإن أحاطها السلطان بحده وحديده ، عاما وأعواما . . فإن بقاءها رهين بما تتركه لغة القوة من آثار الاستسلام والرضى . . ولكن هيهات هيهات أن تعيش هذه اللغة بين الأحرار طويلا .

٣٩ – بيعة . . وقبر . . ! !

أحس معاوية باقتراب أجله . . فكان يختلس الساعات الطوال كل يوم ، فينظر بعين خياله من خلال خلافته للمسلمين ، ليزن بميزان الرجاء عاقبته عند ربه . . حتى إذا ما كان يبلغ به الخيال ناحية استخلافه يزيد من بعده ، كانت تتنازعه قوتان جبارتان . . قوة الرضى بما رأى ، وقوة الخوف مما عساه أن يكون . . ولكنه ما كان يطول به القلق كثيراً ، حتى ينحاز إلى جانب الرضى على نغمات الوفود المتلاحقة من كل فج ، تعلن كلمة الطاعة لولاة بنى أمية ، وتؤكد اتساق البيعة فى سائر البلاد للخليفة الجديد .

ولكن أمراً واحداً لا يزال يطغى على فؤاده ، فيشعره بخطر دفين ، لا يستطيع درءه ولا صده ، وإن كان يملك فى قبضته زمام البلاد ورقاب العباد ! !

إنه يعلم أن عبد الله بن الزبير ، والحسين بن على . هما وحدهما أمتان فى رجلين ، وأنه لم يعد سبيل إلى أخذ البيعة منهما ، ولو كان الموت على عنق أحدهما أو كليهما .

وإنه ليذكر كتاب مروان بن الحكم إليه ، حين جسم له خطر الحسين ، حيث قال : « إنى لست آمن أن يكون حسين مرصداً للفتنة ، وأظن يومكم من حسين طويلا » وإنه ليذكر تبعاً لذلك رد الحسين عليه حين حذره مغبة الخروج عليه . . لقد قال له الحسين فى جرأة ما بعدها جرأة : « ما أظن لى عند الله عذرا فى ترك جهادك ، وما أعلم فتنة أعظم من ولايتك أمر هذه الأمة ! » .

وإن وراء ذلك كله ما وراءه لو أن معاوية قضى نحبه دون إيجاد حل أو علاج ، ولكن هل يستطيع ابن أبى سفيان أن يأخذهما بما أخذ به غيرهما من صالحى الأمة منذ بضع سنوات ، تدعيما لكيان دولته الذى كان يتأرجح فى العراق حينذاك ؟؟ هل يستطيع اليوم أن يقتل أحدهما أو كليهما ، كما ارتضى قتل حجر بن عدى وأصحابه رضى الله عنهم . . وكانت جريمة ابن عدى أن ظل باقيا على حبه لعلى كرم الله وجهه ، فما كان يصبر على والى معاوية بالكوفة — زياد بن أبيه[1] — وهو ينتقص عليا على ملأ الناس من فوق المنبر

(١) زياد بن أبيه : ألحقه معاوية بنسبه ، واستشهد بشهود على أنه ابن أبى سفيان من سفاحه فى الجاهلية مع سمية . . ثم استعان به على توطيد ملكه بالعراق . .

وقد كان زياد قبل ذلك من أنصار على ضد معاوية ومن ولاته فى العراق ! !

ظلماً وعدوانا – دون علم معاوية – فيمسك بالحفنة من الحصباء ويحصب بها وجه الوالى دون خوف وهو يقول : إن هذا الأمر – أى الخلافة – لا يصلح إلا فى آل على بن أبى طالب ! !

وكلما ازداد زياد كيداً على مرور الأيام ، كلما ازداد حجر ثباتاً وإقداما ، حتى كاد يثور على زياد خلف حجر مائة ألف من شيعة على ، يريدون محو سلطان معاوية من العراق كله .

وإذا كان معاوية قد استطاع أن يتلمس من الأعذار أضعفها وأوهنها ليبرر صنيعه ، فإنه كان يتلجلج باكياً ، بينما كان الناس يعاتبونه ، بل إنه كاد يخر مغشياً عليه وهو يرد على أم المؤمنين عائشة من وراء الحجاب ، حينما سألته ذات مرة بقولها الساخر :

– أين ذهب حلمك يا معاوية حين قتلت حجرا ؟؟

لقد أجابها فى ضعف وارتعاش ، وكأنه لم يجد ما يرد به عليها فقال :

– حين غاب عنى من قومى مثلك يا أماه ! !

ثم أتبع كلامه وهو يبكى ويتلمس الرضى والغفران ، فقال لها :

– فكيف برى بك يا أمه ؟؟

فأجابته بقولها :

– إنك بى لبار . .

فقال معاوية :

– يكفينى هذا عند الله ، وغداً لى ولحجر موقف بين يدى الله عز وجل . . إنما قتله الذين شهدوا عليه ! !

ثم أجهش بالبكاء مرة أخرى وهو يقول فى صوت مكتوم :

ــ قتله كان أحب إلى من أن أقتل معه مائة ألف .

وإذا كان زياد قد أصابه نكال الله فى الدنيا فمات بالطاعون[1] شر موتة . حتى لقد كانت بطنه تغلى من وطأة المرض غليانا ، فكان يصيح كالمجنون وهو يقول : أأنام أنا والطاعون فى فراش واحد ! ! فإن عبد الله بن عمر الفقيه الزاهد ، قد قال كلمة الحق فيه حول خاتمته ، حين جاء نبأ موته إلى المدينة :

---

(١) كتب زياد مرة إلى معاوية يقول له : « إنى قد ضبطت لك العراق بشمالى ويمينى فارغة ، فارغ لى ذلك ـ وهو يعرض عليه أن يستنيبه على الحجاز أيضا ! ! فلما بلغ ذلك أهل الحجاز ، جاءوا إلى عبد الله بن عمر فشكوا إليه ذلك ؛ وخافوا أن يلى عليهم زياد ؛ فيعسفهم كما عسف أهل العراق . فقام ابن عمر مستقبلا القبلة ، فدعا عليه والناس من ورائه يؤمنون ، فاستجاب الله الدعاء ؛ وأصابه الطاعون .

وفى رواية صحيحة ، أن زياداً جمع أهالى الكوفة ، فلأ بهم المسجد والمرحبة والقصر الذى كان يسكنه ـ وكان مجاورا للمسجد ـ ليعرض عليهم البراءة من على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وكان فى جملة الناس عبد الرحمن بن السائب الأنصارى ، قال : « إنى لمع نفر من أصحابى من الأنصار ، والناس فى أمر عظيم من ذلك وفى حصر ، فهومت تهويمة ـ أى نعست نعسة خفيفة ـ فرأيت شيئاً أقبل طويل العنق ؛ له عنق مثل عنق البعير ، أهدب أهدل ، فقلت : ما أنت ؟؟ قال : أنا النقاد ذو الرقبة ، بعثت إلى صاحب هذا القصر ! ! فاستيقظت فزعاً ، فقلت لأصحابى : هل رأيتم ما رأيت ؟؟ قالوا : لا ! ! فأخبرتهم . . وخرج علينا خارج من القصر فقال : إن الأمير يقول لكم : انصرفوا عنى ؛ فإنى عنكم مشغول . . وإذا الطاعون قد أصابه » .

ويروى أن زيادا استعان بمائة وخمسين طبيباً ـ منهم ثلاثة كانوا يطببون كسرى ابن هرمز ـ ليداووه ، فعجزوا من رد القدر المحتوم والقضاء المحموم . . والله أشد بأساً وأشد تنكيلا .

— اذهب إليك يا ابن سمية ، فلا الدنيا بقيت لك . ولا الآخرة أدركت .

* * *

وإذن . . فما أخوف معاوية ، أن يلجأ إلى سلاح القتل فى حمل المؤمنين الكريمين على البيعة لابنه . . على الرغم مما كان من أثر رفضهما هذه البيعة . وما ظهر بسببهما من تجاوب واضطراب وقلاقل فى أرض الحجاز وأرض العراق . . اضطر معها ابن أبى سفيان أن يمزج حزمه الشديد بالصرامة والعنف ، حتى حمل الناس فى النهاية على البيعة حملا ، إنه لا يستطيع أن يختم حياته بالجرم دون العفو ، خاصة وأن أمامه اثنين . هما فى نظره هو من خيار الأمة إن لم يكونا خيارها . . فأحدهما هو ابن على كرم الله وجهه الذى غضب الله من أجله على زياد فى الدنيا قبل الآخرة . . وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسينا . حسين سبط من الأسباط . . » والآخر هو ابن خامس خمسة آمنوا بالله ورسوله . والدنيا كلها كانت تخب فى أثواب الشرك والكفران ، وهو الذى هاجر فى بطن أمه . ودخل المدينة وليداً يشرق وجهه بأحسم نصر للاسلام بعد الهجرة بقليل . وكان أول مولود للمسلمين فردوا به كيد اليهود فى نحورهم . حين أشاعو بين الناس أنهم سحروا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم — فلا يولد لهم مولود ، وهو الذى حنكه رسول الله . فكان أول شىء دخل جوفه هو ريق النبى ، وهو الذى شرب دم رسول الله ساعة أن احتجم . واستعظم أن يهرقه على الأرض . . وهو الذى اتخذته عائشة أم المؤمنين ولداً لها ،

فقرن صلى الله عليه وسلم اسمها باسمه لفرط حبها له ، وأطلق عليها « أم عبد الله » فشب فى كنف النبوة منذ سار على قدميه ، حتى فارق رسول الله دار الفناء إلى دار البقاء .

وهكذا آثر معاوية أن يترك أمر الرجلين العظيمين للأيام . . حتى يترك وصيته لابنه على ضوء ما يكون من شأنهما فى آخر لحظاته فى الحياة .

* * *

وبينما كان معاوية فى شغل شاغل ذات يوم بما يدور فى العراق رغم أخذ البيعة من أهله عن طريق الولاة . . إذ بالآذن يخبره بمقدم عبيد الله بن زياد[1] — واليه على البصرة — على رأس وفد من وجوه أهلها ، فيهم الأحنف بن قيس صاحب الرأى والخطر فى العراق كله .. لإعطاء البيعة ليزيد . فما كاد معاوية يسمع حتى هرول إليهم وصافحهم وأكرمهم . .

ودار الحديث فى لباقة وحنكة بين داهيتين ، يعرفان كيف يتحدثان أحدهما إلى الآخر فى أمر يختلفان فيه — منذ بعيد — كل الاختلاف ، وإن جمع بينهما الإخلاص والوقار .

ورأى معاوية أن يزيل كثيراً مما هو عالق بذهن الأحنف حول يزيد . . فأراد أن يدعوه لمحادثته وجهاً لوجه — وعلى انفراد — عساه أن يغير رأيه فيه فى ساحة الاختبار ! !

ولبى الأحنف الرجاء . . فلما عاد بعد قليل ، سأله معاوية على ملأ الناس ، فقال :

---

(١) هو ابن زياد بن أبيه .

— ماذا رأيت من ابن أخيك ؟؟

فأجابه الأحنف على الفور :

— إنا نخاف الله إن كذبنا ، ونخافكم إن صدقنا ؛ وأنت أعلم به فى ليله ونهاره ، وسره وعلانيته . ومدخله ومخرجه . وأنت أعلم بما أردت . وإنما علينا أن نسمع ونطيع . . وعليك أن تنصح للأمة . .

ولم يستطع معاوية أمام بلاغة الحجة ، وسلامة المنطق ، إلا أن يقوم على ملأ الناس ، وقد تنازعته عوامل الرضى والخوف مرة أخرى ، فانطلق لسانه يقول فى قوة ووضوح وإيمان :

— اللهم إن كنت تعلم أنى وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك ، فأتمم له ما وليته ، وإن كنت وليته لأنى أحبه . فلا تتمم له ماوليته .

وابتسم الأحنف . وابتسم وفد العراق . فلقد كانت النية فى كلام معاوية أبلغ من المنطق . . فأعطوا البيعة راضين غير مكرهين .

* * *

ونزل مرض الموت بساحة معاوية . فامتد جسده على سريره يعانى قسوة الألم .. وجلس أهل الشورى من حوله يصرفون جلائل الأمور تحت بصره . ويستمعون إلى ما يمليه عليهم من وصايا . .

وانقلبت عين معاوية إلى الوراء — فجأة — فى يوم من أيام الشدة وظن الناس أنه يعانى سكرات الموت ، ولـكن يزيد كان فوق رأسه . ففهم رغبة أبيه ، فركع برأسه يستمع إلى ما يريد من قول . فأخذ معاوية يغالب المرض وهو يقول :

— يا بنى إنى قد كفيتك الرحلة والترحال . ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعزاء . وأخضعت لك أعناق العرب . وإنى لا أتخوف

أن ينازعك هذا الأمر الذى أسسته إلا ثلاثة نفر : الحسين بن على ، عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . . فأما ابن عمر ، فهو رجل ثقة قد وقدته العبادة ، وإذا لم يبق غيره بايعك . وأما الحسين . فإن أهل العراق خلفه . لا يدعونه حتى يخرجوه عليك . فإن خرج فظفرت به فاصفح عنه . فإن له رحما ماسة وحقاً عظيما . . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد . ويراوغك روغان الثعلب . وإذا أمكنته فرصة وثب . فذاك ابن الزبير . فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً ..!!

* * *

وطال المرض بمعاوية بين شدة وخفة . حتى ظن يزيد أن الموت ما يزال عنه بعيداً . . فاستأذنه فى العودة إلى رحلته التى قطعها . وكانت للصيد فى بعض ربوع الشام . فأذن له الأب الرحيم . .

وجاءت سكرة الموت بالحق . ليغادر معاوية الدار الفانية . فأخذ يتململ من هول النازلة فى وقار مهيض . . ثم أشار إلى الضحاك ابن قيس الفهرى – صاحب شرطة دمشق – وإلى مسلم بن عقبة من أصحاب سره وشوراه . فلما وقفا بين يديه . . قال :

– أنزلانى على الأرض .

فلما أنزلاه قال لهما على ملأ الناس فى حضرته :

– بلغا يزيد منى السلام . وأبلغاه أن يتوصى بأهل الحجاز خيرا . وإن سأله أهل العراق فى كل يوم أن يعزل عنهم عاملا . ويولى عليهم عاملا فليفعل . فعزل واحد أحب إليه من أن يسل عليه مائة ألف

سيف ، وأن يتوصى بأهل الشام ... ولست أخاف عليه من قريش سوى ثلاثة : الحسين . وابن عمر ، وابن الزبير ، أما ابن عمر ، فقد وقذته العبادة،وأما الحسين فرجل ضعيف،وأرجو أن يكفيه اللهتعالى إياه بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وأن له رحما ماسة وحقاً عظيما ، وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فإن قدر عليه فليصفح عنه . فإنى لو صاحبته عفوت عنه ، وأما ابن الزبير . فانه خب ضب . فإن شخص له . فلينبذ إليه إلا أن يلتمس منه صلحاً ، فان فعل فليقبل منه ، وليصفح عن دماء قومه ما استطاع .

ثم نظر معاوية إلى الرجلين وإلى من حوله . وقد ملأ الدمع عينيه . . وقال :

– كفنونى بثوب رسول الله الذى كسانيه . فقد ادخرته لهذا اليوم ، واجعلوا ما عندى من شعر رسول الله وقلامة أظافره فى فمى وأنفى وعينى وأذنى .

ودقت ساعة الرحيل . وبلغت الروح الحلقوم. واشتدت الأوجاع والآلام . فراح معاوية يضع خده على الأرض . ثم يقلب وجهه . ويضع الخد الآخر ويبكى . وكأنه يقرأ صفحات حياته وهى تطوى بين عينيه صفحة إثر صفحة . ويقول :

– اللهم إنك قلت فى كتابك : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » اللهم فاجعلنى فيمن تشاء أن تغفر لهم . . اللهم أقل العثرة . واعف عن الزلة . وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك ، فإنك واسع المغفرة . ليس لذى خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك .

ثم أجهش معاوية بالبكاء فجأة وهو يغرغر بالموت ويقول :

ـ إن يومى بك يا حجر بن عدى لطويل . .

إن يومى بك يا حجر بن عـــدى لطويل . .

إن يومى بك يا حجر بن عـــدى لطويل ! !

ثم سكت الصوت الذى هز أطراف الأرض من أقصاها إلى أقصاها عشرات السنين .

سكت إلى الأبد . .

٤٠ ـ العـــائذان . .

كان الجو صحواً فى ساعة من ساعات الضحى . وقد تصدر الحسين بن على وعبد الله بن الزبير حلقة من المسلمين بالمسجد . . وبينما كان حديث الإيمان يطغى على الناس طغيان السحر ، إذ دخل رسول من الوليد بن عتبة بن أبى سفيان أمير المدينة يطلب الحسين وعبد الله . على عجل .

وتبسم الرجلان العظيمان ، وكأنهما رأيا فى دعوة الأمير أمراً كانا يتوقعانه من قبل . . وهمس الحسين فى أذن عبد الله وقال :

ـ إنى أرى طاغيتهم قد هلك ! !

فأجابه عبد الله ، فقال :

ـ وأنا ما أظن غيره . .

ثم نظر الاثنان إلى الرسول وقالا :

ــ انصرف . . الآن نأتيه .

ولم يشأ عبد الله بن الزبير أن يصحب الحسين إلى الأمير . فقد كانت الخطة مرسومة على أن يرى الحسين ما كان من حدث ، وما يكون من أمر .

ودخل ابن الزهراء دار الإمارة . وقد ترك مواليه بالباب . فوجد الوليد يجلس إلى مروان بن الحكم . فتعجب للأمر . . إنه يعلم أن بين الرجلين قطيعة وخصومة . وما كان ليجمعهما إلا أمر عظيم قد طغى على الخلاف العظيم . . لعله مصيبة بنى أمية جميعاً فى موت معاوية . .

وتجاهل الحسين إحساسه الملهم . . وأراد أن يفهم الرجلين أنه يظنهما قد أرسلا إليه للإصلاح بينهما . . فقال بعد السلام :

ــ الصلة خير من القطيعة . أصلح الله بينكما ! !

فتحرج الرجلان من الرد . وأسرعا إليه يستقبلانه فى وقار يشوبه غم وحزن . . وأجلساه بينهما .

وأخرج الوليد كتاباً . وأعطاه للحسين وقال :

ــ اقرأ كتاب أمير المؤمنين إلى .

فلما فضه الحسين قرأه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبه . أما بعد : فإن معاوية كان عبداً من عباد الله . أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له . فعاش بقدر ومات بأجل . فرحمه الله . فقد عاش محموداً ، ومات باراً تقياً . . والسلام .

فلما انتهى الحسين من قراءته ، قال :

– إنا لله وإنا إليه راجعون ، ورحم الله معاوية ، وعظم لك الأجر .

ونظر الحسين إلى الوليد فرأى بيده كتابا كأذن الفأرة يعبث به بين أصابعه فى تشبث واهتمام ، وكأنه يريد أن يقول شيئاً ! ! ففهم أنه كتاب آخر من يزيد . يحوى أمره بأخذ البيعة بشدة من النفر الذين ما يزالون يرفضون البيعة . فأراد أن يسأله عما يريد ، فقال :

– وماذا تريد أن تصنع ؟؟

– البيعة .

– إن مثلى لا يعطى بيعته سراً . ولا أراك تجتزىء بها منى سراً . دون أن تظهرها على رءوس الناس علانية .

وتحير الوليد فى أمره . ولم يشأ أن يطيل الحديث . خوفاً من أن ينقلب إلى شدة ونزاع قبل أن يفشو فى الناس نبأ موت معاوية . فقال للحسين :

– فانصرف على اسم الله ، حتى تأتينا فى جماعة الناس .

وظهر الغضب فجأة على وجه مروان . فلم يستطع أن يكبت عواطفه . ولم يلبث أن قال للوليد :

– والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع . لاقدرت منه على مثلها أبداً . حتى تكثر القتلى بينكم وبينه . احبس الرجل ولا تخرجه حتى يبايع أو تضرب عنقه !

ونهض الحسين مغضباً . والتفت إلى مروان وقال :

– يا ابن الزرقاء . . أنت تقتلنى ؟؟ كذبت والله وأثمت . .

ثم التفت إلى الوليد ، ومد يده إلى عمامته فنزعها بقوة على مرأى من مروان وقال :

— هو يزيد الذى نعرف ، والله ما حدث له عزم ولا مروءة .

واتجه الحسين إلى الباب ، فلم يستطع أحد أن يحدق فيه بعينيه رهبة وخشوعا .

وفى هذه اللحظة الرهيبة ، التفت مروان إلى الوليد وقال :

— والله لن تراه بعدها أبداً .

هنالك أخذت الوليد رعشة . . فنظر إلى مروان وقال :

— والله يا مروان ، ما أحب أن لى الدنيا وما فيها وأنى قتلت الحسين . . سبحان الله ! أقتل حسينا إن قال لا أبايع ؟؟ والله إنى لأظن أن من يقتل الحسين يكون خفيف الميزان يوم القيامة . يا مروان ، إن ذلك لدم مضنون به . مصون فى بنى عبد مناف .

* * *

وبعث الوليد إلى عبد الله بن الزبير . فامتنع عليه وأبى أن يجيبه ، وظل الحال بينهما بين طلب ورفض حتى بلغ الأمر حد التوتر ، فتجهز ابن الزبير . لمغادرة المدينة . فخرج فى جنح الليل يصحب أخاه جعفرا . ومن خلفه مائة من مواليه من كل الألوان واللغات . . واتجه إلى مكة البلد الحرام . . ليلوذ بالبيت ، وليأمن فيه شر الناس .

وخرجت قوة من قوات المدينة — رجالا وفرسانا — لتحول بين ابن الزبير وبين مرماه ، ولكنها لم تستطع له صداً ولا رداً .

واستأنف الركب مسيره فى ظلام الكون ، واقترب جعفر من ركب أخيه وهو يبكى بصوت حزين ، فقال له عبد الله :

ـ ما يبكيك يا ابن أم ؟ ؟

فازداد جعفر بكاء وهو خائف على مصير أخيه . وما لبث أن تمثل بقول صبرة الحنظلى فقال :

وكل بنى أم سيمسون ليـــلة ولم يبق من أعقابهم غير واحد

فغضب عبد الله وقال :

ـ سبحان الله ! ما أردت إلى هذا ؟؟

فأجابه جعفر . وقد تراجع أمام هيبة أخيه فقال :

ـ والله ما أردت به شيئا يسوءك . .

فقال له عبد الله :

ـ إن كان إنما جرى على لسانك فهو أكره إلى . .

وهناك صمت جعفر . وامتنع عن البكاء . .

وبعد ليلتين . لحق الحسين ومن معه من آل بيته بابن الزبير . بعد منتصف الطريق . . وعند الأبواء التقيا بابن عباس وابن عمر وكانا عائدين من مكة إلى المدينة بعد العمرة . .

وتعجب ابن عباس وقال للحسين وابن الزبير :

ـ ما وراءكما ؟؟

ـ موت معاوية . والبيعة ليزيد بن معاوية ! !

وخاف عبد الله بن عمر سوء العاقبة . فتراجع عن موقفه فى رفض البيعة بعد موت معاوية . لأنه يعلم أن يزيد غير أبيه دينا وتقوى . وأنه لن يصبر حتى يأخذ البيعة من معارضيه ، أو يأخذ رءوسهم . . وفى ذلك ما فيه من فتنة لا يعلم إلا الله مداها . . هنالك قال لهم وقد ملأ الألم فؤاده :

— أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما فى صالح ما يدخل فيه الناس،. وتنظرا ، فإن اجتمع الناس عليه لم تشذا . وإن افترقوا عليه ، كان الذى تريدان . .

وواصل كل مسعاه . . فوصل الحسين وابن الزبير إلى مكة ، ووصل ابن عباس وابن عمر إلى المدينة . . فلما جاء وقت البيعة العامة فى الأمصار .. كان غضب يزيد قد اشتد على الوليد لتفريطه فى أمر الحسين وعبد الله . فعزله . وأضاف إلى عمرو بن سعيد بن العاص والى مكة ولاية المدينة . . حتى يستغل قسوته وشدته فى الانتقام من مخالفيه . .

واستدعى عمرو الحسين وعبد الله . فأبيا إلا أن يعتصما بالبيت الحرام . . فلم يجد عمرو بداً من أن يسير إليهما فى صحن البيت . . وهناك ظهرت له عزمتاهما على المضى فى الرفض وإن كان ما يكون ! ! ولكن حرمة البيت والتفاف الناس حولها ، حالت بينه وبين الانتقام منهما . . فقد قالا له على رءوس الأشهاد وقد اشتد الحديث بينه وبينهم : « إنا جئنا عواذاً بهذا البيت » ثم تركاه وانصرفا إلى ركن آخر من أركان الكعبة ! !

ولزم كل من الرجلين العظيمين مصلاه فى البيت الحرام ، فكان مجلسهما كعبة للناس داخل الكعبة ، ولم يلبث أن عظم أمر الحسين بين الناس من جديد . . فهم قد أدركوا أن ابن الزبير زاهد فى الخلافة ما بقى فى الحسين عرق ينبض . . لقد رأوه يتردد فى غبون كل ليلة إلى مجلس الحسين كواحد من الناس ، يسعى فى تعظيم قدره وحقه . ويبذل له من ذات نفسه أخلص الوفاء والولاء ، ويجلس منه مجلس المطيع من المطاع . .

* * *

وبلغ يزيد خطر الحال فى الحجاز ، فبعث إلى عمرو يطلب القبض على ابن الزبير حتى وإن بايع ، وأن يأتيه به فى غل من ذهب أو فضة حول عنقه وتحت ملابسه ، حتى يسمع صوته على طول الطريق إلى الشام ! !

ورأى عمرو بن سعيد أن يلجأ إلى سلاح الوقيعة بين ابن الزبير وبين إخوته فى المدينة ، فراح يستعين ببعضهم على البعض الآخر ، يعطى ويؤمن من آزره ، ويحرم ويؤذى من عارضه . . حتى استطاع فى النهاية أن يجتذب عمرو بن الزبير[1] إلى صفه . . فولاه شرطة المدينة . . فراح الأخ ينكل بإخوته وأبناء إخوته ومن سار فى ركابهم لنصرة عبد الله دون رحمة أو شفقة ، حتى إنه ضرب أخاه المنذر وابنه محمداً بن المنذر وخبيب بن عبد الله بن الزبير كما ضرب المخلصين من أنصار أخيه وقد كانوا من الصحابة وأبناء الصحابة والتابعين . . ضربهم من الأربعين إلى الخمسين إلى الستين جلدة . . وكأنما كان يشرع حدوداً ومعاذير . . ليبالغ فى الكيد لأعداء الخليفة الجديد ! !

وسمع ابن الزبير بما يفعله أخوه بأعوانه وآل بيته فى المدينة تنفيذاً لإرادة عمرو بن سعيد . . فحزن لذلك أشد الحزن . . ثم رأى أن يجابه الموقف بحزم وشدة ، وأن يأخذ للأمر أهبته دون ضعف أو لين ، وأن يجهر بعدم الرضى عن الخليفة وأعوانه ، فمنع الحارث ابن خالد المخزومى ـ نائب الأمير فى الصلاة ـ من أن يصلى بالناس بمكة . . فرضى أهل مكة بما رأى حفيد الصديق . .

---

(١) هو أخو عبد الله بن الزبير من أبيه . .

وهاجت المدينة وماجت ، حين وصل البريد ينقل غضب يزيد وثورته من دمشق،ويحمل أمر الخليفة الشاب بقتال ابن الزبير والقضاء على خطره العظيم . .

وأسرع عمرو بن سعيد فى تجهيز السرية المقاتلة ، ثم جمع أعوانه لاختيار من يقوم على رأسها . . فقام إليه عمرو بن الزبير وقال :

ـ إنك لا تبعث إليه من هو أنكى له منى ! !

وأسرع أبو شريح الخزاعى يشق طريقه إلى عمرو بن سعيد . وسط الناس داخل المسجد وهو يقول :

ـ إيذن لى أيها الأمير أن أحدثك حديثاً قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم . الغد من يوم الفتح . سمعته أذناى . ووعاه قلبى حين تكلم به . إنه حمد الله وأثنى عليه وقال : « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس . وإنه لم يحل القتال فيها لأحد كان قبلى . ولا تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار . ثم قد صارت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس . فليبلغ الشاهد الغائب فإن . . أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها . فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » .

فهز عمرو رأسه هازئاً وقال :

ـ نحن أعلم بذلك منك يا أبا شريح . إن الحرم لا يعيذ عاصيا !

وقام مروان بن الحكم وقال لعمرو :

ـ لا تغز مكة واتق الله . ولا تحل حرمة البيت ، وخلوا بين ابن الزبير فقد كبر . هذا له بضع وستون سنة . وهو رجل لجوج والله لئن لم تقتلوه ليموتن ! !

فرد عليه عمرو بن الزبير وقال :

– والله لنقاتلنه ولنغزونه فى جوف الكعبة ، على رغم أنف من رغم ! !

* * *

وقامت الحرب بين عبد الله بن الزبير وأهل مكة . وبين أخيه عمرو فى ألفين من المقاتلين من جند يزيد . ولم تكن إلا جولة واحدة حتى تحقق وعيد الله لأعداء البيت . فهزمهم عبد الله شر هزيمة . وتفرق عن عمرو جميع أصحابه أمام بأس أخيه وشدته ، حتى لقد فر من فر وهو لا يرى النجاة . . وهرب عمرو نفسه ليحتمى تحت سقف إحدى الدور . فجىء به إلى عبد الله . فلم يشأ أن يظلمه فى الأخذ . ولكنه اقتص منه لمن ضربهم بالمدينة من إخوته وأبنائه وأنصاره . فمات فى السجن غير مأسوف عليه من أثر السياط . .

وما كاد يشيع فى الآفاق نبأ هذه الواقعة الخطيرة . والناس لا يحملون بين جوانحهم لعبد الله غير الإجلال والتعظيم . حتى شاع ما هو أدهى وأعظم . . لقد شاع أن أهل العراق قد أرسلوا رسلهم بالبيعة للحسين بن على . وأن الحسين قد قبلها . .

٤١ – شهيد كربلاء . .

تتابعت رسل أهل العراق إلى مكة . يستعجلون قدوم الحسين إلى الكوفة لأخذ البيعة من الناس . . ويحملون إليه من الكتب ماجاوز المائة عداً ، كلها تنطوى على الولاء له دون سواه . .

واختلى حفيد الرسول بحفيد الصديق ذات مساء فى جوف الكعبة ،

يطلب رأيه ومشورته على ضوء ما سمعاه معاً ، من آخر وفد عراقى أقبل فى مائة رجل ، يعلن باسم رءوس الناس اجتماع الكلمة عليه . . وأخذ الحسين يفض كتبهم كتاباً كتاباً وهو يقرأ لعبد الله بن الزبير ما حوته من معانى الوفاء والتسليم .. حتى انتهى إلى آخر كتاب فقرأه فاذا فيه :

— أما بعد ، فقد اخضرت الجنان ، وأينعت الثمار ، ولطمت الجمام ، فاذا شئت فأقدم على جند لك مجندة والسلام . .

وسكت الحسين ينتظر رأى عبد الله ، ولكن عبد الله ظل مطرقاً لا يتفوه بكلمة . . إنه لا يرى حماسة أهل العراق فى حضرة الحسين ، دليلا على صدق النصرة وقوة العزيمة . . وإنه لا يرى فرحهم بموت معاوية إلا لوناً من ألوان الضعف ، يبدو على وجوه المستضعفين كلما سمحت الظروف . . وهيهات هيهات أن يقوم للضعفاء أمر . . وكأن ابن الزبير قد غضب لمعاوية فى قبره مما نالته به كتب أهل الكوفة وألسنتهم . . فما استطاع إلا أن يدافع عنه دفاع الأحرار . . فرفع رأسه إلى السماء وقال :

— لله در ابن هند ، إن كنا لنفرقه وما الليث على برائنه بأجرأ منه ، فيتفارق لنا ، وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه ، فيتخادع لنا ، والله لوددت أن متعنا به مادام فى هذا الجبل حجر — وأشار إلى أبى قبيس . .

ثم عاد حفيد الصديق إلى إطراقه من جديد ، والحسين صامت ينتظر . . فلما طال انتظاره ، بادر عبد الله بقوله :

— أتتنى بيعة أربعين ألفا يحلفون بالطلاق والعتاق أنهم معى . . وقد أبوا بيعة يزيد . .

ورفع ابن الزبير رأسه فى انفعال ظاهر . والتفت إلى الحسين ، قال :

— أتخرج إلى قوم قتلوا أباك وأخرجوا أخاك !؟ أو ما تذكر يا أبا عبد الله نعت أبيك لهم على منبر الكوفة حين قال فيهم : « والله لقد مللتهم وأبغضتهم . وملونى وأبغضونى . وما يكون منهم وفاء قط . ومن فاز بهم . فاز بالسهم الأخيب . والله ما لهم نيات ولا عزم على أمر . ولا صبر على السيف . . »

* * *

واستقر رأى الحسين على أن يبعث إلى أهل العراق بابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب . وأن يبعث معه كتابه إلى أهل الكوفة . حتى إذا ما اتسقت له البيعة فيها . سار إليها فى أهله وذويه .

ولم يمض كثير حتى وصل إلى مكة رسول ابن عمه إليه يطلب مجيئه على عجل . ويعلنه ببيعة ثمانية عشر ألفا . قد أقسموا بالله جهد أيمانهم لينصرنه بأنفسهم وأموالهم . .

وعلم الناس بعزم الحسين على الخروج . فخافوا عليه سوء المصير . وأسرعوا إليه خلف بنى هاشم ليثنوه عن الوجهة الرهيبة . . وتقدم منه عبد الله بن عباس فقال :

— يا ابن عم . إنى أتصبر ولا أصبر . إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك . . إن أهل العراق قوم غدر . فلا تغترن بهم . .

أقم فى هذا البلد حتى ينفى أهل العراق عدوهم ثم أقدم عليهم ، وإلا فسر إلى اليمن . فإن به حصونا وشعابا ، ولأبيك به شيعة ، وكن عن الناس فى معزل . واكتب إليهم وبث دعاتك فيهم ، فإنى أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون ما تحب . .

فقال الحسين :

ـ يا ابن عم . والله إنى لأعلم أنك ناصح شفيق . . ولكنى قد أزمعت المسير . .

واستبد الخوف بابن عباس على ابن عمه فقال :

ـ يا ابن عم . . لا تبرح الحرم . فإنهم إن كانت بهم إليك حاجة فسيضربون إليك آباط الإبل حتى يوافوك . فتخرج فى قوة وعدة . .

فأجابه الحسين فى حزم وإصرار . فقال :

ـ يا ابن عم . . إنى قد أزمعت المسير .

وبينما هما على هذه الحال بين الناس . إذ بغلام يحمل إلى الحسين كتابا من عمرة بنت عبد الرحمن . . ففضه فإذا هى تقول فيه : « أشهد لسمعت عائشة تقول ، إنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « يقتل الحسين بأرض بابل » فلما قرأه قال :

ـ فلابد لى إذن من مصرعى !! إنى رأيت رؤيا ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى بأمر ، وأنا ماض له ، ولست بمخبر بها أحداً ، حتى ألقى ربى عز وجل !!

ويئس ابن عباس . فاستبد به الغضب ، وهو يكتم أمر كتاب

يزيد إليه ، حيث يتهدد الحسين ويتوعده لو هو سار إلى العراق ، فقال :

– يا ابن عم ، والله إنى لأظنك ستقتل غداً بين نسائك وبناتك كما قتل عثمان بين نسائه وبناته ، والله إنى لأخاف أن تكون أنت الذى يقاد به عثمان !! فإنا لله وإنا إليه راجعون . .

فرد عليه الحسين مغضباً وقال :

– أبا العباس ! إنك شيخ قد كبرت !!

فضاق ابن عباس به صدراً فقال :

– لولا أن يزرى ذلك بى وبك ، لنشبت يدى فى رأسك ، ولو أعلم أنا إذا تباصينا أقمت ، لفعلت . . ولكن لا أخال ذلك مانعك ، فإن كنت ولابد سائراً ، فلا تسر بأولادك ونسائك ، فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه .

ونظر ابن عباس إلى عبد الله بن الزبير ، فهاجه صمته وسكوته بين الناس ، فهو لو تكلم ، فلربما كان لكلامه حساب وحساب . . فما صبر أن قال له :

– يا ابن الزبير ، قد أتى ما أحببت ، قرت عينك !! هذا أبو عبد الله خارج ويتركك والحجاز . . ثم أنشد يقول :

يـا لك مـن قنـبرة بمعمر　　　خلالك الجو فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى　　　صيادك اليوم قتيل فابشرى

وتبسم عبد الله بن الزبير ، فزاد هياج ابن عباس . . فترك المكان وخرج . .

وتقدم حفيد الصديق من الحسين . وأمسك بردائه وقال :

– أين تذهب ؟؟ إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك !؟

فأجابه الحسين فى إصرار شديد :

– لأن أقتل بمكان كذا وكذا . أحب إلى من أن أقتل بمكة وتستحل بى . .

* * *

وبعث الحسين رسوله إلى المدينة . ليقدم عليه نساؤه وبناته وإخوته ومن خف معهم من بنى عبد المطلب . . فلما وصلوا إليه بمكة ، وصل معهم رسول من عمرو بن سعيد – والى مكة والمدينة – يحمل إليه كتاباً يقول فيه : « بلغنى أنك قد عزمت على الشخوص إلى العراق . وإنى أعيذك الله من الشقاق . فإنك إن كنت خائفا ، فأقبل إلى ، فلك عندى الأمان والبر والصلة . . »

فكتب إليه الحسين يقول :

– إن كنت أردت بكتابك برى وصلتى . فجزيت خيراً فى الأولى والآخرة ، وإنه لم يشاقق من دعا إلى الله وعمل صالحا ، وقال إننى من المسلمين . وخير الأمان أمان الله . ولم يؤمن بالله من لم يخفه فى الدنيا ، فنسأل الله مخافة فى الدنيا توجب لنا أمانا يوم القيامة عنده . . والسلام .

وسار حفيد الرسول بأهله وعشيرته ، حتى إذا ما صار بينه وبين المدينة مسيرة ثلاث ليال . لحق به عبد الله بن عمر ، ليثنيه عن العزم الخطير . . فبادره بقوله بعد السلام .

– أين تريد يا أبا عبد الله ؟؟

— أريد العراق . .

— العراق !؟

— أجل . . وهذه كتب أهله إلى .

— لا تأتهم . .

— لسوف آتيهم إن شاء الله تعالى . .

— يا أبا عبد الله ، إنى محدثك حديثا . . إن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فخيره بين الدنيا والآخرة . فاختار الآخرة ، ولم يرد الدنيا ، وإنك بضعة من رسول الله . والله ما يليها أحد منكم أبدا[1] ، وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خير لكم .

— جزاك الله من ناصح شفيق . ولكنى قد أزمعت المسير .

وطال الحديث بينهما . ويئس ابن عمر من زعزعة الحسين عن رأيه قيد أنملة . . فغلبه البكاء فاعتنقه . وصار يقبله وهو يقول :

— أستودعك الله من قتيل ! !

* * *

وتحققت أحاسيس الخائفين على مآل الحسين وآل بيته . وصدقت فراستهم فى مصيره بأرض العراق يوم سار إليها ثقة بأهلها فى إعطاء بيعتهم له وإجلائهم أمراء يزيد . . فما كاد رضى الله عنه يطرق أبواب العراق ، حتى رأى الحال قد انقلب رأساً على عقب ؛ لقد وافته الأخبار أن يزيد بن معاوية قد أخذ للأمر أهبته وعدته ،

(١) قال ابن عمر فى حديث له : « ببنى هاشم فتح هذا الأمر ؛ وببنى هاشم يختم ؛ فإذا رأيت الهاشمى قد ملك ؛ فقد ذهب الزمان » وهكذا قد نص غير واحد من الأئمة على أن الفاطميين كانوا أدعياء كذبة ، وأنهم لم يكونوا من سلالة فاطمة . . وقس على ذلك غيرهم من الأدعياء فى كل زمان . .

فعزل عن الكوفة أميرها النعمان بن بشير – لأنه اتبع سياسة الرفق مع أعدائه من أنصار الحسين – وأضاف ولاية الكوفة إلى عبيد الله ابن زياد والى البصرة ، رغم كراهيته له .. إن عبيد الله صار لا يرعى فى سبيل تثبيت ملك بنى أمية حرمة ولا ذمة . اشتراء للحياة الدنيا ، واطمئنانا بها . وتزلفاً إلى يزيد . .

وتواردت الأنباء المفزعة إلى الحسين ومن التف حوله ، فأخذ الناس يتفرقون عنه فى البوادى . كلما انتقل من منهل إلى منهل فى طريقه إلى الكوفة . خوفاً من بطش شرطة ابن زياد . . حتى إذا كان ببعض الطريق . التقى بالفرزدق الشاعر . فسأله عن حال الناس .. فقال الفرزدق :

– قلوب الناس معك . وسيوفهم مع بنى أمية . والقضاء ينزل من السماء . .

فقال الحسين :

– صدقت . لله الأمر من قبل ومن بعد . يفعل ما يشاء ، وكل يوم ربنا هو فى شأن . إن نزل القضاء بما نحب ، فنحمد الله على نعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر ، وإن حال القضاء دون الرجاء ، فلم يتعد من كان الحق نيته ، والتقوى سريرته . .

وما كاد يصل إلى « زبالة » على بعد أربع ليال من الكوفة ، ويضرب أخبيته بفلاة من الأرض خارجها لينظم أمر دخوله ، وينتظر أخبار رسوله الذى بعثه بكتابه إلى أهل الكوفة يعلمهم بمجيئه . . حتى وافاه النبأ الأليم بقتل ذلك الرسول شر قتلة ، لقد قبض عليه الطاغية وعذبه ، وقال له :

– اصعد إلى أعلا القصر . فسب الكذاب ابن الكذاب على ابن أبى طالب وابنه الحسين . .

فصعد الرسول إلى أعلا القصر ، وأطل على الناس فى حضرة ابن زياد وقال :

– أيها الناس . إن هذا الحسين بن على خير خلق الله ، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقته بالحاجر من بطن ذى الرمة . فأجيبوه واسمعوا له وأطيعوا . .

ثم أردف كلامه بلعن ابن زياد وأبيه . والاستغفار لعلى والحسين ! !

وأسرع الطغاة ينفذون أمر أميرهم . فألقوه من أعلا القصر جثة هامدة متقطعة ! ! !

وما كاد الحسين يلبث قليلا . حتى توالت الأنباء المفزعة إثر بعضها . تعلن تفرق أهل العراق من حول مسلم بن عقيل ، وانحياز الذين أعطوه البيعة للحسين من أمراء القبائل إلى عبيد الله بن زياد ، ودعوتهم أقوامهم إلى خذلانه حتى صار وحيداً . بعد أن كان قريباً من النصر على رأس أربعة آلاف مقاتل . لم يكن بينهم وبين قتل ابن زياد والقيام على أمر العراق كله سوى ساعة واحدة من نهار .. ! ! لقد شاء الله أن ينقلب الحال فى لحظة واحدة. ليقضى أمراً كان مفعولا ، فقد أطل أولئك الأمراء من شرفات قصر الإمارة ، وقد أغلقوه عليهم وعلى ابن زياد ساعة اليأس من النجاة . وتهددوا أقوامهم وتوعدوهم ، وهم يقولون : « كأنكم غدا بجنود الشام قد أقبلت ، فماذا تصنعون ! ؟ » فما من أحد من رجال مسلم إلا وانسحب من

ميدان القوة ضعيفاً خائراً . . وحلت الهزيمة المنكرة مكان النصر الأكيد ! !

ووصل رسول مسلم بن عقيل إلى الحسين . يعلنه بقضاء الله فيه ، ووقوعه بين براثن الموت المحقق فى قبضة ابن زياد . ويحمل إليه كتابه الأخير .

وفض الحسين كتاب ابن عمه فاذا فيه : « أرجع بأهلك . ولا يغرنك أهل الكوفة ، فإنهم أصحاب أبيك الذى كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل . إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبونى ، وليس لكاذب رأى . . »

والتفت الحسين إلى من خف معه والتف حوله من الناس ، وأعلنهم بالحقيقة كاملة ، حتى لا يكون معه إلا من صدقه الصحبة وقاسمه البلاء ، ورضى من الدنيا بحسن الوفاء وصدق الرجاء دون حرج من أمره ، أو مخالفة لهواه أو عزمه . . فقال لهم رضى الله عنه :

ـ خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف من غير حرج عليه ، وليس عليه منا ذمام . .

فتفرق القوم عنه فى البوادىِ ناكصين راجعين خائفين . .

وما لبث الحسين غير قليل يقرأ القرآن ، والدموع تسيل على خديه ولحيته ، حتى سمع صراخ بنى عقيل بن أبى طالب فى خيمتهم قرب خيمته . فخرج فإذا رجلان من بنى أسد يكلمان أبناء الحسين ، فأقبل رضى الله عنه إليهما وسلم عليهما . . وسألهما عن الأمر فقالا :

ـ لقد قضينا حجنا ، وما كان لنا همة إلا اللحاق بك . . وفى

طريقنا إليك مررنا برجل من أبناء عمومتنا ، أعلمنا بما كان من قضاء الله فى ابن عمك . . لقد رأى رجال ابن زياد يجرونه برجليه فى السوق ، ويجرون معه هانئ بن عروة الذى آواه ونصره . . ثم ذهبوا بهما إلى أعلا قصر الإمارة ، وقطعوا عنقيهما ، ثم ألقوا بجسديهما إلى الأرض . .

وبكى الحسين وأخذ يردد قوله :

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون . . لا خير فى العيش بعدهما . .

ووثب بنو عقيل حول الحسين وقالوا :

ـ لا ؛ والله لا نرجع حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا . .

وزاد بكاء الحسين ، فأدار وجهه شطر الكوفة ، وكأنه يخاطب أهلها ، فقال :

ـ والله لتعتدن على ؛ كما اعتدت بنو إسرائيل فى السبت[1]

وجاء الليل ، فنادى الحسين فتيانه أن يستقوا من الماء ويتأهبوا للقاء عدوهم . . ثم سار بعد الفجر حتى مر ببطن العقبة فنزل بها . . وهو لا يشعر بشيء مما أعده عبيد الله بن زياد لحصاره وغلق المسالك كلها فى وجهه . . وسأل الحسين بعض الأعراب عن أمر القوم . . فأجابوه خائفين :

ـ والله لا ندرى !! غير أنك لا تستطيع أن تلج ولا تخرج !!

---

(١) كان بنو إسرائيل يرعون جانب يومهم المقدس ـ يوم السبت ـ حتى اعتدوا فيه فأصابهم نكال الله . . وإنما أراد الحسين بقوله أن يعبر عما يحسه من أن جند يزيد لن يتورعوا من أن يستحلوا دمه فى شهره هذا ـ شهر المحرم ـ وهو من الأشهر الحرم عند المسلمين .

ورأى حفيد الرسول أن الخطر يحيطه من كل جانب . . وأن ابن زياد لن يتركه حتى يقضى عليه وعلى أهل بيته معه . .

وأقبل الصباح بعد ليل ثقيل . وصبحت خيل ابن زياد معسكر الحسين . ونظر الحسين إلى الفرسان . فرأى فى مقدمتها وجوها قد علتها ظلمة الفجور والبغى . . كما رأى منها رجالا من أمراء القبائل قد تجردوا من سلاحهم . وكأنهم مسوقون إليه سوقاً . . فرفع رضى الله عنه بصره إلى السماء . ومد يده ضارعا إلى الله . وأخذ يقول :

– اللهم أنت ثقتى فى كل كرب . ورجائى فى كل شدة . وأنت لى من كل أمر نزل ثقة وعدة . فكم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة . ويخذل فيه الصديق . ويشمت فيه العدو . فأنزلته بك وشكوته إليك . رغبة فيه إليك عمن سواك . ففرجته وكشفته وكفيتنيه . فأنت لى ولى كل نعمة . وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل غاية . .

وتقدم عمر بن سعد – قائد الفرسان – ومعه شمر بن ذى الجوشن وحصين بن نمير . ومن خلفهم ثلاثون رجلا من وجوه أهل الكوفة . . وسلموا على الحسين . وطلبوا منه النزول على أمر ابن زياد بالبيعة ليزيد على يديه ، حتى يستقيم سلطان بنى أمية ويصلح أمر الناس . . وإلا فالهلاك لا محالة واقع ! !

وصمت الحسين قليلا ثم رفع رأسه وقال :

– يا عمر ، اختر منى إحدى ثلاث خصال . إما أن تتركنى أرجع كما جئت . فإن أبيت هذه فسيرنى إلى يزيد فأضع يدى فى

يده فيحكم فى ما رأى . فإن أبيت هذه فسيرنى إلى الترك فأقاتلهم حتى أموت . .

وخفض القوم رءوسهم أمام حفيد الرسول ، فقد أعجزهم المنطق عن الرد . ، بينما تجهم شمر بن ذى الجوشن . . ولم يرض بما رضى به عمر والذين معه . . وأخذ يتفوه بقارس الكلام . فغضب منه رفقاؤه ونهروه . .

وأمام تلك الحملة الغاشمة . نهض الحسين ، وأمر فتيانه للتأهب للمسير نحو الشام . فما استطاع أن يرده أحد من فرسان ابن زياد . حتى إذا ما سار ما شاء الله له أن يسير . حط رحاله ليستريح . ثم سأل عن الأرض التى نزل فيها . فقيل له : « إنها كربلاء »

هنالك حرك حفيد الرسول رأسه الكريم فى ألم وحسرة وقال :

— كرب وبلاء ! !

ولم يلبث الحسين . حتى أحاط الحر بن يزيد التميمى حفنته الضئيلة فى أربعة آلاف مقاتل[1] . فلقد استطاع شمر بن ذى الجوشن أن يثنى عبيد الله بن زياد عن قبول عرض الحسين فى السير إلى يزيد وقال له :

— لا . . إلا أن ينزل على حكمك أنت . . ! !

وهيهات هيهات أن ينزل الحسين على حكم ابن مرجانة !

وغضب أمراء القبائل من أمر ابن زياد فقالوا لعمر :

---

(١) كان هذا الجيش معد محاربة الديلم ثم الترك ، ولكن ابن زياد آثر أن يسيره لقتال الحسين . .

– يعرض عليكم ابن بنت رسول الله ثلاث خصال ، فلا تقبلوا منها شيئا . . والله لننصرنه اليوم ولو كان الهلاك . .

ووقف الجيشان الخطيران ، جيش الحسين فى قلته المؤمنة الآمنة ، وجيش ابن زياد فى كثرته الساحقة الغاشمة . . . ولبس الحسين ترسه واستل سيفه ، وركب فرسه ، ورفع مصحفه بيمينه . واستقبل أعداءه ، وصاح فيهم بصوت جهورى عميق :

– أيها الناس . اسمعوا منى نصيحة أقولها لكم . .

فأنصت الأعداء جميعاً . وكأن على رءوسهم الغربان . .

ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

– أيها الناس إن قبلتم منى وأنصفتمونى كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم على سبيل . وإن لم تقبلوا منى « فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة . ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ، إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » راجعوا أنفسكم وحاسبوها ، هل يصلح لكم قتال مثلى ، وأنا ابن بنت نبيكم وليس على وجه الأرض ابن بنت نبى غيرى ؟؟ وعلى أبى ، وجعفر ذو الجناحين عمى ، وحمزة سيد الشهداء عم أبى ، وقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأخى « هذان سيدا شباب أهل الجنة » فإن صدقتمونى بما أقول فهو الحق ، فوالله ما تعمدت كذبة منذ علمت أن الله يمقت الكذب . . ويحكم ! ! أما تتقون الله ؟؟ أما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى ! ؟

وصمت الحسين لحظة . . بينما صاح عدو الله شمر بن ذى الجوشن فى أصحابه وقد رآهم يتحسرون ويستعتبون :

ـ والله إنه ليعبد الله على حرف .

فانبرى له منهم حبيب بن مطهر فقال :

ـ والله يا شمر إنك لتعبد الله على سبعين حرفا ، أما نحن فوالله إنا لندرى ما يقول ، وإنه قد طبع على قلبك .

واستأنف الحسين خطبته فقال :

ـ أيها الناس ذرونى أرجع إلى مأمنى من الأرض . .

فصاح به شمر وقال :

ـ وما يمنعك أن تنزل على حكم بنى عمك ؟؟

ـ معاذ الله . « إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ! ! » .

وبرز قيس بن الأشعث من جند ابن زياد فقال للحسين ينذره ويمنيه :

ـ ألا تنزل على حكم بنى عمك . فإنهم لن يؤذوك ، ولا ترى منهم إلا ما تحب ! ؟

فأجابه الحسين فقال :

ـ أنت أخو أخيك ، أتريد أن تطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟؟ لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل ، ولا أقر لهم إقرار العبيد . .

وحركت كلمات الحسين قلوب المؤمنين من جند ابن زياد ، فانحازت طائفة منهم خلف قائدهم الحر بن يزيد إلى جيش الحسين ووقف من بينهم زهير بن القين وقد ثارت نفسه ، فأخذ يسب أهل الكوفة ويقول :

— إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه ، لينظر ما نحن وأنتم عاملون . إنا ندعوكم إلى نصره ، وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله ابن زياد . .

وصاح به المنافقون . وأخذوا يسبونه ويشتمونه ، ويثنون على ابن زياد بما ليس فيه تعصبا وعناداً . . فأجابهم قائلا :

— إن ولد فاطمة أحق بالود والنصرة من ابن سمية ! !

وهنالك برز له شمر بن ذى الجوشن القائد الحديد . وقال له :

— إن الله قاتلك وصاحبك بعد ساعة ! !

* * *

ونزل قضاء الله بساحة حفيد الرسول ، وأقبل الطغاة يرشقون الآمنين من جند الحسين . والوادعين من أبنائه وآل بيته ، نساء وأطفالا . .

وقام الحر بن يزيد على ظهر جواده . واتجه إلى أهل الكوفة من خلال المعركة وقال :

— يا أهل الكوفة . والله لقد خيرت نفسى بين الجنة والنار ، والله لا أختار على الجنة غيرها . . يا أهل الكوفة . لامكم الهبل أدعوتم الحسين إليكم . حتى إذا أتاكم أسلمتموه . وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، ومنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة الوسيعة التى لا يمنع فيها الكلب والخنزير . . وحلتم بينه وبين الماء الفرات الجارى ، الذى يشرب منه الكلب والخنزير ، وقد صرعهم العطش ! ؟ بئس ما خلفتم محمدا فى ذريته ، لا أسقاكم الله يوم الظمأ الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا وساعتكم هذه . .

ولم تكن هذه الكلمات الحارة ، لتثنى قوماً قد أعمتهم الشهوات وجمعتهم الأهواء والمطامع ، فراحوا يواصلون بغيهم وعدوانهم .

وماجت الفئتان فى بعض . . . وسقط أصحاب الحسين واحداً إثر واحد . . حتى بقى هو وبعض بنيه وبعض إخوته وبنيهم . .

وهاب الأعداء جميعاً قتل الحسين . فما يستطيع أحد أن يقترب منه خوف بأسه وشدته . .

لقد كان كالليث الهائج . لم يزده العدوان إلا هياجا .. وماذا يجدى التسليم بعد المصيبة العظمى . . المصيبة التى لم يلقها نسل رسول من قبله أبداً . .[1]

---

(١) قال هانئ بن ثبيت الحضرمى : إنى لواقف يوم مقتل الحسين عاشر عشرة ، ليس منا رجل إلا على فرس ؛ إذ خرج غلام من آل الحسين وهو ممسك بعود من تلك الأبنية وعليه إزار وقميص ، وهو مذعور يلتفت يميناً وشمالا ، فكأنى أنظر إلى درتين فى أذنيه تذبذبان كلما التفت ، إذ أقبل رجل يركض فرسه ، حتى إذا دنا من الغلام مال عن فرسه ثم أخذ الغلام وقطعه بالسيف . .

وروى أن الحسين قد أعياه التعب يوم قتله ، فقعد على باب فسطاطه ، وأتى بصبى صغير من أولاده اسمه عبد الله ، فأجلسه فى حجره ، ثم جعل يقبله ويشمه ويودعه ويوصى به أهله ، فرماه رجل من بنى أسد يقال له « ابن موقد النار » بسهم فذبح ذلك الغلام ، فتلقى الحسين دمه فى يده ، وألقاه نحو السماء وقال : رب إن تك قد حبست عنا النصر من السماء فاجعله لما هو خير ، وانتقم لنا من الظالمين .

وكان أول قتيل من آل الحسين ، هو ابنه على الأكبر ، وأمه ليلى بنت أبى مرة ابن عروة بن مسعود ، طعنه مرة بن منقذ بن النعمان فقتله ، لأنه جعل يذود عن أبيه ، فاحتوشته أسنة الأعداء ، فزقوا جسده بين يدى أبيه ، وكان الغلام من شدة الألم ساعة صعود الروح ، يضرب الأرض بقدميه ضربا شديدا ، وأبوه لا يملك إلا أن يضمه إلى صدره وهو يقول : « قتل الله قوما قتلوك يا بنى ، ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك محارمه » .

وعلى ذلك النحو الأليم ، قضى على الحسين وآل بيته رجالا وغلمانا ! !

ومضى النهار كله . . والناس يتراجعون عن قتله أو قتاله . . فغضب لذلك عدو الله شمر بن ذى الجوشن .. فصاح فى جنده وقال:

— ماذا تنتظرون بالرجل ! ؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم ! !

ثم أقبل على الحسين . فضربه بالسيف على غرة منه ، ضربة قاتلة ، جعلت حفيد الرسول يتكفأ منها كلما قام . . وما ملك رضى الله عنه إزاءها — وهو يجود بآخر أنفاسه الطاهرة فى الحياة الدنيا — إلا أن قال :

— صدق الله ورسوله . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كأنى أنظر إلى كلب أبقع [1] يلغ من دماء أهل بيتى ! ! » .

وحز عدو الله رأس الحسين . . وعاد بها وبالأسرى من نساء آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابن زياد . .

وفى الكوفة أمر ابن زياد بالرأس الشريف ، فنصبت على عود . . وطيف بها فى الأزقة والدروب ! ! وبعد المثلة الشنعاء ، بعث بها إلى يزيد . . وبعث من ورائها أسراته من بيت النبوة ، ومعهن ابنا الحسين .. بعد أن صرفه الناس عن قتلهم جميعاً . . حين سمع الطاغية زينب أخت الإمام الشهيد ، تندب أخاها وهى تقول :

— يا محمداه يا محمداه . . صلى عليك الله وملك السماء ، هذا حسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطع الأعضاء يا محمداه . .

وحتى هذه الكلمات الباكيات ، لم تكن لتصد الطاغية الجبار عن التنكيل بالبقية الطاهرة . فما كان جوابه عليها إلا أن قال :

— الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم ، وكذب أحدوثتكم ! !

وما كانت هى لتسكت على المهانة بعد قوله ، رغم ما كان

---

(١) كان شمر بن ذى الجوشن قبحه الله أبرص .

يتهددها من القتل ، فأجابته على الفور وقالت :

— بل الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيرا ، لا كما تقول أنت . . وإنما يفتضح الفاسق . ويكذب الفاجر . .

هنالك ضغط ابن زياد على أسنانه غيظاً ، وقال لها :

— كيف رأيت صنع الله بأهل بيتكم ! ؟

فأجابته السيدة الطاهرة قائلة :

— كتب عليهم القتل . فبرزوا إلى مضاجعهم . وسيجمع الله بينك وبينهم . فيحاجونك إلى الله .

وازداد غيظ ابن زياد . وهو يمسك بمقبض سيفه .. وخاف بعض الجالسين حوله سوء العاقبة . . فوقف من بينهم عمرو بن حريث . وهو يرتجف . وأخذ يستدر عطف الطاغية وهو يبكى ، ثم قال :

— أصلح الله الأمير ! ! إنما هى امرأة . وهل تؤاخذ المرأة بشىء من منطقها ؟ إنها لا تؤاخذ بما تقول . ولا تلام على خطل ! !

* * *

ودمعت عينا يزيد . . وهو يتكلف الغضب . وينظر إلى رأس الحسين بين يديه ! ! ولم يزد على أن قال لرسول ابن زياد :

— كنت أرضى عن طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سمية ، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه . . ورحم الله الحسين !

ثم انقلب هدوءه بعد قليل — على صوت النائحات على الحسين فى ساحة داره — وعلم أن وراء دم الشهيد ما وراءه . . هنالك نظر إلى الجالسين حوله من بطانته . وقال :

— لعن الله ابن مرجانة . فإنه أحرجه واضطره ، وقد كان

سأله أن يخلى سبيله ، أو يأتيني ، أو يكون بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله ، فلم يفعل ، بل أبى عليه وقتله ، فبغضنى بقتله إلى المسلمين ، وزرع لى فى قلوبهم العداوة ، فأبغضنى البر والفاجر ، بما استعظم الناس من قتلى حسينا . . مالى وابن مرجانة ، قبحه الله وغضب عليه . .

وحتى فى تلك اللحظة الثائرة . . لم يستطع أحد من بطانته أن يشير عليه بقتل ابن زياد بدم الحسين ، تهدئة للخواطر المبلبلة . . فهم يعلمون أن عبيد الله هو سيف يزيد . !

إن يزيد لم يكن يجهل أن قتل الحسين هو أول مسمار دق فى نعش خلافته . . فإن العيون لن تلبث أن تجف دموعها حتى تتحول فى سرعة إلى محط آمالها بين حنايا الكعبة . . حيث لم يبق أمام عبد الله ابن الزبير بعد مصرع الحسين إلا أن يرفع لواء خلافته على المسلمين ، فلا تستطيع قوة فى الأرض أن تثنيه عن العزم الخطير . .

ولئن كانت دولة بنى أمية تملك بيدها اليوم سلطان القهر الذى أطاح حده برأس الحسين . . وقطع كل لسان يذكر بالجميل آل البيت ، فإن ابن الزبير ليملك القلوب المتوثبة ، التى يحركها الإيمان نحو الخلاص من حياة صار يكتنفها خوف السلطان ، أكثر مما يكتنفها خوف الرحمن ! !

٤٢ ـ استباحة . . ! !

استيقظ ابن عباس من نومه فزعا مذعوراً ذات سحر . . وأخذ يتوضأ لصلاة الفجر بأيد مرتعشة ، وغادر بيته على عجل إلى مسجد الرسول . . فلما قضيت الصلاة ، التف حوله الناس يسألونه عما به

من الآلام المبرحة المكتومة ، التي لا يملك إزاءها سوى رعشات منقطعة تنتفض بجسده كله . . واسترجع ابن عباس وقال لأصحابه :

– رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه زجاجة من دم فقال : « أتعلم ماذا صنعت أمتي من بعدي ؟ قتلوا الحسين ، وهذا دمه ودم أصحابه أرفعهما إلى الله . . » .

وشاع الخبر الفاجع في أرجاء المدينة . . فلبست ثوباً داكناً من الحداد الرهيب . . ودخلت بعض النسوة على سيدتها أم سلمة أم المؤمنين لتراجعها الخبر الأليم ، فوجدتها تبكي ، فسألتها عن الأمر ، فقالت :

– رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه ولحيته التراب ، فقلت مالك يا رسول الله ؟ قال « شهدت قتل الحسين آنفا » .

واشتد بكاء أم المؤمنين ، وقالت :

– قد فعلوها ، ملأ الله قبورهم ناراً . .

ثم خرت مغشياً عليها . . فلما أفاقت جعلت تقول :

– سمعت الجن يبكين على الحسين . وسمعت الجن ينحن على الحسين وهن يقلن :

أيها القاتلون جهلا حسينا أبشروا بالعذاب والتنكيل

كل أهل السماء يدعو عليكم من نبي ومرسل وقبيل

قد لعنتم على لسان ابن داود . وموسى وصاحب الإنجيل

ومضت أربعة وعشرون يوماً . جاء بعدها الخبر اليقين بقتل الحسين في اليوم الذي صبح فيه ابن عباس أهل المدينة بأمر الفاجعة . .

ومضت أيام أخر . وصلت بعدها بقية آل البيت بعد نجاتها من براثن الطغيان ومخالب الموت . .

وتحولت المدينة شواظا من نار ، يلحس بألسنته الحارقة قلوب المؤمنين . . ويؤجج صدورهم بالحقد على يزيد وعلى بنى أمية جميعاً .

ولم يمض عام واحد ، حتى استقر سواد المدينة الأعظم على خلع يزيد . . واجتمع رؤساء الناس فى مسجد الرسول فى اليوم المعلوم ، وتتابعوا المضى نحو المنبر على رءوس الأشهاد ، فهذا يخلع عمامته ويلقيها عن رأسه ويقول : « قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتى هذه ! » وذاك يخلع خفيه ويلقيهما ويقول : « قد خلعته كما خلعت نعلى هاتين . . » حتى تجمع حول المنبر الشيء الكثير من العمائم والنعال ! !

وكان يزيد قد تهيأ لمقابلة الموقف بما يتطلبه من شدة وبأس ، فعزل عن الحرمين واليه عمرو بن سعيد ، لأنه مع شدته وقسوته — كان أضعف من أن يحد من سلطان ابن الزبير فى مكة والمدينة ، أو أن يقلل من خطره الماحق ، الذى سرى فى أوصال الحجاز كله ، وتسرب إلى غيره من الأمصار . . منذراً بالقضاء على دولة الأمويين [1]

---

(١) عندما عاتب يزيد عمرو بن سعيد فى استفحال أمر ابن الزبير : قال له عمرو : « يا أمير المؤمنين ، إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؛ وإن أهل مكة والحجاز مالأوه علينا وأحبوه ؛ ولم يكن لى جند أقوى بهم عليه لو ناهضته ، وقد كان يحذرنى ويحترس منى وكنت أرفق به كثيراً وأداريه لأستمكن منه ، فأثب عليه ، مع أنى قد ضيقت عليه ، ومنعته من أشياء كثيرة ، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالا لا يدعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا اسمه ، واسم أبيه ، ومن أى البلاد هو ، وما جاء له ، وماذا يريد ، فإن كان من أصحابه ، أو ممن عرف أنه يريده ، رددته صاغرا ، وإلا خليت سبيله . . وقد وليت أنت يا أمير المؤمنين الوليد بن عتبة من بعدى ، وسيأتيك من عمله وأمره ما لعلك تعرف به فضل مسارعتى واجتهادى فى أمرك ، ومناصحتى لك إن شاء الله ، والله يصنع لك ، ويكبت عدوك . . »

وأعاد مكانه الوليد بن عتبة ، وما لبث أن استضعفه هو الآخر فعزله ، وولى من بعده عثمان بن محمد بن أبى سفيان[1] . .

وما كان لذاك الإعداد من أثر فى إضعاف موجة الغضب أو تخفيف حدة السخط على خلافة يزيد . . بل لقد زادتها شدة وعنفا.

وبدأ الصراع العنيف يقصف رعوده بين أهل المدينة وبنى أمية ، حتى استطاع أهل المدينة فى النهاية أن يجعلوهم عن الناس فى معزل ، ومن ثم حاصروهم فى دورهم ، فلا يخرجون إلا فى الخفاء . . ثم طردوا عاملهم . .

وتضاعف إدراك يزيد بأن ابن الزبير قد صار – بعد مصرع الحسين – أعظم خطر يتهدد خلافته .. وكان قتل الحسين – على عكس ما توقع أصحابه – مصدر قوة طاغية قد ظهرت . . وكان ابن الزبير يخفيها بين حناياه لأسوأ الظروف . . فأضحى سلطان حفيد الصديق على الناس ، لا يقف عند حدود مكة أو المدينة أو الحجاز كله ، وإنما تعداها إلى الأمصار كلها . . حتى الأمصار التى يكبت أنفاسها الطغاة من ولاة الأمويين ! !

وما كان لشدة ولاة يزيد بمكة أن تثنى حفيد الصديق عن عزمه الخطير . أو أن تحول بينه وبين سيل الناس إلى البيت الحرام ، بل لقد تطور الحال . . فجهر ابن الزبير بأخذ البيعة من الناس جميعاً بعد أن كان يأخذها فى الخفاء من الوفود الساعية إليه من كل فج عميق . .
وانطلق لسانه الجرىء يلهب يزيد بسوط بيانه الساحر المتدفق ويؤلب الأمصـــار على دولة بنى أمية . . حتى أذكى فى النفوس

(١) هو ابن عم يزيد .

نار البغضاء للعهد القائم كله . . وما كان عبد الله ليترك فرصة للتعريض بيزيد إلا انتهزها ! ! لقد خطب أصحابه ذات مرة بالبيت الحرام ، وأنحى باللائمة على أهل العراق – على مسمع من بعض وفودهم إليه – حين أسلموا الحسين لقاتليه . . فقال ضمن ما قال :

– أما والله لقد قتلوه طويلا فى الليل قيامه ، كثيراً فى النهار صيامه . أما والله ما كان يستبدل بالقرآن الغنا والحداء . ولا بالصيام شرب المدام وأكل الحرام ، ولا بالجلوس فى حلق الذكر طلب الصيد . . فسوف يلقون غياً . .[1]

على أن ذلك كله لم يكن ليفزع يزيد . لولا أنه يعلم أن حفيد الصديق لم يعطه البيعة أبداً رغم ما كان يتهدده من الخطر فى عهد معاوية نفسه ، ولما جاء عهده هو بعد أبيه ، لم يزدد ابن الزبير إلا مضاء فى عزمه . وقد صار هو الوحيد الذى لم يعترف ليزيد ببيعة فى عنقه .. بعد أن أعطاها الحسين نفسه تحت سيف القهر والعدوان قبل مصرعه بشهور . فكانت النتيجة أن الناس قد صاروا يعتقدون أن بيعتهم لابن الزبير ، هى بيعة الأحرار للاحرار .

ولقد رأى يزيد أثر ذلك الخطر الماحق على خلافته . فى مختلف أمصار الدولة العريضة . حتى فى الأمصار التى ظنها قد استسلمت تحت قبضته الغليظة . . لقد قام جيش التوابين فى بضعة آلاف من شيعة على كرم الله وجهه بالعراق . على رأسهم سليمان بن صرد ، وهو من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ليكفروا عن أنفسهم ذنب خذلان الحسين بأرضهم . وليخلصوا بلادهم من سلطان بنى أمية

---

(١) يعرض فى ذلك بيزيد . .

الغاشم . . وليبدأوا الشوط الطويل ، باستئصال شأفة عبيد الله بن زياد وأعوانه .

بل إن يزيد قد هالته موجة الخذلان من أميره عبيد الله بن زياد بالذات ، أمام موجة الخطر التى تطاولت أعناقها تحيط به . . لقد كتب إليه يزيد للسير إلى حرب ابن الزبير بمكة . وهو يظن أن عبيد الله الذى باع دينه له من قبل لقاء دنياه ، لن يتأخر لحظة فى الاستجابة والطاعة . . فما كان من عبيد الله إلا أن أبى عليه ، وقال للرسول :

— والله لا أجمعهما للفاسق أبداً . . أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأغزو البيت الحرام !؟[1]

ولم تقف المصيبة عند حد ذلكم الخطر فحسب . بل إن اليمن كذلك قد بدأ العصيان فيه بوضوح . فها هو ذا يزيد قد رأى ثورة نجدة بن عامر الحنفى عليه فى اليمامة ، والتفاف الناس حوله هناك يعلنون خلعه ، كما يعلنون الرضى بأمر ابن الزبير . . كما رأى تجاوب العصيان بأرض مصر وغيرها ، بل أرض الشام نفسها . حيث يتربع ، وإن كان الساخطون من أهل الشام لا يستطيعون إظهار سخطهم ، كما هو على حقيقته فى القلوب ! !

ولئن نسى يزيد فلن ينسى موقف ابن الزبير من وفده الذى أرسله إليه بمكة — على أثر انهزام قواته الهائلة أمام بأسه الشديد فى ميدانها منذ قريب — ليراجعه ويثنيه عن أمره العظيم . ويهدده بالشر المستطير ،

---

(١) قيل إن مرجانة أم عبيد الله بن زياد ؛ كان لها موقف شديد معه على أثر مصرع الحسين . . حتى جعلت عبيد الله — مع فظاظته وفجوره — يندم أشد الندم ! !

فما كان من حفيد الصديق إلا أن نظر إلى عبد الملك وعبد العزيز ابنى مروان على رأس الوفد ، وقال لهما وهو يبتسم ابتسام المتمكن الساخر :

ــ أخبراه أنى أقول :

إنى لمن نبعة صم مكاسرها إذا تناوحت القصباء والعشر
ولا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

وجثمت تلكم الأهوال كلها وكثير غيرها على قلب يزيد فى هذه الغمرة العارمة ، فأضنته وأثقلته وقضت مضاجعه . . وأزعجته تلك الصور المفزعة التى تتراءى له فى صيحات أهل بيته بالمدينة وما حولها ، وهم يستنصرونه ويستعجلونه لفك أسرهم . . لقد أبلغوه أنهم قد صاروا من المهانة والجوع والعطش على أبواب الموت الزؤام . .

وماذا لو فنى هذا العدد الضخم من أهل بيت يزيد ؟؟ وهم ظهراؤه فى الحق والباطل على السواء . ومدار قوته بين العصبيات فى بلاد الإسلام كلها . . إذن لحذا الناس فى كل الأمصار حذو أهل المدينة . . ولسقط صولجان الملك من يده . ولما استطاعت يد أموى أن تمتد لرفعه من بعده أبد الآبدين . .

بل إن يزيد قد أيقن أن أهل المدينة لم يبق لهم بعد طردهم لعامله ، إلا استقبال عامل آخر لخليفة آخر . . ولن يكون هذا الخليفة إلا عبدالله ابن الزبير . .

وتذكر يزيد من خلال تفكراته المضنية المقلقة قول أبيه له وهو على فراش الموت : « إن لك من أهل المدينة يوما ! ! فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة . فإنه رجل قد عرفت نصيحته لنا . . »

* * *

وتجهز جيش الشام للمسير . . ووقف الشيخ الغشوم مسلم بن عقبة المزنى على رأس اثنى عشر ألف فارس وخمسة عشر ألف راجل ، ليتفقدهم يزيد قبل المضى إلى المدينة . . وإلى مكة من بعدها .

وطاف يزيد بالجيش الكبير فى ساحة دمشق ، يملؤه الزهو والفخار . . فلما عاد من طوافه ، اقترب من القائد الجبار وهش له وبش . . فأخذ مسلم يتودد إليه ويظهر له الولاء الأعمى من ذات نفسه المظلمة . . وما لبث القائد أن أنشد أمام سيده أناشيد النصر على ابن الزبير قبل أن تتحرك قواته الغاشمة فقال

أبلغ أبا بكر[1] إذا الجيش سرى   وأشرف الجيش على وادى القرى
أجمع سكران من القـــوم ترى   يا عجباً من ملحد فى أم القرى
مخادع للدين يقضى بالفرى ! !

وتبسم يزيد ابتسامة الرضى وهو يهز رأسه طربا . . وما لبث أن قال بصوت هادئ . . وكأنه يحدث نفسه :

— والله لأقتلنهم بعد إحسانى إليهم وعفوى عنهم مرة بعد مرة ! !

ووصل الجيش الهائل إلى منافذ المدينة ، وعسكر فى شرقها بحرة واقم . . . وبعث قائده إلى أهلها ينذرهم بالخضوع والرجوع دون قيد أو شرط . . . ولكن الناس أبوا إلا خلع يزيد[2]

---

(١) أبو بكر هو كنية عبد الله بن الزبير ، وإنما قال مسلم هذا السجع المصطنع لأن يزيد كان قد بلغه أن ابن الزبير قال فى خطبة له بين أصحابه « يزيد القرود ، شارب الخمور تارك الصلوات ، منعكف على القينات . . »

(٢) اعتزل عبد الله بن عمر أمر الناس ولم يخلع يزيد ؛ وتابعه أهل بيته جميعاً حينما قال لهم : « لا يخلعن أحد منكم يزيد ، ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر ، فيكون الفيصل بينى وبينه » . وقال لعبد الله بن مطيع وكان أحد زعيمين قادا أهل المدينة لنقض بيعة يزيد : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من نزع يدا من طاعة ، فإنه

ووقف الشيخ الغشوم على رأس جيشه ، فوق منبر عال أقوله له بعد ثلاثة أيام ، واستقبل بوجهه أهل المدينة ، وقد وقفوا بأطرافها حول خندق حفروه . . وجعل يصيح فيهم – والمبلغ يردد خطابه بصوت جهورى رهيب – فقال :

– يا أهل المدينة . . مضت الثلاث ، وإن أمير المؤمنين قال لى إنكم أصله وعشيرته ، وإنه يكره إراقة دمائكم ، وإنه أمرنى أن أؤجلكم ثلاثا فقد مضت . فماذا أنتم صانعون ؟؟ أتسالمون أم تحاربون ؟؟

فأجاب أهل المدينة بصوت واحد :

– بل نحارب ! !

واستأنف الشيخ الغشوم خطابه فقال :

– لا تفعلوا ، بل سالموا . . ونجعل جدنا وقوتنا على هذا الملحد[1] ! !

= يأتى يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات مفارق الجماعة ، فإنه يموت موتة جاهلية » .

واعتزل كذلك بنو عبد المطلب وعلى رأسهم على بن الحسين . ولما أتى الناس إلى محمد بن الحنفية ليريدوه على خلع يزيد ؛ وذكروا له شربه الخمر وتركه الصلاة ، وتعدى حكم الكتاب . . أجابهم بقوله : « ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده ، فرأيته مواضبا على الصلاة ، متحريا للخير يسأل عن الفقه . ملازماً للسنة » . فلما قالوا له : (إن ذلك كان تصنعا منه لك) أجابهم على الفور : « وما الذى خاف منى أورجا حتى يظهر إلى الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ! وإن لم يكن أطلعكم ، فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا ؛ فقالوا له : « إنه عندنا لحق ، وإن لم نكن رأيناه » فرد عليهم قائلا : أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) .

وكذلك اعتزل كثير من المؤمنين خوف الفتنة وما قد تجره من مصائب وإحن .

[1] يعنى ابن الزبير .

فأجابوه قائلين :

– يا عدو الله ، لو أردت ذلك لما مكناك منه ، أنحن نذركم تذهبون فتلحدون فى بيت الله الحرام ! ؟

ووقعت الواقعة .. ودارت رحى الموت بين الفئتين المتباينتين فى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستحالت مدينة النور إلى أتون ملتهب يكوى الفريقين بناره الحامية . . وتجندل فى ساحة العدوان على الدار الآمنة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وسادات الأمة وقرائها وأشرافها .. وأمسى الخندق – الذى أقامه المسلمون تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم حول المدينة يوما ، لصد قوى الكفار مجتمعة فى جيش الأحزاب – ميدانا لأفظع حرب قامت على وجه الأرض بين مسلم ومسلم ! !(1)

وانهار أهل المدينة جميعا تحت قبضة البطش . . فحاصرتهم قوات الشام من كل فج . . ونادى منادى الشيخ الغشوم بين أجناده المنصورين . أن المدينة قد أبيحت للغزاة ثلاثة أيام ، يفعلون فيها ما يشاءون ! !

ولم يقف طغيان الغزاة عند حد استباحة الدماء والأموال والمتاع والدواب والأرزاق ، بل تعداه إلى استباحة الأعراض المسلمة الطاهرة ، واقتراف الفواحش مع النساء وغيرهن ! !(2)

---

(1) قال المدائنى عن شيخ من أهل المدينة قال : « سألت الزهرى كم كان القتلى يوم الحرة ؟ قال : سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ومن وجوه الموالى وممن لا أعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف » .

(2) لما وقع الطغاة على النساء ، قيل إنه حبلت ألف امرأة فى تلك الأيام من غير زوج . . والله أعلم . .

وقد فات جيش الطغاة فى ساحة العدوان الأثيم ، أن شريعة الحرب فى دين الله – حتى بين المسلم والكافر – إنما هى إخراج الناس من الظلمات إلى النور . . فجاءوا ليخرجوهم من النور إلى الظلمات ! ![1]

وأين ؟؟ على مشهد من باعث النور فى الأرض . . ومرأى من باعث الرحمة فى آفاق الكون كله . . محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ! !

وانقضت الثلاث ، واجتمع الجيش الغاشم مرة أخرى على أطلال المدينة الباكية . . ليستأنفوا المسير إلى مكة المكرمة ، ليستأصلوا شافة ابن الزبير فيها . . أو يستأصلوا شأفتها معه .. ! !

٤٣ – نهاية بغى . .

الحياة فى مكة هادئة وادعة . . والناس من كل وجه مقبلون على إعطاء البيعة لابن الزبير ، فرحين مستبشرين بعهد جديد ، يقوم به المعوج ، ويذوب فيه الجور ، وتنزل السكينة من خلاله على قلوب المؤمنين . .

وحج حفيد الصديق بالناس للمرة الثانية عام الحرة . . وقد انحسر ظل بنى أمية عن مكة وما حولها . . إيذانا بانبعاث الفجر الجديد، حيث يتلألأ نجم الخليفة الجديد فى سماء المسلمين جميعاً . .

وبينما كان عبد الله بن الزبير ، جالسا وسط حفنة من أصحابه على جبل أبى قبيس ، فى ليلة خفيفة الظلام ، يودعون فيها شهر الحج ،

---

(١) لما انهزم أهل المدينة يوم الحرة ؛ صاح النساء والصبيان ، فقال ابن عمر : « بعثمان ورب الكعبة » .

ويستقبلون هلال العام الرابع والستين من هجرة رسول الله ، والجميع لا يدرون شيئاً عن أمر الكارثة العظمى ، التي أنزلها جيش الشام بأهل المدينة ، منذ يوم وليلة . . وبينما كان الجمع الوقور حول السيد الوقور سابحا فى خياله العذب ، مستمتعاً بحديث التفكر العميق فى أسرار الكون العظيم ، ممعنا ببصره ذات اليمين وذات الشمال فى أرجاء الفضاء الرهيب من خلال ذلك الضوء الخافت الذى ترسله نجوم السماء فى الظلماء باهتاً فاتراً . . إذ شق سكون عبد الله هاتف يدوى فى جنبات الجبل الهائل ، ويقول بصوت رهيب منظوم :

والصائمون القانتو ... ن أولو العبادة والصلاح
المهتدون المحسنو ... ن السابقون إلى الصلاح
ماذا بواقم والبقيـ ... ـع من الجحاجحة الصباح
قتل الخيار بنو الخيا ... ر ذوو المهابة والسماح

وارتعد حفيد الصديق فزعاً بين أصحابه ، فدهشوا لأمره ، فهم لم يسمعوا مثل ما قد سمع !! ولم يلبث أن صاح فيهم وقال :

— يا هؤلاء ، قتل أصحابكم . . فإنا لله وإنا إليه راجعون !!

وأخذ الفزع من أصحابه كل مأخذ ، ولكن عبد الله عاد فطمأنهم إلى قضاء الله ، كما طمأنهم إلى نصره من خلال المحنة ما صبروا وما صدقوا . .

وصبحت مكة جموع الفارين من أهل المدينة وما حولها ، للانضواء إلى قوات ابن الزبير ذوداً عن الحق ، ودفاعاً عن البيت الحرام ، والبلد الحرام . . وتبعتهم وفود الناس من كل فج ، كما لحق بهم نجدة بن عامر الحنفى ونافع بن الأزرق على رأس جيش عظيم من أهل اليمامة . .

ووقف حفيد الصديق بين أصحابه فى جوف الكعبة ، يشيع فيهم روح القوة والإقدام ، ويسلط عليهم أضواء الأمل فى نصر الله قوية متدفقة . . وأخذ يبشرهم بنهاية الطغيان ، وهو يسرد عليهم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول :

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء » وقال صلى الله عليه وسلم : « من أخاف أهل المدينة ظلما ، أخافه الله ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » وقال صلى الله عليه وسلم : « من أخاف أهل هذا الحى من الأنصار ، فقد أخاف ما بين هذين – ووضع يده على جبينه » .

وما كاد ينتهى عبد الله ، حتى عم أصحابه طوفان من البأس الشديد لاستقبال البطش الشديد . .

* * *

وكأن عبد الله كان يقرأ صفحات القدر ، وهو يقرر مصائر أهل البغى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كاد يتحرك جيش الشام من المدينة صوب مكة ، حتى نزل الموت بساحة قائده الغشوم مسلم بن عقبة ، فجمع رءوس أجناده وهو يتململ من الألم وقال :

– إن أمير المؤمنين عهد إلى إن حدث بى حدث الموت ، أن أستخلف عليكم حصين بن نمير السكونى ، ووالله لو كان الأمر لى ما فعلت . !

ثم دعا بالحصين وقال له :

– يا ابن بردعة الحمار ، فاحفظ ما أوصيك به . . إذا وصلت

مكة فناجر ابن الزبير قبل ثلاث . .[1]

ثم قال :

– اللهم إنى لم أعمل عملا قط بعد شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أحب إلى من قتل أهل المدينة ، وأجزى عندى فى الآخرة . . وإن دخلت النار بعد ذلك إنى لشقى ! !

ثم لفظ الطاغية آخر أنفاسه ، وانماع بين قواته كما يماع الملح فى الماء ! !

ونزل جيش الشام بظاهر مكة ، وخرجت إليه قوات ابن الزبير ، ودار القتال البئيس بين الفريقين ، وحمل أهل الشام حملة عظيمة ، انكشف لها أهل مكة جميعاً ، وبقى ابن الزبير فى الميدان على بغلته وحوله من ثبت من أصحابه أمام الهول . . ولم يلبث الحال أن انقلب انقلاباً لم يكن فى حسبان أعداء البيت أن ينتظروه بأى حال ! !

وبقى جيش الشام يحاصر مكة شهراً وبعض شهر ، ويضرب من وراء تحصيناته القوية جيش ابن الزبير بالسهام والرماح . . حتى إذا ما خاف الحصين بن نمير على معنوية جيشه أمام بأس حفيد الصديق . أمر أجناده بضرب الكعبة نفسها بالمنجنيق ، حتى اشتعلت النار فى سقوفها وأخشابها وجدرانها ، واسود الركن وانصدع منه ثلاث جوانب . .

ومضى شهران أو نحوهما ، والحرب سجال بين الفريقين المتباينين . . ونزلت رمح من بين رماح أهل الشام على مقربة من ابن الزبير داخل الكعبة ذات يوم ، وأصحابه من حوله يردون على أعدائهم بالمثل . . فقال ابن الزبير :

---

(١) يريد استباحة مكة بعد استباحة المدينة ! !

– إن فى هذه الرمح لأمراً . .

وفك ابن الزبير من طرفها كتاباً ، فاذا فيه الخبر بموت يزيد ! !

لقد جاء الخبر إلى عبد الله مع من أقبل من دمشق إلى مكة ، فلما لم يستطيعوا الدخول ، أنحازوا إلى جيش الشام خوفا واضطرارا حتى يقضى الله بقضائه . .

وخرج ابن الزبير فى أصحابه على مرتفع عال ، وصاح فى أهل الشام وقال :

– يا أهل الشام ، قد أهلك الله طاغيتكم ، فمن أحب منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل ، ومن أحب أن يرجع إلى شامه فليرجع . . ! !

وذهل أهل الشام من أمر ابن الزبير ، وقد فزعوا من النبأ وإن لم يصدقوه .. فدارت بينهم وبينه معركة حامية ، وما لبثوا أن جاءهم ثابت بن قيس بن القيقع من وجوه أهل الشام بالخبر اليقين ، فانهارت الأعصاب ، وخارت القوى ، وسقط السلاح . .

واستسلم الجيش الجبار لحفيد الصديق ، رافعاً راية الخضوع والولاء . . وتم وعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن استحل داره ، كما تم وعيد الله لمن استحل بيته الحرام . . !

وتقدم الحصين بن نمير للقاء ابن الزبير بظاهر مكة باسم أهل الشام . . وقال :

– يا أبا بكر ، إن كان هذا الرجل قد هلك ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر من بعده ، فهلم فارحل معى إلى الشام ، فوالله لا يختلف عليك اثنان . .

ولكن ابن الزبير . خاف أن يكون فى الأمر خدعة ، فأوجس من الحصين خيفة . . وأغلظ له فى الكلام . . إنه يرى أن الشام لن تلبث أن تجيئه هى الأخرى خاضعة مستسلمة ، عندما يأخذ ولاته البيعة فى كل الأمصار . .

٤٤ – جـد عاثر ! !

سارت الأيام باليمن لابن الزبير . . والتف الناس حول ولاته فى كل الأمصار ، يوطدون له قواعد خلافته ، ويثبتون له دعائم ملكه ، وينشرون فى آفاق الدولة ألوية العدالة والإخاء ، ويحاربون تحت رايته الفلول المنهارة من طغاة بنى أمية وأشياعهم . .

وتمزقت رايات الأمويين فى كل ميدان ، وتقطعت بينهم وبين أنصارهم أسباب الاجتماع على خليفة آخر من خلفائهم ، بعد أن قضى خليفتهم الصغير [1] معاوية بن يزيد بعد موت أبيه بشهرين لم يخرج فيهما إلى الناس إلا مرة واحدة . . كان فيها فى الطريق إلى القبر ! !

ومن خلال ستة أشهر ، كانت البيعة قد توسقت لأمير المؤمنين عبد الله بن الزبير . فدانت له كل البلاد بالطاعة المطلقة والولاء الأكبر . فبايع أهل الحجاز بيعة عامة جارفة ، كاد خطرها أن يقضى على بنى أمية جميعاً . ففروا بليل خلف كبيرهم مروان بن الحكم إلى الشـام . . وبايع أهل الكوفة جميعاً ، وتبعهم أهل البصرة – وقد فر من قبضتهم عبيد الله بن زياد إلى الشام – كما بايعت مصر كلها ، وبايع قسم كبير باليمن وخراسان وغيرها . . حتى الشام نفسه ،

(١) كان عمر معاوية الصغير يوم مات عشرين سنة أو يزيد قليلا .. وكان شابا صالحا ، ولكنه كان ضعيفاً كل الضعف عن أسباب الإمارة .

فإن الضحاك بن قيس – صاحب شرطة دمشق – صار يأخذ البيعة من الناس ليجمع شملهم فى غمرة الفوضى ، حتى يستقر أمرهم على بيعة الخليفة الجديد . . ومن ثم لم يسمح الضحاك لمروان بن الحكم والفارين معه من بنى أمية أن يدخلوا دمشق ! !

ثم توالت البيعة ، فشملت أمراء الأمصار الباقية ، فبايع النعمان ابن بشير بحمص ، وزفر بن عبد الله الكلابى بقنسرين ، ونائل ابن قيس بفلسطين – بعد أن أجلى عنها روح بن زنباع الجذامى .

ووقف الخطر أمام أبواب الشام . . وقد أحاط الخوف فيها بنى أمية . . واجتمع عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير بمروان ابن الحكم ، ومن ورائهما كبار الأمويين ووجوه أهل الشام – وقد رأوه مزمعاً على الرحيل إلى ابن الزبير لإعطاء البيعة ، تسليما لواقع الأمور – وأخذوا يحسنون إليه الخلافة ويزينونها له . وهم يحذرونه هلاك قومه جميعاً ، لو دخل سلطان ابن الزبير عليهم من أقطارها . . ويملأونه ثقة بنصرة أهل الشام ، الذين نصروا معاوية من قبل ، وأخضعوا له بقية الأمصار . . وكانت كلها فى قبضة على كرم الله وجهه ! !

إن عبيد الله ليعلم أن حياته رهينة ببقاء ملك بنى أمية . وإنه ليرى السيوف قد خرجت من أغمادها فى العراق تطلب عنقه ، وعنق قاتلى الحسين من أشياع بنى أمية جميعاً ، بل إنه يرى ولاة عبد الله ابن الزبير لا يستطيعون رغم سلطانهم ، أن يحدوا من إقبال الناس على جيش سليمان بن صرد وقد تهيأ للمسير نحو الشام فى بضعة عشر ألف مقاتل ، يطلبون ثأر حفيد الرسول . .

وإنه ليعلم أن شيعة على بالعراق ، لن تواصل تأييدها لخلافة

ابن الزبير إلا للتخلص من بنى أمية فى غمرة الانتقال الخطر ، ثم لا يلبثون أن يتجمعوا للتخلص منه هو الآخر ، لأنه هو ابن « الزبير » الذى حارب مع طلحة عليا كرم الله وجهه . . من أجل دم عثمان رضى الله عنه .

وإنه ليدرك فوق ذلك أن الشام هى أصلح من الحجاز قاعدة لمن أراد أن يمتلك زمام الأمر . لكثرة أهلها . وقوة رجالها . ووفرة خيراتها ، وتوسطها بين أمصار المسلمين . مما يسهل مهمة الحرب ضد ابن الزبير فى تموين الجيوش وسرعة تحركاتها وانقضاضها مع أن الشام نفسها لا تزال تخضع بالولاء لنفوذ بنى أمية — خوفاً من أن يشتد بعد ضعف — رغم ما كان من أمر الضحاك بن قيس .

بل إن عبيد الله بن زياد ليعلم بأمر الخوارج الذين خرجوا للذود عن حرمة المسجد الحرام تحت لواء عبد الله بن الزبير أمام جيش الشام ، ولامتحان رأيه لو صارت الخلافه إليه : فإن كان على رأيهم بايعوه، وإن كان دون ذلك انفضوا عنه وخذلوه فى بلادهم . . بل وحاربوه ، فكان ابن الزبير على خلاف رأيهم فى كل ناحية ! !

لقد سألوه عن رأيه فى أبى بكر وعمر ، فقال ابن الزبير فيهما وأحسن ، فلما سألوه عن عثمان وعلى والزبير وطلحة وعائشة ، قائلين ضمن ما قالوا :

— فما تقول فى عثمان . الذى أحمى الحمى . وآوى الطريد . وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه[1] وأوطا آل أبى معيط رقاب

---

(١) لما تجمع الثوار على دار عثمان ليقتلوه . طلبوا منه عزل عبد الله بن أبى السرح عن مصر ، وتولية محمد بن أبى بكر ، فأظهر رضاه ، وكتب ديوانه بذلك . . ولكنهم فوجئوا بكتاب بعثه مروان بن الحكم بخاتم عثمان ، يأمر فيه ابن أبى السرح بقتل محمد بن أبى بكر وأصحابه إذا قدموا عليه .

الناس[1] وآثرهم بفيء المسلمين ؟؟ وفى الذى بعده الذى حكم الرجال فى دين الله[2] وأقام ذلك غير تائب ولا نادم ؟؟ وفى أبيك وصاحبه ، وقد بايعا عليا وهو إمام عادل مرضى . لم يظهر منه كفر . ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا ! ! وأخرجا عائشة تقاتل . وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن فى بيوتهن . وكان فى ذلك ما يدعو إلى التوبة ؟ ؟ فإن أنت قلت كما نقول[3] فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا ، ونسأل الله لك التوفيق . وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول . وتصويب أبيك وصاحبه . والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين الست التى أحلت دمه ونقضت بيعته . وأفسدت إمامته . خذلك الله . وانتصر منا بأيدينا ! !

فما كان جواب ابن الزبير حينذاك ليقنع قوماً غرقوا فى بحر الضلالة والعمى . رغم بلاغة حجته وكرم رأيه . . لقد قال لهم :

— إن الله أمر — وله العزة والقدرة — فى مخاطبة أكفر الكافرين بأرأف من هذا القول . فقال لموسى وأخيه صلى الله عليهما فى فرعون « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تؤذوا الأحياء بسبب الموتى » فنهى عن سب أبى جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول . والمقيم على الشرك ، والجاد فى المحاربة ، والمستبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنبا . .

---

(١) يقصدون بذلك الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وقد ولاه عثمان الكوفة .

(٢) يقصدون عليا كرم الله وجهه ، مع أن العجيب هو أن الخوارج هم الذين حملوا عليا على قبول التحكيم فى حربه ضد معاوية ، على الرغم من أن عليا كرم الله وجهه بين لهم أنها خدعة من معاوية ! !

(٣) لعنة الزبير وطلحة رضى الله عنهما .

وكان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى ، أن تقولوا « أتبرأ من الظالمين ! ؟ » فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى بسبب أبى وصاحبه . وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن فى أبويه « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا . . » وقال جل ثناؤه « وقولوا للناس حسناً » وهذا الذى دعوتم إليه أمر له ما بعده !! وليس يقنعكم إلا التوقيف والتصريح !! ولعمرى إن ذلك أحرى بقطع الحجج . وأوضح لمنهاج الحق . وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه . فروحوا إلى من عشيتكم هذه !!

وخرج إليهم فى اليوم الثانى وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدة بن عامر الحنفى . مال إلى صاحبه نافع بن الأزرق . وقال على مسمع من رءوس الخوارج من أتباعهما :

— هذا خروج منابذ لكم .

وجلس ابن الزبير على شىء مرتفع من الأرض . واتجه بوجهه إلى القوم ، وحمد إليهم الله وصلى على رسوله . ثم ذكر أبا بكر وعمر بما هما أهله من الخير . . ثم ترحم على عثمان . وكرم سيرته ، ودافع عن أبيه وطلحة ، فقال :

— وأبى وصاحبه صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورسول الله يقول عن الله تعالى يوم أحد لما قطعت إصبع طلحة : « سبقته إلى الجنة » والزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته ، وقد ذكر أنهما فى الجنة . . ومهما ذكرتموهما فقد بدأتم بأمكم عائشة رضى الله عنها . فان أبى آب أن تكون له أما . نبذ اسم الإيمان عنه ،

قال الله جل ذكره وقوله الحق « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم . . »

فلما أتم حفيد الصديق قوله ، انصرفوا عنه وتركوا مكة وساروا إلى العراق ، ثم إلى الأهواز ليشيعوا خلافه بين الناس .

بل إن ابن زياد ليعلم موقف المختار بن عبيد الثقفي من عبد الله ابن الزبير . فإن المختار الذى كان يحرض أهل العراق ضد الحسن قبل الحسين . تزلفا لبنى أمية ، ثم انقلب فجأة على بنى أمية ، فأعلن حربه عليهم بعد مقتل الحسين ابتغاء الجاه والسلطان وحب الإمارة . . وانحاز إلى أهل مكة تحت لواء ابن الزبير ، ليحفظ له ابن الزبير تلك اليد عنده . . قد أيقن هو الآخر أن حفيد الصديق لن يبلغه أطماعه ومناه . ولن يكون المختار بعد ذلك إلا عقبة كئودا فى طريق ابن الزبير ، رغم إظهار ولائه ورضاه . . بل إن ابن زياد مع ذلك قد علم أن المختار حين سار إلى العراق بعد مؤازرة ابن الزبير بمكة ، لم يكن همه دعوة الناس إلى بيعته ، وإنما كان يدعو سراً إلى بيعة ابن الحنفية — دون علمه أو رضاه أول الأمر — ويستغل حركة جيش التوابين لتمكين سلطانه ، هو دون سلطان ابن الزبير ، حتى حبسه عامل ابن الزبير بالكوفة . بعد أن وضحت له نيته الخبيثة الماكرة .

* * *

واتحدت كلمة بنى أمية بالشام على أضواء الأمل التى سلطها ابن زياد وابن نمير[1] على قلوبهم ، وتنازل حسان بن مالك الكلبى

(١) قال ابن نمير يوم اجتمع الناس بالجابية لاستخلاف مروان بن الحكم « إنى رأيت فى المنام قنديلا معلقا من السماء ، وأن من يمد عنقه إلى الخلافة تناوله ولم ينله ، وتناوله مروان فناله ، والله لنستخلفنه » .

عن التشيع لابن أخته الصغير خالد بن يزيد بن معاوية . . والتفت من حوله تلك القوة الخطيرة من أشياعه فى الأردن . كما التفت حوله تلك العصبة الهائلة من آل بيته من بنى كلب فى دمشق ، وانحاز الجميع معه إلى الرضى باستخلاف شيخ الأمويين مروان بن الحكم ، على أن يكون الأمر من بعده لخالد بن يزيد ! !

ومر شهران اثنان ، تجمع لمروان خلالهما جيش قوامه ثلاثة عشر ألف مقاتل ، فسار به لاقتحام دمشق .

ولكن الضحاك بن قيس ، خرج إليه فى ستين ألف مقاتل . . فطلب مروان الموادعة ليخدع الضحاك ، وتمت الخديعة التى أشار بها عبيد الله بن زياد . . وظن الضحاك أن القوم قد عدلوا عن رأيهم وأرادوا البيعة لابن الزبير . . فألقى جنوده السلاح . . فأخذهم مروان على غرة . . ودارت معركة رهيبة ، قتل فيها الضحاك نفسه . واستقر الأمر لمروان بالشام كلها . . ! !

وتطاير شرر الهزيمة إلى بقية أمصار الشام ، فثار أنصار الأمويين فى حمص ، وهرب أميرها النعمان بن بشير . فاتبع القوم أثره فقتلوه . .

وهرب من بعده زفر بن الحارث والى قنسرين ، وتحصن بقرقيسيا فى شمال العراق . .

وواصلت جيوش الشام زحفها حتى بلغت مصر ففتحتها ، وأخذت البيعة من أهلها . وطردت منها عبد الرحمن بن جحدم ، أميرها من قبل عبد الله بن الزبير بعد حرب طاحنة ضروس . كانت الخديعة فيها هى سلاح مروان الوحيد .

وملأت نغمات الفوز المتلاحقة قلوب أهل الشام ثقة فى النصر ، فاتجهوا نحو العراق فى جيش كثيف ، حتى إذا كانوا بعين الوردة فى طريقهم ، لقيهم جيش التوابين وعلى رأسه سليمان بن صرد رضى الله عنه ، فى جمع عظيم ، يريد الثأر للحسين من عبيد الله بن زياد وممن والاه من بنى أمية وأنصارهم وأجنادهم ، وما كان غير يسير ، حتى شاء القدر مشيئته . فأطاح عبيد الله بن زياد برؤوس الآلاف من أعدائه من جيش التوابين ، وبرأس قائدهم سليمان بن صرد صاحب رسول الله . واستمر جيش الشام فى زحفه بعد المعركة صوب وجهته ، بينما عاد جانب منه يحمــل رءوس هذه الآلاف من أعداء بنى أمية . على رماح طويلة ، ليقروا بها عين مروان فى ساحة دمشق ! !

وكأن مروان قد رأى الأيام تجرى به فى طريق اليمن والغلبة فأزهاه النصر فى كل ميدان حل فيه أجناده ، فعقد العزم على بعث جيش آخر نحو الحجاز . ليستخلص المدينة من حوزة ابن الزبير ، وليقتص من أهلها الذين طردوه منها منذ قريب ، ثم ليضرب من بعدها مكة ضربة قاضية ، يستأصل بها شأفة ابن الزبير .

فما كاد جيش ابن زياد يغادر عين الوردة فى طريقه نحو العراق ، حتى غادر جيش حبيش بن دلجة عاصمة الشام نحو المدينة .

ويشاء الله أن يمضى الجيشان إلى وجهتيهما . فلا يأتى مروان من خبرهما شىء تقر به عينه . . لقد عاجله القضاء المحتوم فمات على سريره وسط آماله البتراء ! !

* * *

وأعتلى عبد الملك بن مروان عرش أبيه ، فرأى العرش يتماوج

من تحته ، والخطر يحيط بجيوشه ، وقد سرت فيها روح العصيان ، ورأى عمرو بن سعيد[1] يتهدد ملكه ويطمع فيه ، ويزهو بين بنى أمية وأهل الشام بانتصاره على مصعب بن الزبير حين جاء على رأس جيش لأخيه عبد الله بن الزبير لغزو قلعة الأمويين بعد أن تم لمروان فتح مصر . . وقد كاد مصعب أن ينتصر ، لأنه قطع طريق جيوش مروان، فى أرض فلسطين بين مصر والشام . . لولا أن عاجله جيش عمرو بن سعيد ، فلحق به ، وأثنى قوته عن بلوغ مرماها ، بعد معركة عنيفة هوجاء . .

وبدأ عبد الملك عهده بقتل عمرو وهو يقول :

— قلما اجتمع فحلان فى ذود ، إلا عدا أحدهما على الآخر[2].

وكأن هذا الحدث الكبير ، كان إيذانا بمرحلة أخرى ينقلب فيها وجه المعركة القائمة ، ويبتسم من خلالها القدر لعبد الله بن الزبير حينا ، قبل أن يعبس إلى الأبد !

فما أن بلغ ابن الزبير مقتل عمرو بيد عبد الملك — وكان مشغولا مع أصحابه ببناء جوانب الكعبة المطلة على جبل أبى قبيس ، بعد أن تهدم منها ما تهدم إثر ضربها بالمنجنيق — حتى صعد إلى المنبر فى صلاة جامعة ، بشر أصحابه من خلالها بالنصر ، رغم فداحة الخطوب فى مختلف الميادين . . ولوح لهم ببوادر الخلاص من الظالمين ، بقتل الطاغية الذى طالما كاد لهم ، وهو أمير على مكة والمدينة . . والذى لولاه

---

(١) عمرو بن سعيد ، هو ابن عم مروان بن الحكم . . وكانت أنظار أهل الشام قد اتجهت إليه لاستخلافه دون مروان فى مؤتمر الجابية ، لولا صغر سنه . .

(٢) استطاع عمرو بن سعيد أن يستولى بعدد من الجيش على دمشق ، وأن يسطر على بيت المال ، وأن يجتمع الناس حوله على خلع عبد الملك ؛ ولكن عبد الملك حاصره بقوة على رأسها الحجاج بن يوسف الثقفى ، ثم صالحه وغدر به .

لقضى مصعب بن الزبير على سلطان بنى أمية فى الشام كلها ، وفى كل الأمصار على إثرها . . ثم قال :

– أيها الناس ، إن عبد الملك بن مروان قتل لطيم الشيطان[1] « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » .

ودارت الأيام لتقلب صفحة أخرى من صفحاتها ، حيث يكتب القدر سطوراً بارزة من النصر فى سجل عبد الله بن الزبير ، بعد سلسلة هزائمه المتلاحقة . . فما كاد يصل جيش الشام – الذى بعثه مروان قبل موته – إلى المدينة ، حتى فر أمام قواته الغاشمة نائب ابن الزبير فيها على رأس حاميتها ، ولكن قوات عبد الله فى مختلف الميادين قد توحدت قيادتها لدرء الخطر . فما لبث جيش الشام قليلا ، حتى لحقت بحامية المدينة قوة كبرى من جيوش حفيد الصديق بالبصرة ، فأنزلت النكال بالمعتدين على حرم رسول الله . وقتلت قائدهم ، وشردت كثرتهم فى البوادى . وأسرت من فلولهم خمسمائة مقاتل ، كان مصيرهم الموت صبرا .

ويشاء الله أن يصل جيش ابن زياد إلى أبواب الكوفة بالعراق ، بعد أن طرق جيش ابن دلجة أبواب المدينة بقليل ، ليلقى الضربة الكبرى هو الآخر على أيدى جيش الشيعة بالعراق تحت لواء المختار بن عبيد ، انتقاماً لقتل الحسين . وأخذاً بثأر جيش التوابين الذى قضى معظمه فى موقعة عين الوردة ، على يدى عبيد الله بن زياد . . وتدعيما للدعوة إلى استخلاف محمد بن على بن الحنفية دون ابن الزبير وعبد الملك ! !

ولئن كان ابن الزبير قد أدرك خطر المختار على كيان خلافته ،

---

(١) هو لقب سوء لعمرو بن سعيد ، وذلك أن فمه كان فيه ميل شديد ، وكان يذهب الخيال بكثير من أنصار ابن الزبير إلى أن الشيطان لطمه فأمال فمه ! !

بعد أن استتب له الأمر بالكوفة فى غمرة الثورة العارمة على طغيان بنى أمية وأشياعهم ، وبعد أن طرد عماله منها ليستخلصها لسلطانه ، تحت ستار الدعوة لآل البيت ، وليجعل منها قاعدة للوثوب على الشام والحجاز لإخضاعهما[1] . . فإن ابن الزبير لم يشأ أن يضرب ضربته للكوفة قبل أن يعلم نتيجة الحرب الدائرة بين المختار وعبيد الله . . فلعل النتيجة أن تكون ضعفا لجيشيهما على السواء ، بل لعلها أن تكون فرصة للتخلص من أحد الطاغيتين . . وحسبه ذلك من كسب عظيم . .

ودارت رحى الحرب بين جيش المختار وجيش عبيد الله ، وأحاط ابراهيم بن الأشتر — أمير جيش المختار — فى سبعة آلاف مقاتل ، بجيش الشام من كل جانب ، وأخذوه على غرة فى ليلة ظلماء ، وصدق جند الشيعة الحملة فى القصاص للإمام الشهيد . . فهزموا أعداءهم شر هزيمة ، وحزوا رأس عبيد الله ونصبوها على رماح طويلة ، ثم أتوا بها وبالأسرى إلى المختار بالكوفة . . ومن ثم بعث بها الكذاب[2] إلى على بن الحسين بالمدينة ، لتقـر عينه بثأر

---

(١) لما حبس ابن الزبير محمد بن الحنفية وجماعة من بنى هاشم فى سجن عارم لأنهم لم يبايعوه رغم مبايعة أهل الحجاز . . استطاع المختار أن يبعث رجالا من الشيعة أشداء فكسروا السجن ، وأخرجوهم وأبلغوهم مأمنهم من الأرض ، دون أن يشعر بدخولهم إلى أرض الحجاز أحد !! وكادوا أن يحدثوا فتنة فى موسم الحج وهم يصيحون بالناس « يالثأرات الحسين !! يالثأرات الحسين . . » لولا أن عالج ابن الزبير الأمر بكياسة ودهاء .

(٢) كان المختار يتولى بنى هاشم ويدعو لمحمد بن الحنفية ، ويصفه صفات لا يرضاها ابن الحنفية نفسه ، ومن أشهر مبادئه القول بعودة محمد بن الحنفية بعد موته ، وبتناسخ الأرواح ، وبأن الحسن والحسين نبيان ؛ وأن ابن الحنفية نبى ورث عنهما النبوة كذلك ، وأنه يحيط بالعلوم كلها !! فكان ذلك هو بداية الطريق إلى خذلانه من أقرب خاصته ووجوه جنده وقائد جيشه .

أبيه[1] ولتقوى عزيمة بنى هاشم بالحجاز فى تأييد حركته بأرض العراق، بعد أن صارت الكوفة كلها فى قبضته ، يجتث منها شأفة أعداء البيت واحداً إثر واحد . . وبعد أن صار هو هدفاً لجيوش ابن الزبير بعد جيش الشام . .

ومن خلال موجة الخطر التى تحيط بسلطان ابن الزبير فى بقية أجزاء العراق ! وتحيط بجيوشه خارجها ، حيث تدور الحرب على أشدها بينه وبين الأزارقة[2] بأرض فارس ، وإن كان النصر لا يزال حليف المهلب بن أبى صفرة عامله عليها . . وبالرغم من ضياع ملكه فى مصر وغيرها ، فإنه لم يشك لحظة فى النصر على أعدائه جميعاً ، وقد تعددت زعامتهم وجيوشهم وأنصارهم . . إن لديه قوة مدخرة ليوم البأس الشديد ، حيث يبدأ حربه للقضاء على المختار واستئصال شأفته ، ثم يتجه صوب عبد الملك وقد جاء هو الآخر على رأس جيش كبير آخر من أهل الشام ، وعسكر عند حدود العراق انتظارا لنتيجة الحرب بين جيش ابن الزبير وجيش ابن عبيد . .

واختار حفيد الصديق على رأس جيشه الهائل ، أخاه المصعب ابن الزبير ، فكان الاختيار نعم الاختيار . . إن المصعب ليملأ قلوب

---

(١) لما دخل رأس بن زياد على على بن الحسين ، كان يتناول طعام الغداء ، فلما رآه قال : سبحان الله ! ! لقد أدخل رأس أبى على ابن زياد وهو يتغذى كذلك .

(٢) هم القسم الأكبر من الخوارج تحت لواء نافع بن الأزرق ، والخوارج عموماً هم القوم الذين تنبأ بهم رسول الله فى حديث له قبل ظهورهم حيث قال عنهم « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود » وذلك لفرط جمودهم على ظاهر الآيات دون نظر إلى مراميها . وعظم تنطعهم فى الدين وجمودهم على ألفاظه دون فقهة واستبدادهم بآرائهم الناشزة وتعصبهم لها كل التعصب حيث لا يقبلون فيها نقاشا ولا جدالا ، إنما هو الرأى أو السيف ! ! غير آبهين بما يجره خروجهم من فتن وويلات « سيف بنى مروان » .

أعداء أخيه روعة وخوفاً . فهو القائد الذى لا يعرف التّراجع أبداً ، ولو صار وحيداً فى الميدان .

ودخل المصعب البصرة على حين غفلة من أهلها . . . وصعد إلى منبر المسجد الجامع ملثما — وقد اجتمع فيه الناس لمنادى عامل ابن الزبير — ثم حسر البطل لثامه ، وأبرز وجهه المهيب للناس ، فهابوه جميعاً ، وهم يتّهامسون بينهم : المصعب . . المصعب ! !

وقام القائد الرهيب من قعدته ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ، ثم أخذ يخطب وهو يتلو من كتاب الله ما شاء ، حيث قال :

— طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم . يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . .

ثم رفع يده وأشار بها نحو الشام وهو يستأنف تلاوة آيات الله فقال :

— ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض .

ثم أشار بيده الأخرى نحو الكوفة وهو يستكمل الآيات البينات فقال :

— ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

ثم قال :

— يا أهل البصرة ، بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم . . وقد لقبت نفسى بالجزار !

ثم ترك المنبر ، والناس فى وجل شديد . . إنهم رأوا فى منطقه أحد أمرين . إما الصدق فى حرب أعداء أخيه . . وإما القضاء عليهم قبل أعدائهم . . ولا شىء بين ذلك .

واشتد حزم المصعب فى تجييش الجيوش وتجميع القوى ، حتى صارت البصرة فى خلال أيام . معقلا جباراً من معاقل ابن الزبير ، ومن ثم ، بعث إلى المهلب بن أبى صفرة ، فجاءه فى جيش عظيم . . وما لبث القائدان الكبيران أن أحكما الخطة . . فسارت جيوشهما تدك بكل قوتها قلاع الفتنة ، وتطهر أرض الشقاق من فتنة الكذاب[1] ومازالت بها تمحو من الوجود جيش المختار . حتى لم يبق حول الكذاب إلا تسعة عشر رجلا من خاصته ، كانوا هم آخر من ذاق معه مغبة الجحود والكفران ، وعاقبة الظلم والعدوان .

وجىء برأس المختار إلى المصعب فى دار الإمارة بالكوفة ، وكانت لحظة رهيبة . لم يملك إزاءها إلا أن حمد الله وأثنى عليه فى صوت جهورى مسموع . . ثم أمر للقادمين بالرأس بثلاثين ألف درهم . .

حقاً . . إن المصعب قد صار من غايته — فى تدعيم كيان الخلافة لأخيه فى الأمصار كلها — عند منتصف الطريق . . ولكن هل تسير الأيام فى طريقها الطبيعى لتشهد دار إمارة الكوفة رأس عبد الملك هو الآخر بين يدى المصعب . فتدول بذلك دولة بنى مروان ؟؟ أم أن الأيام ستجرى بما لا يكون فى الحسبان ، فيكون رأس المصعب

---

(١) ادعى المختار النبوة فى آخر عهده ! ! ومن أجل ذلك كان اهتمام ابن الزبير بخطره أكبر من اهتمامه بخطر عبد الملك بن مروان .

بين يدى عبد الملك فى تلك الدار المشئومة ، فتدول بذلك دولة عبدالله ابن الزبير ، أو تجرى فى طريق الزوال !؟

أجل . . لم يكن استتباب الأمر للمصعب فى العراق دليلا على التسليم والطاعة كما ينبغى أن يكون التسليم والطاعة لأمير المؤمنين ، ولكن كان تسليم العبد وطاعة الذليل ! ! إن أهل العراق قد ألفوا بيع الذمم وشراء الدنيا ، تسليما لواقع الحياة التى فرضها ولاة بنى أمية ، واجتناء لنعيم العاجلة ، بعد أن شق عليهم الصبر فى مجاهدة الطغيان وجنده ، ومن ثم كان همهم أن يقبضوا ثمن الولاء والطاعة لمن يدفع الثمن غالياً ! ! ولكن عبد الله بن الزبير الذى قام ليستبدل بواقع الحياة ، حقيقة الإسلام وجوهره . ليس بالرجل الذى ينفق من مال الله على شراء الذمم ، ولو انفض من حوله الناس جميعاً . . لقد قال لأخيه المصعب حين وفد عليه فى رؤوس أهل العراق ، وعلى مسمع منهم جميعاً وفى ملأ الناس :

– جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله ؟؟ وددت لو أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم !

وما كانت كلمة الإيمان لترد نفوس أهل الطمع عن أطماعها . . وإذن فما أعظم ما ينتظر سلطان ابن الزبير من دمار على أيدى أهل العراق . . فلقد كرهه القوم ، لا لشىء من دينه ، وإنما لشىء من دنياه . . وإن كانت دنيا ابن الزبير هى فى الواقع سجل دينه ، الذى علمه أن الولاء لله لا للدراهم ولا للدنانير [1] إن أهل العراق لم يروا دنياهم

---

(١) أقبل أعرابى إلى عبد الله بن الزبير فقال : (أعنى وأقاتل عنك أهل الشام) فقال له : (اذهب فقاتل ، فإن أغنيت أعطيناك) قال : (أراك تجعل روحى نقداً ودراهمك نسيئة !) .

ستقبل عليهم لو آلت الخلافة لابن الزبير ، ولكن رأوها تقبل فى ركاب عبد الملك ، وقد صار الدينار عدته قبل سيفه . ! !

ولئن كان ابن الزبير قد علم نية أهل العراق ، فإنه قد علم كذلك علاج ضعفهم ، فهم مع العصا طائعين . وحسبه فى المصعب خير معالج لدائهم ومقوم لاعوجاجهم . . لو ابتسم له الحظ ، وطال به العمر ، ولو قليلا .

ولم يمض كثير ، حتى تحرك جيش عبد الملك لخوض معركة العراق ليضرب المصعب بجيشه الكبير الضربة القاضية . . إنه يعلم أن الكثرة تغلب الشجاعة ، وأن المصعب الشجاع المقدام سوف لا تكون هزيمته من قبل جند الشام [1] بقدر ما ستكون من قبل جيشه هو ! ! وتحققت فراسة عبد الملك . . وظهرت بوادر الهزيمة قبل الموقعة الفاصلة بتسرب الكثير من جند العراق إلى جند الشام . .

ووقعت الواقعة الخطيرة ، لتكشف القناع عن أكبر نفاق قام عليه جيش ليحارب فى سبيل مبدأ وعقيدة ؛ فأسلم جيش العراق قائده العظيم لأعدائه بعد ساعة . . ولكن المصعب كان وحده أعظم من الجيش قوة ومنعة ! ! فحارب وحده جيش الشام وجيش العراق . وظل يذود عن حماه طيلة يومه ؛ لا يكل ولا يمل ، حتى خاف عبد الملك سوء العاقبة بانحيار أهل العراق إليه مرة أخرى تحت قهر الخوف من بأسه الطاغى وبلائه العظيم ، فأرسل إليه أخاه محمداً بن مروان

---

(١) لما اتسعت شقة الحروب بين عبد الملك وابن الزبير ، ثار الروم ، واستضعفوا الشام بعد أن خرج جنددا إلى العراق لحرب ابن الزبير ، وأرادوا أن ينقضوا عليها ، ولكن عبد الملك هادنهم على أن يدفع لملك الروم كل جمعة ألف دينار ! !

بالأمان المطلق . . ولـكن المصعب أبى إلا أن يحيا حياة الأبطال أو يموت فى ساحة النضال . . وقال للرسول :

– قضى الأمر ، إن مثلى لا ينصرف عن هذا الموضع إلا غالباً أو مغلوباً . . ! !

وشاء الله أن يكون قتل المصعب على يد أهل العراق أنفسهم ، لقد طعنه زائدة بن قدامة من خلفه غدراً ، وهو يقول :

– يا ثارات المختار . . يا ثارات المختار . ! !

ووقف عبد الملك خاشعاً أمام رأس المصعب موضوعا بين يديه ، وما ملك نفسه أن قال :

– متى تلد قريش مثلك . . هذا سيد شباب قريش ! ![1]

وما كاد يسكت عبد الملك ، حتى بادره حامل الرأس فقال :

– والله يا أمير المؤمنين لو رأيته والرمح فى يده تارة ، والسيف

---

(١) قال عبد الملك بن عمير : « دخلت القصر بالـكوفة ، فإذا رأس الحسين ابن على على ترس بين يدى عبيد الله بن زياد ، وعبيد الله على السرير . . ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين ، فرأيت رأس عبيد الله بن زياد على ترس بين يدى المختار ، والمختار على السرير .. ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين ؛ فرأيت رأس المختارعلى ترس بين يدى مصعب ابن الزبير ، ومصعب على السرير ، ثم دخلت القصر بعد حين فرأيت رأس مصعب ابن الزبير على ترس بين يدى عبد الملك ، وعبد الملك على السرير ، كل ذلك خلال اثنتى عشرة سنة . . ! وكان المصعب من أجل الناس وأشجع الناس وأسخى الناس ، وأجمل الناس ، وكان تحته عقيلتا قريش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين .. ولما قتل مصعب خرجت سكينة تريد المدينة ، فأطاف بها أهل العراق . وقالوا : «أحسن الله صحابتك يا ابنة رسول الله » فقالت : « لا جزاكم الله عنى خيرا ، ولا أخلف عليكم بخير من أهل بلد ، قتلتم أبى وجدى ، وعمى وزوجى ، أيتمتمونى صغيرة وأرملتمونى كبيرة .. ثم تركتهم إلى الحجاز . « سيف بنى مروان »

تارة ، يفرى بهذا ويطعن بهذا ، لرأيت رجلا يملأ القلب والعين شجاعة ، لكنه لما تفرقت عنه رجاله ، وكثر من قصده ، وبقى وحده مازال ينشد :

وإنى على المكروه عند حضوره . أكذب نفسى والجفون فلم تغض
وما ذاك من ذل ولكن حفيظة أذب بها عند المكارم عن عرضى !
وإنى لأهل الشر بالشر مرصد وإنى لذى سلم أذل من الأرض[1]

فرفع عبد الملك رأسه ، وقال :

ــ كان والله كما وصف به نفسه وصدق ، ولقد كان من أحب الناس إلى ، وأشدهم لى ألفة ومودة . ولكن الملك عقيم . ![2]

---

(١) لما انتهى إلى عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب وقد كان عدته وأحب إخوته إليه وإن لم يكن له شقيقا ، قام فى الناس خطيبا وقال :

ـ الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ألا وإنه لم يذلل الله من كان الحق معه وإن كان فردا ، ولم يعزز من كان وليه الشيطان وحزبه وإن كان معه الأنام طرا ، ألا وإنه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا ، أتانا قتل مصعب رحمة الله عليه ، فأما الذى أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة ، وأما الذى أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعدها ذو الرأى إلى جميل الصبر وكريم العزاء . . ولئن أصبت بمصعب ، لقد أصبت بالزبير قبله وما أنا من عثمان بخلو مصيبة . . وما مصعب إلا عبد من عبيد الله وعون من أعوانى . . ألا إن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل الثمن ، فإن يقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو أبى العاص ، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى الجاهلية ولا الإسلام ، ولا نموت إلا قعصا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف . . إلا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه ، فإن تقبل لا آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر لا أبكى عليها بكاء الحرق المهين ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . .

(٢) قيل لعبد الملك : « أكان مصعب يشرب الطلاء ـ أى الخمر ـ فقال : « والله لو علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه » .

واستقر الملك لعبد الملك بالعراق كله ، وقد أقبل الناس على البيعة له ، بعد أن نقضوا بيعة ابن الزبير [١] .

وجرت الأيام بما يشتهى أهل العراق ، لقد أمر عبد الملك عماله ألا يقطعوا الأطعمة عن البطون الجائعة والمتخمة على السواء، وألا يبخلوا بالمال فى شراء الذمم وتدعيم السلطان ، فى مرحلة لا تزال الحرب فيها بين الدين والدنيا ، تقصف رعودها بين عبد الله بن الزبير وبين بنى مروان ، وقد صار الفريقان على باب الجولة الأخيرة فى أدق معارك الخلافة ، حيث لا يكون الخليفة من الخصمين ، إلا صاحب رأس الآخر . !

٤٥ ــ خاتمة المطاف . . .

جلس عبد الملك بن مروان على سريره بدار الإمارة بالكوفة وظل يستقبل وفود أهل العراق وفداً وفداً ، ليودعهم قبل مسيره إلى الشام ، ومضى النهار كله . وعبد الملك لا يفارق مجلسه إلا للصلاة كلما جاء وقتها . . فلما قضيت صلاة العشاء تفرق الناس إلى بيوتهم ، وتركوه فى حاشيته وخاصته من أهل الشام .

وأغلقت أبواب الدار المهيبة ، وقد أحاطها الحرس من كل جانب، انتظاراً لأمر عظيم يقرره الخليفة الأموى بين أهل شوراه .

وتطور الحديث الرهيب بينهم حول اختيار القائد المنشود لخوض المعركة الفاصلة ، حيث يتقرر مصير الخلافة بين المسلمين . . فإما

(١) خطب عبد الملك يوماً بالكوفة بعد فتح العراق ، وقال : « لو كان عبد الله ابن الزبير خليفة كما يزعم ، لخرج فآسى بنفسه . ولم يغرز ذنبه فى الحرم ! ! . »

آلت إلى عبد الملك أبداً ، وإما آلت إلى ابن الزبير أبداً . .

ومرت الساعات الطوال دون أن يتقدم إلى المهمة الخطيرة قائد واحد من قواد عبد الملك.

وانفض المجلس . . وقد علت وجه عبد الملك كآبة ، أخذ يخفيها وهو يغادر المكان طلبا للنوم والراحة . . وهو يقول :

ـ موعدنا الغد إن شاء الله فى ملأ الناس . .

وما كان عبد الملك ليجهل خطر الميدان الجديد ، وإلا لما صبر على تخاذل قواده فى حضرته عن حمل العبء الثقيل فى لقاء ابن الزبير بأرض الحجاز ، حيث يتربع الرجل العظيم على عرش خلافته وسط أصحابه ، وقد وهبوه أرواحهم ، حينما أعطوه البيعة ، وعاهدوه على حمل أمانتها وأعبائها كاملة شاملة .

إن عبد الملك ما يزال يرن فى أذنيه حديث ذلك المجلس الرهيب ، الذى جمعه بعبد الله بن الزبير فى مكة منذ إحدى عشرة سنة ، على رأس وفد يزيد إليه . . فما حفل به ، وما زاد على أن قال له ولأخيه عبد العزيز :

ـ أخبراه أنى أقول :

إنى لمن نبعة صم مكاسرها   إذا تناوحت القصباء والعشر
ولا ألين لغير الحق أسأله   حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

وكيف لا يرهب قواد عبد الملك قتال ابن الزبير على رأس جيشه القوى فى البلد الأمين الآمن ، الذى انهار على صخرته العاتية جيشان عظيمان من جيوش بنى أمية من قبل . . إن قواد عبد الملك يعلمون بأس حفيد الصديق حق العلم ، وإنهم قد رأوا عبد الملك يكاد أن ينثنى

عن قتاله بنفسه ، ولا يستطيع أن يقدم عليه كما فعل فى معركة العراق . . بل إنهم يعتقدون أن ما أحرزوه من نصر لعبد الملك فى كل ميدان ، لم يكن شيئاً بجانب ما ينتظرونه من خطر فى ميدان الحجاز بالذات . . حيث وطد ابن الزبير عزمه — رغم كل ما كان — للقضاء على دولة بنى أمية ، أو يموت .

بل إن عبد الملك ليدرك فوق ذلك شدة ابن الزبير فى مقارعة الخطوب ، حيث لا يقدر على الوقوف فى وجهه جيش بأسره . . وإنه ليدرك كذلك أن حفيد الصديق لا يخشى على وجه الأرض قوة إلا الله وحده ، حين يغضب للحق الذى يؤمن به . .

وكيف لا يخاف عبد الملك سوء العاقبة . لو أن جيشه الذى يعتمد عليه فى تثبيت دعائم خلافته . قد فنى عن آخره فى المعركة الحاسمة ! ؟ إذن لما ذهب ملك بنى مروان فحسب . . بل لذهبت معه أرواحهم وأرواح أشياعهم ، لقاء الأرواح التى أزهقوها من أصحاب ابن الزبير ، سعياً لاغتصاب الملك من يده . بعد أن صار هو الخليفة المرضى ، الذى دانت له كل الأمصار بالبيعة الصادقة فور موت يزيد . . دون قسر أو قتال . .

ومن هو عبد الملك بجوار معاوية نفسه . . ! ؟ إن ابن الزبير ما كان يقيم لسلطانه الممكن وزنا فى غمرة الخلاف . . وما كان يخشى أن يقول له كلمة الحق التى يؤمن بها صريحة لاذعة ، بين الملأ من قومه وأشياعه وأجناده . . غير هياب من الموت ، وقد كان مجرداً من القوة التى تؤيده وتحميه . . بل إنه لطم ابناً صغيراً لمعاوية ذات مرة أمام بصره وفى بيته . وتحت أعين الجالسين من حاشيته .

وما استطاع معاوية إلا أن يكظم غيظه راغما ، حتى لا يتطور الحرج إلى ما هو أعظم مما كان . ! !

فلقد دخل ابن الزبير على معاوية ذات يوم . ومعاوية يملؤه البغض له والغضب منه . . ودار بينهما حديث شديد ، أحرج معاوية وسط حاشيته . . فابتسم معاوية ابتسامة المهزوم ، وهو يومىء إلى ابن له صغير . . فما كان من الغلام إلا أن لطم ابن الزبير فجأة — وهو غافل — لطمة دوخ منها رأسه ، فلما أفاق . قال للصبى : « ادن منى » فدنا منه . . فقال له : « ألطم معاوية . ! ! » فقال الصبى : « لا أفعل » فقال ابن الزبير : « ولم ؟؟ » فقال : « لأنه أبى ! ! » فرفع ابن الزبير يده . فلطم الصبى فى حضرة أبيه لطمة جعل يدور منها كما تدور الدوامة ! !

وانخلع قلب معاوية . وما استطاع إلا أن يقول لابن الزبير :

— تفعل هذا بغلام لم تجز عليه الأحكام . ! ؟

فأجابه ابن الزبير على الفور :

— إنه والله قد عرف ما يضره مما ينفعه . وأحببت أن أحسن أدبه ! !

فصمت معاوية . ووجم القوم . وكأن على رؤوسهم الطير ! !

بل إن معاوية أراد يوماً أن يقلل من قدر ابن الزبير بين الناس فى استيعابه لعلوم العرب — قديمها وحديثها — ولكن ابن الزبير كذب ظنه . وأفحمه على الملأ . حتى أدرك الجميع فى حضرته أن حفيد الصديق . لن يبارى فى أى ميدان ! !

فلقد أذن معاوية للناس يوماً . فدخلوا عليه . فاحتفل المجلس

وهو على سريره ، فأجال بصره فيهم ، فقال :

– أنشدونى لقدماء العرب ثلاثة أبيات جامعة ، من أجمع ما قالتها العرب . .

فأحجم الحاضرون ، وهم ينظرون إلى ابن الزبير نظرة المنقذ . .

وابتسم معاوية وهو ينظر إلى ابن الزبير هو الآخر . . وقال :

– يا أبا خبيب .

فأجابه ابن الزبير بعد برهة ، وكأنه غير مكترث ، فقال :

– مهيم ! !

فقال معاوية :

– أنشد ذلك .

فتبسم ابن الزبير ابتسامة الواثق بعلمه، الضالع فى إدراكه وحفظه، وشاء أن يلقن معاوية درساً قاسياً ، فقال :

– نعم يا أمير المؤمنين . . . بثلاثمائة ألف ، كل بيت بمائة ألف !

ولم يستطع معاوية أن يتراجع فى حضرة الناس عن شرط ابن الزبير . فقال :

– نعم . . إن ساوت !

ولكن ابن الزبير قبل التحدى لمعاوية . وهو يستحضر فى ذهنه أبياتاً للأفوه الأزدى . أراد بها كيداً جديداً لمعاوية فى هذه الفرصة السانحة ، قبل أن يكون انتصاراً أدبياً عليه فى حضرة الناس . فقال :

– أنت بالخيار . . وأنت واف كاف .

ثم أنشد يقول :

بلوت الناس قرنا بعد قرن | فلم أر غير ختال وقال
ولم أر فى الخطوب أشد وقعاً | وكيداً من معادات الرجال
وذقت مرارة الأشياء طرا | فما شيء أمر من السؤال

وصمت ابن الزبير . بينما كان معاوية فى ذهوله ، يقول بين كل بيت وبيت : صدق . . صدق . . صدق . ! !

والتفت معاوية إلى ابن الزبير . يطلب منه فى نشوة أن يستكمل القصيدة الجامعة ، فقال :

– هيه أبا خبيب . .

ولكن ابن الزبير خالف هواه . . وقال :

– إلى ههنا انتهى . ! ؟

وانحدر العرق من جبين معاوية . وهو يعالج هيبته ، فدعا بثلاثين عبداً ، على عنق كل واحد منهم بدرة فيها عشرة آلاف درهم ، فمروا بين يدى ابن الزبير . حتى انتهوا إلى داره . ! !

ولئن ظن عبد الملك . أن ابن الزبير قد دالت دولته تحت سيف القهر والعدوان . وصار سلطانه لا يتعدى الحجاز – بعد قطع الطريق عما بقى معه من أرض خراسان والأهواز وما معها من أرض فارس – فانه لا ينسى أن سنة الحياة قد علمته فيما مضى من عمره . أن الملك سباق إلى من ملك الأرواح . أكثر منه إلى من ملك السيوف والرماح ، وإن طال الأمد ، ورغم ما يكون من فتن يحجب ظلامها نور الحق عن بصائر الناس وأبصارهم . .

وما أبلغ ما يحضر عبد الملك فى حيرته وشدته . من تلك الأبيات التى قالها أبو ليلى نابغة بنى جعدة ، وصاحب اللسان البليغ المفحم

من عداد الشعراء ممن صاحبوا رسول الله ، وممن جاءوا بعدهم .
فقد دخل الشاعر الفحل على ابن الزبير فى المسجد الحرام يستأذنه فى إظهار ولائه . وظل يلح عليه حتى قبل . . فوقف أبو ليلى بين أصحاب ابن الزبير . يصف بشعره الرصين عهد حفيد الصديق ، ويذكر به مع المسلمين عهود العادلين من الخلفاء الراشدين . . فأنشد يقول :

حكيت لنا الصديق لما وليتها ... وعثمان وفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس فى الحق فاستووا ... فعاد صباحاً ، حالك اللون مظلم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى ... دجى الليل جواب الفلاة غشمشم
لتجبر منه جائيا غدرت به ... صروف الليالى والزمان المصمم

فما كان ابن الزبير ليفرح بهذا اللسان . الذى يعرفه المسلمون جميعاً سيفاً بتاراً فى الحق . لو أن صاحبه الشيخ قد تفرغ له من شواغل الجهاد ضد بنى أمية . والسعى فى سبيل العيش . ليحركه فى سبيل الكيد لأعداء حفيد الصديق . . ولكن الخليفة العظيم فى غنى عن ذلك كله[1] لأنه يؤمن بأن حسبه الله . ومن اتبعه من المؤمنين . وما كان منه إلا أن رد الشعر لشاعره برفق وهو يقول :

— هون عليك أبا ليلى . فان الشعر أهون رسائلك عندنا ! أما صفوه . فما لنا وفلال الزبير . وأما عفوه . فإن بنى أسد يشغلها عنك وتيما ولكن لك فى مال الله حقان . حق لرؤيتك رسول الله صلى الله

---

(١) عزل عبد الله بن الزبير عبد الرحمن بن الأشعث عن ولاية المدينة فى سنة ٦٩ هـ لأنه أهان سعيد بن المسيب حينما أحجم عن إعطاء البيعة . . وكان ابن الزبير حريصا على أن تقوم خلافته على الحب والرضا . . وذلك على عكس عبد الملك ، فإن عبد الملك هو الذى ذبح عمرو بن سعيد بيديه كما تذبح الشاة ، لأنه كان يطمع فى الخلافة ، وإن كان يجد الكثير من بنى أميه يرعون فى عمرو . .

عليه وسلم ، وحق لشركتك أهل الإسلام فى فيئهم[1] .

ثم أخذه ابن الزبير بيده ، فأدخله دار النعم ، فأعطاه قلائص سبعاً وجملا وخيلا ، وأوقر له الركاب براً وتمراً وثياباً . . وشكر له سعيه ، واستغنى عن شعره دون جهاده .

أجل . . إنه ابن الزبير ، الذى تربى فى كنف النبوة ، وشرب من دمائها[2] . . فهيهات أن تلين له قناة ، ولو صار أهل الأرض

(١) الفىء : هو الغنائم التى يغنمها المسلمون من أعدائهم فى ميدان القتال .

(٢) قال ليث عن مجاهد : « لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة رضى الله عنه . . » وقال بعضهم : « كان ابن الزبير لا ينازع فى ثلاث : فى العبادة . والشجاعة . والفصاحة » .

وقد ثبت أن عثمان رضى الله عنه جعله فى النفر الذين نسخوا المصاحف مع زيد ابن ثابت وغيره . وقال عبد الواحد بن أيمن : « رأيت على ابن الزبير رداء يمانيا عدنيا يصلى فيه وكان صيتا ـ جهورى الصوت ـ إذا خطب تجاوبه الجبلان أبو قبيس وزروراء ».

وكان رضى الله عنه إذا خطب تذاكر الناس أبا بكر ، لفرط ما بينهما من الشبه العظيم فى الخلقة والكلام .

ولقد كان ابن الزبير من أفقه أصحاب رسول الله فى الكتاب والسنة . . حتى إن أباه الزبير : كان يدهش له وهو غلام ، وكان يقول له : « يا عبد الله ، لا تجادل الناس بالقرآن . . وإنما عليك بالسنة » وذلك لفرط تعمق الغلام رغم حداثته فى فهم أصول الكتاب . .

ولقد جاء سيل مرة فطبق البيت . فجعل ابن الزبير يطوف سباحة ، فطاف سبع مرات !

وجاء فى كثير من الروايات الصحيحة أن الشيطان نفسه كان يخشاه رضى الله عنه . فقد قال أحمد بن أبى الحوارى : (سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : خرج ابن الزبير فى ليلة مقمرة على راحلة له ، فنزل فى تبوك ، فالتفت فإذا على الراحلة شيخ أبيض الرأس واللحية . فشد عليه ابن الزبير : فتنحى عنها ، فركب ابن الزبير راحلته ومضى . . قال : فناداه قائلا : والله يا ابن الزبير لو دخل قلبك الليلة منى شعرة لخبلتك ـ قال : ومنك أنت يا لعين يدخل قلبى شىء . ! ؟)

كما جاء فى غير ذلك من الروايات الصحيحة مواقف كثيرة مشابهة .

جنوداً لعبد الملك .. فإما النصر ، وإما القبر .. ولا شيء بين لك أو دون ذلك . !

* * *

وأقبل النهار . . ونادى المنادى . وامتلأ المسجد الجامع بجحافل أهل العراق وجند أهل الشام . . ووقف عبد الملك يندب الناس لقتال ابن الزبير بمكة ، فلم يجبه أحد ! !

وبينما الناس فى سكونهم الرهيب مشفقين ، إذ برجل عبوس مخيف يقوم وسط الجمع ، ويقول :

– يا أمير المؤمنين ، أنا له . ! !

وما كادت أعين الناس تقع عليه . حتى شملهم الفزع وعمتهم الفوضى . . إنهم يعرفونه جريئا فى الباطل ، فحاشاً سباباً ، سيء الخلق مبغضاً للحق كارهاً له . . بل لقد جاوز فحشه كل حد ، حتى لقد كان يجترئ فى العلن على أسمى مقام . اعتماداً على حماية بنى أمية له فى غمرة الخلاف الدامى . فقد كان يقول – ضمن ما يقول – فيمن يطوفون بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنهم يطوفون برمة وأعواد ! ! »

ولكن أنى لعبد الملك بجبار مثله . لا يرعى فى سبيل بنى مروان إلا ولا ذمة فى عباد الله . ! ؟

وتنفس عبد الملك الصعداء . وكأنه يكذب سمعه . . وقال :

– ما تقول يا حجاج . ! ؟

وانطلق لسان الرجل البغيض الخطير ، وهو يدور بوجهه بين الناس . . وقال :

– أنا له يا أمير المؤمنين ، لقد رأيت يا أمير المؤمنين رؤيا ، كأنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته ، فابعث بى إليه ، فإنى قاتله!

وقرت عين عبد الملك ، فنزل من على المنبر وسط السكون المهيب فرحاً مسرورا ، وقد رأى فى الحجاج بن يوسف الثقفى ضالته التى يبحث عنها بين رجاله الأشداء.(١)

ومن غير الحجاج يستطيع أن يعتمد عليه عبد الملك فى قتال ابن الزبير !؟

إن الأمة كلها تعلم ألا قبل لمسلم مهما بلغ به الفجور والبغى ، أن يرفع طرفه من فرط الرهبة فى وجه حفيد الصديق وفارس الخلفاء وعظيم الأتقياء . . بل إنها لتشفق – رغم تفرقها وخنوعها وتقلبها – من أن تدول بموته دولة الإيمان والتقوى ، وينمحى باستئصال شأفته عنوان الهداية من سماء المسلمين فى غمرة خلافهم حول الخلافة . .

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفى هو ابن عم المختار بن عبيد الثقفى ، وهو القائد الغاشم الذى اعتمد عليه عبد الملك فى استرداد دمشق بعد أن استولى عليها عمرو بن سعيد بعد موت مروان ، كما اعتمد عليه فى تأديب العصاة من عامة جيشه ، فكان الحجاج لا يترك وسيلة أبداً لكيد الخارجين على عبد الملك إلا واتخذها وبطش بها ، فكان قبحه الله يقتل بالظنة ، ويأخذ البرىء بذنب المسىء ، حتى استقام أمر الناس رهباً ورغباً لبنى أمية بالشام كلها قبل غيرها من الأمصار .

ولقد اشتد عداء الحجاج لعبد الله بن الزبير على أثر قتل المختار لأن الحجاج كان يود أن تقوم لابن عمه الكذاب دولة ، فيكون أحد أركانها . !

ويروى أن عبد الملك قال للحجاج مرة : (ليس من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه ، فصف لى عيوبك) فقال الحجاج : (اعفنى يا أمير المؤمنين) فقال عبد الملك : (لابد أن تقول) فقال الحجاج : (أنا لجوج حسود حقود) فقال عبد الملك : (ما فى إبليس شر من هذا . !) .

وماذا بعد أن طرق أمره – حتى فى ساعات محنته – مسامع الناس من أقصى الأرض إلى أقصاها فرأوا فيه صورة اليقين الصارخ فى أصدق معانيه وأروع مراميه . . لقد رآه الناس يصلى فى جوف الكعبة كالخشبة المنصوبة لا تتحرك ولا تميد والحرب على أشدها تدور بين أصحابه وبين جيش الشام ، والمنجنيق يسدد من حوله الضربات المتتابعة من جبل أبى قبيس ، فيهد أركان البيت الحرام على من فيه . . حتى لقد مرت منه فلقة بين لحيته وحلقه ، فمازال رضى الله عنه عن مقامه ، ولا ظهر على صورته هم ولا اهتمام ، بل وما فزع منها ولا قطع قراءته ، ولا ركع دون ما كان يركع ، حتى فرغ من صلاته ، وكأن أمراً لم يقع . !

بل إنه كان يصلى حين تقف الضربات أحيانا ، فتسقط العصافير على ظهره من أعلى الحرم ، تصعد وتنزل فى أمان وهى تظنه جذم حائط أو جذع شجرة . ! !

ولقد رأوه يركع فى صلاته ذات مرة ، وقعد رجل من أصحابه يقرأ القرآن ، فما قام رضى الله عنه من ركعته حتى انتهى الرجل من تلاوة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة !

ولقد سمعوا عنه أنه كان يصلى ذات يوم فى بيته ، فسقطت حية من السقف ، فطوقت على بطن ابنه هاشم ، فصرخ النسوة ، وانزعج أهل المنزل واجتمعوا على قتل الحية فقتلوها ، وسلم الولد ، فعلوا ذلك كله وابن الزبير فى صلاته لم يلتفت ولا درى بما كان حتى فرغ من الصلاة . !

ولقد عرفوه صواما يواصل الصوم سبعة أيام ، يصوم يوم الجمعة ، ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى ، وكان يصوم بالمدينة

ولا يفطر إلا بمكة ، ويصوم بمكة ولا يفطر إلا بالمدينة ! بل لقد كان يبلغ به الحال أحيانا ، فلا يفطر من الشهر كله إلا ثلاثة أيام ! ! .

أجل . . لقد سمعوا عنه ذلك وأكثر من ذلك ، مما لم يروا عشر معشاره فى عبد الملك ، ولا فيمن سبقوه من خلفاء بنى أمية جميعاً بعد موت معاوية رضى الله عنه ، ولكنها الدنيا تعبث بالقلوب الفارغة من خشية الله ، بأصابع الفتن . وتحجبها عن نور الحق ، بما تزينه للناس من الزخرف العاجل والأمان الكاذب الختال . ومن ثم ، لم يعدم عبد الملك من يستعين به على حرب ابن الزبير ، ممن غرقوا فى بحر الضلالة حتى الأذقان[1] .

* * *

ووقف الحجاج على رأس ألفى فارس من جند الشام ، يستمع إلى آخر وصايا عبد الملك إليه . وليحمل منه كتابه إلى أهل مكة بالأمان لو دخلوا فى طاعته .

ولم يكن الألفان هما عدة الحجاج لحرب ابن الزبير ، ولكنهم كانوا الطليعة التى تتجمع حولها جيوش عبد الملك ، لو أن أهل مكة ومن تبعهم من الأمصار ظلوا ثابتين على عهدهم لحفيد الصديق فى أحسم معركة فى تاريخ الخلافة .

وسار الجيش الكثيف سالكاً طريق العراق نحو الطائف حتى لا يمر على المدينة مخافة أن يصطدم بأهلها فتقع بينه وبينهم المعارك فتعرقل مسعاه فى حصار مكة . . وبالطائف استقر جند الحجاج

(١) سئل ابن عباس عن ابن الزبير فقال : كان قارئا لكتاب الله متبعاً لسنة رسول الله ، قانتا لله - صائماً فى الهواجر من مخافة الله ، ابن حوارى رسول الله وأمه بنت الصديق ، وخالته حبيبة حبيب الله ، زوجة رسول الله ، فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله .

فى سلام بين أهله الأقوياء من قبيلة ثقيف ، تلك القبيلة العظيمة بخطرها وسلطانها فى تلك البقعة من أرض الجزيرة ، الغنية بمالها ووفرة رجالها ، بل تلك القبيلة المعروفة — فى مجموعها — بانتصارها القبلى لرجالها بالحق أو بالباطل على مدى التاريخ ، بالرغم من تأديب ولاة الإسلام لها فى كثير من المواطن، بل تلك القبيلة التى تأججت فيها نار البغضاء على ابن الزبير منذ قتل المصعب بن الزبير بطلها الكذاب المختار بن عبيد الثقفى فى معركة العراق .

ويئس الحجاج من أهل مكة ، فسير بعوثه فى أجواف الليالى إثر بعضها للانقضاض على أصحاب ابن الزبير من فوق جبل عرفه ، لتشيع فيهم الخوف والاضطراب ، عن طريق القتال الخاطف على ظهور الخيل . فكان لخيل الحجاج الغلبة فى ساحة البغى والعدوان ، فإن أصحاب ابن الزبير لم يتعودوا القتال الخائن ولم يتوقعوا الأخذ على غرة ، دون الاحتكام إلى السيف مع أعدائهم وجهاً لوجه ، حين ينبذون إليهم على سواء ، حتى يقضى الله بقضائه ، إمتثالا لأمر الله فى أدب الحرب حتى مع أكفر الكافرين ، حيث قال تعالى للمسلمين فى شخص رسولهم الكريم : « وإما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » .

ومرت الشهور القاسية يجر بعضها بعضا ، وفرسان الحجاج من قساة القلوب ، لا يفتأون يغيرون على مكة الآمنة ، وبواديها المترامية ، يقتلون من يلقونهم على المسالك والطرقات ، أفراداً وجماعات ، رجالا وأطفالا ، ثم يقتحمون فى سيلهم الشديد الجارف منافذ البلد الحرام ، فيفتكون بأهله ما استطاعوا الفتك ، ثم يفرون سراعاً تحت جنح الظلام دون أن تلحق بهم فرسان ابن الزبير ضررا يذكر .

وفوجئت مكة بما لا قبل لها به من جند الشام . فاكتمل للحجاج أربعون ألف مقاتل . انتشروا حول مكة من كل جانب . وأحاطوها إحاطة السوار بالمعصم . ومنعوا أهلها الخروج بعد أن منعوهم الميرة والماء إلا من بئر زمزم .

وأقبل موسم الحج فاصطدمت قوات الحجاج بقوات ابن الزبير . وحال الحجاج بين حفيد الصديق وبين الحج بالناس[1] . وحصره وأصحابه بالحرم . وحج هو بالناس قوة واقتدارا . ! !

وفى تلك الفترة العصيبة من المرحلة الحاسمة . فوجئ عبد الله ابن الزبير وأصحابه فى حصارهم بما هو أدهى وأمر . لقد فوجئوا بقتل عبد الله بن خازم أمير خراسان من قبل حفيد الصديق . واستسلام أهل المصر كله لخلافة عبد الملك . كما فوجئوا بنبأ حصار المدينة من كل جانب واستسلام أهلها منذ قليل أمام جيش طارق بن عمرو ، على رأس مدد هائل من أهل الشام . ثم ما لبثوا أن جاءهم نبأ إقرار عبد الملك للمهلب بن أبى صفرة على الأهواز وما معها . ليكون أميراً من قبله لا من قبل ابن الزبير . ! !

واجتمعت الأهوال كلها على صدر حفيد الصديق . وقد رأى الفزع يستبد بأصحابه . كلما نظروا إلى صور الهلاك المحقق وهى تطل عليهم من آفاق مكة كلها . . وماذا بعد أن رأوا جند عبد الملك ينصبون المنجنيق ويجمعون لها الحجارة الهائلة أكداساً مكدسة فوق أبى قبيس وزروراء . !؟ ولكن ابن الزبير كان كالطود . لم يهن ، ولم يحزن . ولم تلن له قناة . بل إن أصحابه لم يروه أقوى ولا أرهب

---

(١) كانت جملة الحجج التى حجها ابن الزبير بالناس قبل منعه فى تلك المرة ثمانى حجج .

ولا أشجع منه من قبل ، على مدى خلافته بينهم ! ! حتى لقد أتته جماعة منهم ، فأرادوه على الصلح أمام سطوة الطغيان الرهيب ، فما كان منه إلا أن أغلق باب التراجع أمامهم ، بل وحملهم على رأيه حملا ، وهو يقول :

ــ والله لو وجدوكم فى جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً ، والله لا أسألهم صلحاً أبداً . ! !

* * *

ودقت أخطر الساعات فى تاريخ المسلمين ، ووقف الطرفان المتباينان على شفا الهلاك فى حرب ضروس طاحنة وتقدم رجال الحبشة من جند الحجاج ، فألحوا على المنجنيق المنتشرة . فوق أبى قبيس يرمون بها الكعبة . من كل جانب ، فيهدون أركانها وسقوفها على أصحاب عبد الله بلا رحمة ولا شفقة . . ويدلف جنود الشام فى كثرتهم إلى أبواب البيت الحرام تحت ستار القذائف الهائلة ، فيعملون السيف فى جند حفيد الصديق . . ولكن حفيد الصديق لا يفتأ أن يتقدم أصحابه المتخاذلين فى قلتهم . فيرد وحده كيد المغيرين ، حتى يخرجهم من أبواب الكعبة ، ولا يزال بهم وهم يفرون سراعا أمام بأسه الشديد لا يلوون على شيء . حتى ينحازوا إلى معسكرهم فى أعلى الجبل من جديد ! ! وتتكرر المأساة الدامية بخطرها وغرابتها مرات كل يوم . فلا يزداد ابن الزبير إلا خطرا يرهب أعداءه فى كثرتهم ، فهو قد صار يقتل منهم أكثر مما يقتلون من أصحابه ! ! وكأنه قد صار وحده جيشاً لا قبل لأهل الشام به ، حتى لقد بدأت قلوبهم تضعف عن محاصرته ، وهم ينظرون إليه كما ينظرون إلى وحش كاسر ، قد هالتهم منه قوة لم يشهدوها فى يوم من الأيام ! ! بل إنهم ما يكادون يستقرون على الجبل ، حتى يستمعوا إليه يصيح

فيهم من أسفل الوادى خلف جدار الكعبة بصوت كقصف الرعود ، ويقول :

— هذا . . وأنا ابن الحوارى . ! !

ويشتد نكير الحجاج على جنده ، فيمزج شدته عليهم بدهائه معهم ، ويصيح فيهم صيحة المتهدد ويقول :

— يا أهل الشام : الله الله فى الطاعة ! !

ويتضاعف الرمى على الكعبة ، وجند الشام يرتجزون على صوت ضرباتهم المتلاحقة ، وينشدون فى حرارة قاسية فاجرة ويقولون :

مثــل الفنيــق المــزبد ترمى بها أعواد هذا المسجد

وتنزل الغارة من جحافلهم كالسيل المطبق على جوانب الكعبة وهى تتصدع تحت أثقال القذائف الهائلة ، ويدخل الغشمة من قساة القلوب من أبوابها على أصحاب عبد الله ، وهم يظنون أنهم آخذوه فى تلك الشدة الماحقة ، ولكنهم لا يلبثون أن يفروا أمامه — وحده — سراعا من كل باب دخلوه ، فلا تقف بهم أرجلهم — من خوف الموت — إلا فى أماكنهم على أعلى الجبل ، من جديد ، ومن ثم ، يستمعون وهم يشهقون ويزفرون إلى صوت حفيد الصديق وهو يصيح فيهم صيحته التى ألفوها منه بعد كل فرار :

— هذا . . وأنا ابن الحوارى . !

وكأن الله قد غضب لبيته العتيق ، أن تنتهك محارمه على تلك الصورة البشعة ، فأجرى سنته القديمة على كل من أراده بسوء على مدى الزمن . . فأرسلت السماء رعودها وبروقها . . ونزلت صاعقة بين أهل الشام فأصابت منهم اثنى عشر رجلا . . وفزع جند الحجاج

فى كثرتهم الغاشمة ، فكفوا عن الحرب ، وضعفوا عن الحصار !

وخاف جبار ثقيف سوء العاقبة ، فاشتد فى النكير على جنده ، ووقف يشجعهم ، ويذهب الخوف عنهم وهو يقول :

– يا أهل الشام ، إنى خبير بهذه البلاد ، هذه بروق تهامة ورعودها وصواعقها . . وإن القوم يصيبهم مثل الذى يصيبكم ! !

وعاد جند الشام مرة أخرى حول الحجاج ، يقذفون الكعبة من جديد . . وينشدون شعرهم الفظيع على صوت المنجنيق . . واشتد غضب السماء ، فطغى صوت رعودها على صوت المنجنيق نفسه ، ونزلت صاعقة فانشطرت شطرين ، أحرق أحدهما المنجنيق ، والتهب الآخر بالحجر العظيم الذى خرج منه ، فهبط مشتعلا على أصحاب ابن الزبير فأصابت ناره من كان حوله ، وقتلت فلقة منه الكثير غيرهم .

ونظر الحجاج مرة أخرى إلى أجناده ، وقد تفرقوا على ظهر الجبل العظيم ، وصاح فيهم وقال :

– ألم أقل لكم إنهم يصابون مثلكم . . وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة ! ؟

وما كانت تلك الكلمات الرهيبة من جبار ثقيف لتخفف روعهم أولتجمع شملهم . . فأسرع يتخلل جموعهم المنهارة ، ويتوعد الخائرين منهم بالعذاب والتنكيل . . ثم اعتلى كومة من أكوام الحجارة خلف منجنيق . . وأخذ يخطب فيهم ويقول :

– ويحكم ! ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا ، فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم ؟؟ فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته . ! !

ولم يكن فزع أصحاب ابن الزبير بأقل من فزع أصحاب عبد الملك ، فبدأوا يتفرقون عنه ، يبتغون الأمان لأنفسهم ولأهليهم . ! !

وماذا بعد أن أظلم فى وجوههم نور الأمل فجأة ، وأصبحوا لا يرون فى أفق الحياة إلا جيوش الشام تحمل الموت الناقع لأعداء عبد الملك ، دون أن تردها عن سبيل غايتها الخطيرة حرمة البيت الحرام والبلد الحرام[1] . ؟

وتسابق أهل مكة — وقد دب فيهم دبيب الخور — فى الخروج إلى الحجاج بالأمان ، تاركين ابن الزبير خلفهم للأقدار ، حتى خرج إليه منهم عشرة آلاف ، فأمنهم الطاغية . . حتى أبناء ابن الزبير أنفسهم فإنهم تركوه فى جوف الكعبة بليل ، ثم هرعوا إلى عدوه يطلبون منه العفو والغفران ، لئلا يأخذهم بجريرة أبيهم . !

وبقى حفيد الصديق فى قلة ضئيلة من أصحابه ، كان عمادها مواليه الأوفياء وقليل من آل الزبير ، فقد آثروا أن ينصروه حتى الموت .

وتسلل البطل العظيم فى جوف الليل إلى دار أمه أسماء الطاهرة ليعودها فى مرضها الذى شكت منه فجأة ، وليودعها الوداع الأخير ، فطرق بابها ودخل . . واستقبلته الأم العجوز الفانية . . فضمته إلى صدرها ضمة رقيقة حانية ، فيها الرحمة ، وفيها الثبات ، وفيها القوة الدافقة من معين قلب قوى يحتويه جسد ضعيف مريض بال، قد جرت عليه عجلة الزمان مائة عام فكفت منه البصر ، وأوهنت منه العظام .

---

(١) قال تعالى مبينا للمؤمنين حرمة البيت ، حتى فى قتال المشركين عنده فى أول عهد المسلمين بالقتال: « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » ولكن الحجاج ـ قبحه الله ـ لم يرع لبيت الله حرمة ، فقاتل فيه ، من لا يعتقد فى قرارة نفسه أنه خير من عبد الملك فحسب ، بل خير رجل ترنو إليه الخلافة بين المسلمين .

وربت عبد الله على كتفها ، رفق وحنان وهى مضطجعة فى فراش المرض ، وقال :

— كيف تجدينك يا أماه . ؟؟

فأجابت الأم وهى تهم بالجلوس معتمدة على كتف الأبن البار فقالت :

— ما أجدنى إلا شاكية . ! !

وداعبها عبد الله فقال :

— إن فى الموت لراحة . ! !

وانفرجت أسارير الأم عن ابتسامة خفيفة . وقالت :

— لعلك تمنيته لى ! ؟ ما أحب أن أموت حتى يأتى على أحد طرفيك . . إما قتلت فأحتسبك ، وإما ظفرت بعدوك فتقر عينى .

وضحك عبد الله ضحكة هادئة وقورة . غالب فيها حزنه وأساه فى حضرة أمه . . ثم أخذ يتحدث معها فى أمر الناس ، وجعل يشكو إليها خذلان أصحابه . وخروجهم إلى الحجاج ، حتى أولاده وأهله . . وبقاءه فى حفنة لا تكاد ترى فى جوف الكعبة . وليس لها معه صبر ساعة . . كما ذكر لها ما عرضه أعداؤه عليه — لو دخل فى الطاعة — من الأمان . بل مما يشاء من الدنيا ونعيمها .

وابتسمت الأم الرءوم . وهى تتحسس رأس ولدها ، وقالت :

— يا بنى . أنت أعلم بنفسك ! ! إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق . فاصبر عليه . فقد قتل عليه أصحابك . و لا تمكن رقبتك ، يلعب بها غلمان بنى أمية . . وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا ، فلبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك . .

وإن كنت على حق ، فما وهن الدين . ! ؟ كم خلودك فى الدنيا ؟؟ القتل أحسن . . يا بنى لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذل مخافة القتل ، فوالله لضربة سيف فى عز ، خير من ضربة سوط فى المذلة . ! !

ودنا عبد الله من أمه فقبل جبينها وقال :

ـ هذا والله رأيى . . والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها . . وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل محارمه ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتينى بصيرة فوق بصيرتى . فانظرى يا أماه فإنى مقتول فى يومى هذا . فلا يشتد حزنك . وسلمى الأمر لله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ، ولا عمل بفاحشة قط . ولم يجر فى حكم الله . ولم يغدر فى أمان . ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد . ولم يبلغنى ظلم عن عامل فرضيته . بل أنكرته . ولم يكن عندى آثر من رضى ربى عز وجل . .

وصمت حفيد الصديق بين يدى أمه لحظة . . ثم رفع بصره إلى أعلى . . ورفع يديه وقال :

ـ اللهم إنى لا أقول هذا تزكية لنفسى ، اللهم أنت أعلم بى منى ومن غيرى ، ولكنى أقول ذلك تعزية لأمى لتسلو عنى . .

وسكت البطل العظيم ، وأخذ يمعن النظر فى أمه ، وكأنه يملأ عينيه منها قبل فراقها إلى الأبد . . بينما استجمعت الأم كل قوتها ، ولم تبال بالدمع يغلب مآقيها ، وينحدر على خديها المتجعدين بأخاديد الكبر ، وما لبثت أن قالت :

ـ إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا ، إن تقدمتنى

أو تقدمتك ، فني نفسي . . . اخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك .

ووقف الإبن البار من قعدته وهو يقول :

– جزاك الله يا أماه خيرا . . فلا تدعى الدعاء قبل وبعد .

وتغلبت الأم الفانية على خور ساقيها المتراخيتين ، فوقفت لتضم فلذة كبدها إلى صدرها ، ضمة تراها الضمة الأخيرة . . وهى تقول :

– لا أدعه أبداً . . لمن قتل على باطل ، فلقد قتلت على حق .

ثم رفعت بصرها نحو السماء وقالت :

– اللهم ارحم طول ذلك القيام وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبى . . اللهم إنى قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فقابلنى فى عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين .

ثم أخذته واحتضنته إلى صدرها . . فأحست بدرعه فوق صدره . . فقالت :

– يا بنى ، ما هذا لباس من يريد ما تريد من الشهادة ! !

فأجابها البطل الشيخ فقال :

– يا أماه ، إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به .

فأجابته الأم القوية المؤمنة فقالت :

– لا يا بنى . . ولكن انزعه . ! !

ونزع عبد الله درعه ، وجعل يلبس بقية ثيابه . . ويتحفظ من أسفله لئلا تبدو عورته إذا قتل . . ثم أخذ يتطيب ويتعطر ، والأم لا تفتأ تردد قولها إليه :

- شمر ثيابك . . شمر ثيابك . .

ثم جعلت تحسن إليه الشهادة وتزينها له ، وهى تذكره بأبيه الزبير وجده الصديق ، وجدته صفية ، وخالته عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحبب إليه القدوم عليهم ، إذا هو قتل شهيداً .

وزفر عبد الله زفرة ساخنة ، وهو يردد فى همس خوفه من أن يمثل به أعداؤه بعد قتله . . وسمعت الأم الرءوم قوله ، فانطلق لسانها يقول :

- يا بنى ، ما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها . . فامض على بصيرتك واستعن بالله .

وما كاد يتقدم الرجل العظيم ، ليغادر بيته ، حتى تصدت له أجمل نسائه وعلى يديها وليدها ، فما كاد يراها ، حتى لكأنه رأى الدنيا تفتنه بزينتها ، فأدار وجهه عنها ، وقال :

- إليك عنى . . ذرينى أذهب إلى ربى . !

وانطلق البطل العظيم وهو يردد على مسمع أمه المرهفة قوله وهو يرتجز :

إنى إذا أعرف يومى أصبر وإنما يعرف يومه الحـــر
إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

وتجيبه الأم فى ثبات وقـــور :

- تصبر إن شاء الله . . أبوك أبو بكر والزبير ، وأمك صفية بنت عبد المطلب !!

ودخل ابن الزبير المسجد الحرام ، فأخذ يصلى الليلة كلها ، حتى أخذته - من فرط الجهد - إغفاءة خفيفة ، استيقظ منها عند

الفجر فأمر مؤذنه فأذن للفريضة[1] . .

وقضيت الصلاة فى خشوع رهيب . حتى لكأنما كانت فى خشوعها ورهبتها هى صلاة ملائكة فى عالم النور .

ووقف حفيد الصديق على المنبر يخطب أصحابه ، وينظم صفوفهم القليلة للقاء عدوهم . . وأخذ يحضهم على القتال ويحثهم على الصبر حتى يأتى قضاء الله .

ثم نظر إلى آل الزبير حول المنبر ، وقال :

– اكشفوا وجوهكم حتى أنظر .

فكشف آل الزبير عن وجوههم المغافر والعمائم ، وقد أرهفت آذانهم لاستماع ما يقول . . فخطبهم فقال :

– يا آل الزبير لو طبتم لى نفسا عن أنفسكم . كنا أهل بيت من العرب ، أصطلمنا فى الله لم تصبنا زباء بتة ، أما بعد ، يا آل الزبير : فلا يرعكم وقع السيوف ، فإنى لم أحضر موطنا قط إلا أرتثت فيه من القتل .. وما أجد من واء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم لا أعلم امرءاً كسر سيفه ويستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل ، غضوا

---

(١) حينما دخل ابن الزبير المسجد بعد لقـاء أمه وجد أن الأبواب قد شحنت بأهل الشام ، وأسلم أصحابه المحابس ، وكثرهم القوم فأقاموا على كل باب رجالا وقائداً وأهل بلد ، فكان لأهل حمص الباب الذى يواجه باب الكعبة ، ولأهل دمشق باب بنى شيبة ، ولأهل الأردن باب الصفا ، ولأهل فلسطين باب بنى جمح ، ولأهل قنسرين باب بنى سهم ، فراح فارس الخلفاء يحمل فى هذه الناحية مرة ، وفى هذه الناحية أخرى فلكأنه أسد فى أجمة ما يقدم عليه الرجال فأبعد القوم عن المدخل الذى دخل منه ، وهو يقول : هذا وأنا ابن الحوارى ، لو كان قرنى واحدا كفيته .. فيجيبه ابن صفوان وهو معه : أى والله وألف قرن ! !

أبصاركم عن البارقة ، وليشغل كل امرئ قرنه ، ولا يلهينكم السؤال عني ، ولا تقولن أين عبد الله بن الزبير ، ألا من كان سائلا عني ، فإني في الرعيل الأول ، احملوا على بركة الله . .

وأقبلت نسمات الصباح ، تهب على البيت الحرام ، فتحمل منه إلى آفاق مكة المحصورة ريح المسك ، وقد لطخ به عبد الله جوانب الكعبة . . وكأنما كانت هذه النسمات على رقتها وعطرها الفياح – ذلك الصباح – هي نذير الفناء في ذلك اليوم العصيب . !

وفجأة . . انقلب سكون الكون إلى ثورة عارمة على البيت الحرام من كل جانب . . وسلط جيش الشام قذائف المنجنيق على قواعده ليهدموه على ابن الزبير وأصحابه . . وتقدم أهل الأمصار من جيش عبد الملك خلف قوادهم إلى أبواب المسجد الحرام جميعها ، ليقتحموه عليهم في ساعة واحدة .

وانبرى عبد الله كالليث الهائج يرد سيل أعدائه جميعاً ، وقد أمسك بسيفين في كلتا يديه[1] وأصحابه من خلفه يحملون عليهم حملة رجل واحد ، حتى أخرجوهم من الأبواب . . وظل حفيد الصديق من خلفهم يطاردهم وحده بسيفه دون أن يجرؤ أحدهم على الاقتراب منه . . حتى انتهوا أمامه إلى ساحة معسكرهم بالحجون ، وهم يظنون أنه لا يقتل أبدا . ! ومن ثم عاد البطل الرهيب إلى مكانه بالبيت العتيق وهو يردد قوله لجحافل أعدائه بصوت كالرعد أو هو أرهب:

– هذا وأنا ابن الحواري . . لو كان قرني واحدا كفيته . .

---

(١) روى الزبير بن بكار عن هشام بن عروة قال : إن أول ما فصح به عبد الله ابن الزبير من النطق بالكلام – وهو طفل صغير – هو قوله: « السيف . . السيف » فكان لا يضعه من فيه وكان الزبير إذا سمع ذلك منه يقول له : « أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام » .

وينظر أهل الشام إلى ابن الزبير وهو يشق طريقه عائداً إلى الحرم . ويغلبهم الإعجاب والإشفاق والبكاء، فيجيبونه بصوت خافت خائر :

ـ أى والله . . وألف رجل ! !

وتتكرر المأساة الكبرى مرة ومرات .. وتسقط شرفة من شرفات المسجد على رأسه فتفلقه ، ويسيل دمه الممزوج بدم النبوة على وجهه ولحيته ، ويحس الرجل العظيم بسخونة الدم المتدفق من جبينه يقطر على الأرض فيصيب قدميه ، فيقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا
ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ويدخل جحافل الأعداء . . فتختفى أمامهم لأول مرة صورة عبدالله ، وقد أحاطه بعض أصحابه يعالجون أمره الشديد . . ويرفعونه بأيديهم إلى جانب الكعبة . وينظر عبد الله إلى صور الوحوش الضارية فى وجوه أهل الشام ، تفتك بأصحابه الفتك كله . ويبعثرون بأقدامهم فى أرجاء البيت أشلاءهم ودماءهم ! ! ويحاول البطل المجندل أن يطبق بيديه على سيفه فلا يستطيع . . فلقد سالت منه الدماء ، وصار كالجثة الهامدة لا حراك فيها ولا حياة . .

ويقترب من البطل الكسير ، رجل أسود من رجال الحجاج ، وهو لا يعرفه . . فلا يلبث أن يفر منه خوفاً وفزعاً ، وهو ينظر إليه فى حفيظة جاهلية ويقول :

ـ يا ابن الزانية . !

ويرتعش ابن الزبير غضبا ، وكأنه يتشبث بالحياة لقتل الرجل الجبان ، ولكنه لا يستطيع الحراك . . فتنفلت من عينيه دمعة الغضب

لأمه الطاهرة التى لا يقدر على الثأر لها ، ولا يملك إلا أن يقول :

ـ اخسأ يا ابن حام . . أسماء زانية . ! ؟

ثم أنشد يقول :

أسماء يا أسماء لا تبكينى   لم يبق إلا حسبى ودينى
وصارم لانت به يمينى

ويتقدم رجل من أهل مكة إلى عبد الله وهو على حاله الأليمة ويقول :

ـ ألا نفتح لك باب الكعبة فتدخلها ؟

فيجيبه البطل العظيم قائلا : من كل شىء تحفظ أخاك إلا من نفسه

ثم أنشد يقول :

ولست بمبتاع الحياة بسبة   ولا مرتق من خشية الموت سلما ! !

وأقبل جند الشام نحو ابن الزبير ، وهم يخصفون بالسيف من بقى من أصحابه خصفا ، حتى خلصوا إليه وهو بين موليين من مواليه يذودان عنه وهما يقولان له :

ـ العبد يحمى ربه ويحتمى ! !

فحزوا رأسه الكريم ورأس موليه جميعاً ، ثم بدأوا يكبرون ويهللون فى جنبات الكعبة ، ليعلنوا الحجاج فى مقره فوق الأبطح بالنبأ العظيم . .

وخر الحجاج ساجداً بين أصحابه . . فلقد فرغ من المهمة الشاقة ، التى ما كان يتصور أن تنتهى على هذه الصورة الرهيبة .

وخيمت على مكة كلها سحابة من الغم ، شملت أهلها وأهل

الأمصار على السواء . . وانطلقت صرخة من مولاة لآل الزبير وهى تقول :

– وا أمير المؤمنيناه ، وا أمير المؤمنيناه . .

وصك صراخها أذن عبد الله بن عمر . . فارتعدت فرائصه فزعاً حتى غلبه البكاء . . وما كاد يخرج من بيته نحو الحرم ، حتى سمع أصوات بعض أهل الشام فى البيت الحرام ما تزال تكبر لمصرع حفيد الصديق غبطة وسرورا . . فهز رأسه واسترجع . وأخذ يستعيد بذاكرته عشرات السنين إلى أن بلغت به يوم ولادة عبد الله بن الزبير . . فطأطأ رأسه ، والدمع يغلب عينيه ، وقال :

– أما والله للذين كبروا عند مولده ، خير من هؤلاء الذين كبروا عند قتله . .

وأقبل الحجاج يصطحب معه قائده طارق بن عمرو ، ويحيط بهما ثلة من جند الشام الأقوياء . فوقفوا على جسد البطل العظيم فرحين .

ونظر طارق إلى الليث المجندل ، فلم يملك نفسه أن أجهش بالبكاء ، وقال :

– ما ولدت النساء أذكر من هذا ! !

وغضب الحجاج وهو يقبض بيده على كتف طارق ، وقال :

– تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين ؟

ولكن طارقا لم يأبه ولم يتراجع ، فقال :

– نعم ! هو أعذر لنا ، ولولا هذا ما كان لنا عذر ، إنا محاصروه وهو فى غير خندق ولا حصن ، ولا منعة منذ سبعة أشهر ،

ينتصف منا ، بل يفضل علينا فى كل ما التقينا نحن وهو . !

وسكت الحجاج ، حتى لا تكون فتنة أخرى ، قد يكون هو وقودها ، وقد صار الناس ، فى هول واضطراب . . ثم أمر بالجسد ، فصلب على جذع نخلة على ثنية كدا عند الحجون . . كما بعث بالرأس مع رجال من الأزد فى قوة من جند الشام إلى عبد الملك فى دمشق ؛ وأمرهم أن يمروا بالمدينة فينصبوها بين أهلها ساعة من نهار .

وراح أهل الشام يمرون على الفارس المصلوب ويسبونه ويشتمونه ؛ ليشيعوا الفزع فيمن يظهر ألمه لمصرع أمير المؤمنين . ! !

وجاء وقت الصلاة . وأذن مؤذن الحجاج ، ولكن الناس تثاقلوا فى السعى لأداء الفريضة حزناً وغماً . . ورأى الحجاج الداهية ما أصاب الناس من بلاء عظيم . فخطبهم فقال :

ـ أيها الناس ! إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة ، حتى رغب فى الخلافة ، ونازعها أهلها ، وألحد فى الحرم فأذاقه الله من عذابه الأليم . . وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير ، وكان فى الجنة وهى أشرف من مكة . فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التى نهى عنها ، أخرجه من الجنة . . قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله .

وقام الناس إلى الصلاة خلف الحجاج ، وقد شملت سوادهم الرهبة منه أكثر مما شملته بين يدى الله ! ! وما كادت الصلاة تنقضى حتى أخذ الناس يسرعون فى الخروج ، وكأنهم يفرون من قسورة . . فناداهم الحجاج فأجلسهم جميعاً . . لقد خاف أهل مكة أن يثوروا من جديد ، فينزل الجسد من مصلبه ، فتقع بينهم وبين أهل الشام المعارك . . فصعد على المنبر ، وقال :

ـ يا أهل مكة ، إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير ، فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب فى الدنيا ، ونازع الخلافة أهلها ، فخلع طاعة الله وألحد فى حرم الله ، ولو كانت مكة شيئا يمنع القضاء ، لمنعت آدم حرمة الجنة ، وقد خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شىء ، فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض ،وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، وابن الزبير غير كتاب الله . .

وملأ الغضب جوانح عبد الله بن عمر ، فانبرى له من وسط الناس فقاطعه ، وقال :

ـ لو شئت أن أقول لك كذبت لقلت ، والله إن ابن الزبير لم يغير كتاب الله ، بل كان قواما به صواما ، عاملا بالحق .[1]

ونزل ابن الفارعة[2] من على المنبر ، ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة ، مخافة أن يقع الناس فى قتال . . وأمر أجناده أن يحيطوا بالجسد المصلوب ، وأن يمنعوه من الناس ، ولا يمنعوا الناس منه . .

---

(١) قال الطبرانى : حدثنا زكريا الناجى ، حدثنا حوثرة بن محمد ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا سعيد بن المرزبان أبو سعيد العبسى ، حدثنا محمد بن عبد الله الثقفى قال : « « شهدت خطبة ابن الزبير بالموسم ، خرج علينا قبل التروية بيوم وهو محرم ، فلبى بأحسن تلبية سمعتها قط ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ أما بعد ، فإنكم جئتم من آفاق شتى ، وفودا إلى الله عز وجل ، فحق على الله أن يكرم وفده ، فمن كان منكم يطلب ما عند الله ، فإن طالب ما عند الله لا يخيب ، فصدقوا قولكم بفعل ، فإن ملاك القول الفعل ، والنية النية ، والقلوب القلوب . الله الله فى أيامكم هذه ، فإنها أيام تغفر فيها الذنوب . . جئتم من آفاق شتى فى غير تجارة ولا طلب مال ولا دنيا ترجونها ها هنا .

ثم لبى رضى الله عنه ولبى الناس ، فما رأيت باكيا أكثر منه يومئذ . .

(٢) الفارعة : هى أم الحجاج التى بعث إليها زوجها الحارث بن كلدة بطلاقها ـ قبل أن يتزوجها أبوه الحجاج ـ واصفا إياها بأنها قذرة . .

ووقف أهل مكة ومن معهم من أهل الأمصار يبكون فارس الخلفاء ، ويذرفون الدمع السخين حول الجسد المنصوب ، وريح المسك تفوح منه . . وقف من بينهم عبد الله بن عمر يبكيه ويقول :

– السلام عليك أبا خبيب . . السلام عليك أبا خبيب . . السلام عليك أبا خبيب . . أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله إن كنت ما علمت صواما قواما ، وصولا للرحم . . أما والله لأمة أنت شرها لأمة خير . .

وجاءت بنت الصديق بعد حين ، يحيط بها رجال من أهل بيتها ، فأفسح لها الجمع الطريق إلى ابنها المصلوب . . فوقفت عليه وظلت تدعو له وتخاطبه كأنما تخاطبه وهو حي . . لا تتأثر ، ولا تتلجلج ولا يبدو منها هلع ولا اضطراب . .

وعلم الحجاج بأمرها فاستبد به الغيظ ، وأسرع إليها ، فسمعها تقول وهي تتحدى أهل الشام من حوله :

– أما آن لهذا الفارس أن يترجل ؟ ! !

وبادرها الطاغية الجبار بقوله :

– المنافق ! ؟

فأجابته على الفور :

– والله ما كان منافقا ، ولـكنه كان صواما قواما برا .

وعلت حمرة الغضب وجه الحجاج بين الناس فقال :

– كيف رأيت ؟ نصر الله الحق وأظهره ! !

وأجابت أم البطل وهي تبتسم ساخرة من قوله فقالت :

– ربما أديل الباطل على الحق وأهله ، وإنك بين فرثها والجنة ..
وانخلع قلب الحجاج لقولها . . فقال :

– إن ابنك ألحد فى هذا البيت ، وقد قال الله تعالى « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم .

فبادرته قائلة :

– كذبت . . كان أول مولود فى الإسلام بالمدينة وسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحنكه بيده ، وكبر المسلمون يومئذ ، حتى ارتجت المدينة فرحاً به ، وقد فرحت أنت وأصحابك بمقتله ، فمن كان فرح يومئذ بمولده خير منك ومن أصحابك ، وكان مع ذلك براً بالوالدين ، صواما قواما بكتاب الله ، معظما لحرم الله ، يبغض من يعصى الله عز وجل . .

وانكسر الحجاج ، فلم يستطع أن يحرى جوابا ، وانصرف مسرعاً وهو يقول :

– إنك عجوز قد خرفت . ! !

ولم تدع أم عبد الله عدوها يفلت حتى لاحقته بالرد المفحم فقالت :

– والله ما خرفت منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » فأما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فأنت ! !

وبلغ عبد الملك موقف الحجاج من أسماء بعد أن قر هو عينا بقتل ابن الزبير ، فكتب إليه يقول :

– مالك ولإبنة الرجل الصالح . . ! ؟

وكأن الحجاج قد رأى فى كتاب عبد الملك إليه حرجا ، فاستشاط غضبا من ابنة الرجل الصالح ! ! وبعث بعض أجناده الغلاظ ليستقدمها إليه ، فأبت . . فأعاد إليها رسولا آخر ، يملى عليها أمره الغاشم ويقول لها عن لسانه :

– لتأتينى ، أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك ! !

فأبت أسماء على الرسول ، وسخرت من سيده ، وقالت :

– والله لا آتيه حتى يبعث إلى من يسحبنى بقرونى . !

وامتلأ صدر الحجاج بالغيظ ، فلم يطق صبرا ، وأخذ نعليه على عجل ، ثم انطلق يتوذف حتى دخل عليها .. وما أن طرق حجابها ، حتى أخذته هيبة طاغية ، أطفأت غيظه ، فتلعثم ، وقال :

– يا أماه ، إن أمير المؤمنين أوصانى بك ، فهل لك حاجة !؟

وأجابته السيدة المؤمنة وقالت :

– لست لك بأم ، إنما أنا أم المصلوب على الثنية . . ومالى من حاجة ، ولكنى أحدثك . . إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » فأما الكذاب(1) فقد رأيناه ، وأما المبير ، فلا أخالك إلا إياه . .

وعاد الغضب إلى الحجاج ، فقال لها :

– كيف رأيتنى صنعت بعدو الله !؟

فأجابته فى هدوء وثبات وقالت :

– رأيتك أفسدت عليه دنياه ، وأفسدت عليك آخرتك . !

وشاء الحجاج أن يتكلم ، ولكنها عاجلته فقالت :

---

(1) الكذاب : تعنى المختار بن عبيد الثقفى .

— بلغنى أنك تعيره وتقول له : « يا ابن ذات النطاقين » ! !
أنا والله ذات النطاقين ، أما أحدهما ، فكنت أرفع به طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أبى بكر ، وأما الآخر فنطاق المرأة التى لا تستغنى عنه . .[1]

وانكسر الحجاج مرة أخرى فى حضرة بنت الصديق ، فأسرع بالقيام . . وانصرف عنها ، لا يلوى على شىء . . !

ودخل ابن عمر على أسماء ليواسيها فى الإبن البار ، وقد طال صلبه ، وقال :

— إن هذا الجسد ليس بشىء ، وإنما الأرواح عند الله ، فاتقى الله واصبرى . .

ولكن أسماء كانت أسبق منه فى مواساة نفسها بنفسها ، ورضائها بقضاء الله ، دون حاجة إلى تذكير . .

فأجابته فى قوة وصلابة ، وقالت :

— وما يمنعنى من الصبر ، وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل ! ؟

* * *

ونزل الفارس المصلوب من مصلبه ، وقد جمعه آل الزبير بعد إنزاله عن الجذع عضواً عضواً . . ودخلوا به على أمه ، فحمدت

(١) لما بلغ عبد الله بن الزبير تعيير الحجاج له بقوله إنه ابن ذات النطاقين ، أنشد قول الهذلى متمثلا :

وعيرها الواشون أنى أحبها
وتلك شكاة نازح عنك عارها
فإن أعتذر منها فإنى مكذب
وإن تعتذر يردد عليك اعتذارها

الله وكبرت . . واشتد عودها ، وكأنما دب الشباب فى جسدها الهـالك من جديد . .

واشتركت بنت الصديق فى غسله ، ثم أحضرت كفنه الذى أعدته له منذ تركها فى آخر لقاء ودعها فيه وودعته ، فأدرجته فيه عضواً عضواً بعد أن حنطته وطيبته . . ثم صلت عليه وحدها ، قبل أن يصلى عليه الناس .

وودع الجثمان الطاهر مكة إلى المدينة بعد قليل ، ليدفن حيث أوصى صاحبه أمه من قبل . . إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وعمر ، فى دار صفية بنت حيي رضى الله عنها . .

ووقفت عجلة الزمان فجأة ، بعد مرور مائة يوم على مصرع أمير المؤمنين ، لتودع من بعده آخر دوحة من جنة المهاجرين والمهاجرات ، فتلحق بنت الصديق بحفيد الصديق ، فى زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . تاركة فم الزمان ينعى من ورائها دولة الإيمان على وجه الأرض ، وقد ماتت بموت ابن الزبير . . إلى حين . .

مراجع الكتاب

١ — البداية والنهاية . . لابن كثير .

٢ — الإصابة فى تاريخ الصحابة . . لابن حجر .

٣ — تهذيب الأسماء واللغات . . للإمام محيي الدين النووى

٤ — السيرة النبوية . . لابن هشام .

٥ — الإمامة والسياسة . . لابن قتيبة الدينورى

٦ — أسد الغابة فى تاريخ الصحابة . . لابن الأثير

٧ — عيون الأخبـــار . . لابن قتيبة الدينورى

٨ — الرياض النضرة . . للحافظ محب الدين الطبرى .

٩ — العقد الفريد . . لابن عبد ربه .

١٠ — الأغانى . . . لأبى الفرج الأصفهانى .

١١ — إحياء علوم الدين . . للإمام الغزالى .

١٢ — تاريخ الإسلام السياسى . . لأمين سعيد

هذه عدا طائفة كبيرة من المؤلفات القديمة والحديثة المعتمدة وقد أشرنا إلى بعضها فى هوامش الكتاب .

كتب للمؤلف

(ا) فى سلسلة التاريخ الإسلامى :

١ ـ قاهر الصخرة (طارق بن زياد)	تحت الطبع
٢ ـ أسد العرين (صلاح الدين الأيوبى)	« «
٣ ـ اللواء الأحمر (شهداء الطليعة)	نفذ وتحت الطبع

(ب) فى سلسلة التاريخ القومى :

٤ ـ ثورة سنة ١٩١٩ ـ مقدماتها ونتائجها	تحت الطبع
٥ ـ من هو سعد زغلول ! ؟	« «
٦ ـ حقيقة الثورة العرابية	« «
٧ ـ الوعـــود البريطانية	نفذ
٨ ـ الحركات النسائية والاستعمار	نفذ وتحت الطبع

(جـ) فى سلسلة رسائل الإصلاح :

٩ ـ مناهج البذل فى القرآن	تحت الطبع
١٠ ـ أسرار الإسراء والمعراج	« «
١١ ـ أسرار الحج	« «

١٢ ــ ورثة الكتاب (رسالة العلماء) نفذ وتحت الطبع

١٣ ــ من فوق منبر الإسلام تحت الطبع

١٤ ــ محمد رسول الإسلام فى نظر فلاسفة الغرب وكبار علمائه وكتابه نفذ وتحت الطبع

١٥ ــ مقومات الدعوة الإسلامية من خلال النظر فى بدء الخلق والنشأة ، ومركز العقل من الفكر الإسلامى . . تحت التوزيع

رقم الإيداع ٧٨/٣٣٨٧

الترقيم الدولى × - ١٢ - ٧٣٠١

دار النصر للطباعة الاسلامية

٢ (أ) شارع نشاطى ــ شبرا

القاهرة

ت : ٥٥٢٢١

هذا الكتاب

هذه قصة الفارس المصلوب يحكيها قلم إسلامى معروف معروف بجهاد لسانه ، وجهاد قلمه .

وفى تاريخنا كم من فارس مصلوب فى سبيل الحق .. على امتداد عصور الإرهاب والتسلط .

إلا أن عبد الله بن الزبير ، وابن أسماء بنت أبى بكر أيضاً يبقى علماً فذاً فى تاريخ الشهداء ... الشهداء ضد الطاغوت .. وفى سبيل أن تبقى حية خفاقة نظم وأساليب الإيمان فى الحكم شورية إسلامية .. وليست فردية استبدادية أو « ثورية » !!

إن عبد الله بن الزبير أتيح له أن يتربع على عرش الدولة الإسلامية ، وقد كان بإمكانه أن يستمر على هذا العرش لو هو باع آخرته ، ونهج نهج هواة العروش .. لكنه جاء فى غير عصره ... وتمسك بأساليب السلف فى الحكم .. فلم يستطع أن يسود فى عصر كانت السيادة فيه تتطلب الإلتواء فى السياسة ، والبذل فى المال ، وكسب الرجال من أى طريق .

وتمثل قصة ابن الزبير إحدى ملاحم الجهاد فى سبيل المبدأ ... كما تمثل الفترة التى عاش أيامها مرحلة من أدق مراحل تاريخنا ، تحتاج إلى أمانة فى السرد ، وصدق فى التحليل ، ورؤية إسلامية متوازنة لحركة الأحداث ، ومراقبة واعية لخيط البحث عن الحق لدى كل الأطراف المتصارعة ... التى لا نملك إلا أن نحسن الظ
عناصرها ، وندين بعض عناصرها الأخرى .

ولعل هذه الخصائص هى التى يمتاز بها هذا الـ
الروائى المسلم محمد فهمى عبد الوهاب .. الذى تفخر د
بأن تقدم تحفته تلك إلى كل قارىء مسلم يبحث عن ر
وفنية لتاريخه الإسلامى العظيم .